هوشنك أوسي

حفلة أوهام... مفتوحة



مكتبة ٦٢٠ رواية



حفلةُ أوهامٍ مفتوحة

يا حبذا بلاد اليمن من بلد ..

ويا حبذا ساكن اليمن من كانا..

يمن سعيد

كان وسيبقى

مكتبة | 620

الطبعة الأولى، 2018
عدد الصفحات: 327
القياس: 5 .14 × 21.5
جميع حقوق النشر والترجمة محفوظة
دار سؤال للنشر
لبنان - بيروت
الحمراء - شارع ليون - بناية برج ليون - الطابق السادس
ص.ب: 58-360-11
هاتف: 740437 1 00961

www.darsoual.com
@darsouall2014
dar_souaal@outlook.com
Dar Soual

ISBN: 978-614-8020-66-7

التصوير وتصميم الغلاف: سيبان حوتا

إن دار سؤال للنشر غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبّر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء مؤلّفه، ولا تعبّر بالضرورة عن آراء الدار.

٢٠٢٠١٢٤



هوشنك أوسي

مكتبة | 620

حفلةُ أوهامٍ مفتوحة

رواية



الإهداء

إلى الطفل الكردي السوري: آلان عبدالله شنو.

إلى ضحايا الأوهام... وضحايا الحقائق.

هوشنك أوسي

أوستند

13/ 5/ 2018

مكتبة
t.me/t_pdf

لا، أبداً، . . . لم يعد يعني لي هذا؛ أيّ شيء، سوى أنه القليلُ من الماضي الذي يلاحقُ ويحاصرُ المستقبل، تارةً شزراً، وتارةً بكثافة. حيلتي في الهروب من الحقيقة، هي اختلاق سردٍ موازٍ لها. وحيلةُ الحقيقة في الانقضاضِ عليّ متلبّساً بما اقترفتهُ، هي إغراقي في الكآبة والحزن واللاجدوى مما سردته وكتبتهُ. بين هاتين الحيلتين، لستم مُجبرين ومُجبرات على اقتطاعِ وقتٍ من أعماركم القصيرة وهدرِهِ في قراءة هذه الصفحات التي أخذت من عمري القصير ما أخذتهُ.

قالها باولو كويلو في «الخيميائي»: «الحياة تجذب الحياة». بالنسبة لي: الموت يجذب الموت. والموت يجذب الحياة. والحياة تجذب الموت. الموتُ والحياة، عاشقان لدودان. والانتماء؛ ذاكرة مفخخة، كثيراً ما تفضي إلى الموت، وقليلاً ما تفضي إلى الحياة التي باتت حفلة انتقام مفتوحة، وحفلة ندمٍ مفتوحة، لا خيارَ أمامنا سوى الدخول إليهما. ولا مناص أمامنا من الخروج منهما. لكن، إلى أين؟! لا أحد يعرف!

«... أيها الحمقى. أين أنتم ذاهبون؟!».

. . . ومع ذلك، لم يلحظ أيٌّ مِن أفراد أسرته أو مِن أصدقائهِ حدوثَ أيّ تغييرٍ مفاجئ أو غريب طرأ على سلوكهِ وسير حياتهِ. لا مشاكل صحيّة أو نفسيّة أو ماليّة اعترضتهُ، وعانى منها. علاقته مع زوجته ممتازة، ولم تشتكِ من أي فتورٍ أو اضطراب في تعاملهِ معها. أو ربما هكذا كان يظنُّ الناس؛ أنه يظهرُ خلافَ ما يستبطن. قبل اختفائهِ بأسبوع، ترك يان دو سخيبّر (Jan de Schipper) رسالةً مؤرّخة بـ 10/ 9/ 2015 ذكر فيها أسباب اتخاذهِ قراراً أو حكماً بإعدام كتبهِ التي ألّفها خلال 27 سنة من روايات ودواوين شعر، وإعدام مجموعة من اللوحات الزيتيّة رسمها بتقنيات مختلفة، بين عامَي 2000 و2015، وعددها 25 لوحة متفاوتة القياسات ومتنوّعة المواضيع. وبحسب ما جاء في تلك الرسالة؛ كان من المفترض أن ينفّذ حكمه في يوم 17/ 9/ 2015، وذلك في حديقة منزله الكائن في شارع ستينسدايك 673 بمدينة أوستند. لكنه لم ينفذ الحكم لأسباب ما زالت حتّى الآن مجهولة. ذكر في رسالته القصيرة والأخيرة تلك أنه سيغادر، من دون تحديد الوجهة إلى أين؟!، واختفى تماماً. اختفى من حياة أسرته وأصدقائه. وفشلت السلطات البلجيكيّة في

إيجاد أيّ خيط يمكن التقاطهُ للعثور عليه طوال هذه السنوات الثلاث. ولم تجد له اسماً على لوائح المغادرين في كل مطارات بلجيكا وأوروبا، لأن احتمال انضمامه إلى تنظيم «داعش» كان وارداً، ولو بنسبة ضئيلةٍ جدّاً. هذا الاحتمال تراجع أمام تقدّم فرضية الانتحار. ولكن، لماذا؟ وكيف؟ وأين؟! ومتى؟! هذا ما كان يتساءل عنه إيريك فان مارتن؛ الضابط المكلّف بالتحقيق في قضية اختفاء الكاتب والروائي البلجيكي يان دو سخيبّر. إذ صارت هذه القضيّة بمثابة لغز وتحدّ كبير لفان مارتن، لأن المختفي شخصيّة عامّة، وشغل اختفاؤه الصحافة والرأي العام البلجيكي، وعدم كشف حقيقة اختفائه سيعتبر فشلاً ذريعاً له كضابط محقق، وللبوليس البلجيكي بشكل عام.

بعد استنفاد فان مارتن كل أساليب التحقيق الجنائي، لجأ إلى طريقة أخرى مختلفة تماماً، لا تنتمي إلى عالم التحقيقات الجنائيّة، في محاولةٍ منه الكشف عن ملابسات هذه الحادثة التي ربما تكون جريمة قتل أيضاً. تلك الطريقة الجديدة كانت بأن يقرأ ويدققَ في كتب ولوحات الشخص المختفي، ثم العودة إلى رسالته الأخيرة، لربما يلتقط خيطاً يقوده إلى كشف سرّ وملابسات هذه الحادثة الغامضة.

* * *

بخلاف الكثيرين الذين يبدأون شعراء أو صحافيين وينتهون روائيين، بدأ يان دو سخيبّر تجربته بكتابة الرواية، وأنجز روايتين مطبوعتين، ومخطوط رواية غير منشورة. واتجه إلى الشعر متأخّراً، وألّف ثلاثة دواوين، أوّلها «أنا يهوذا الاسخريوطي ولن اعتذر»،

صدر سنة 2010. والثاني «سماء منكوبة» صدر سنة 2012، والديوان الأخير كان بعنوان «وسادتي المحشوّة بهدير القطارات» صدر سنة 2014. وترك بعض القصائد المتفرقة، يبدو أنه كتبها قبل اختفائه، ولم تنشر في كتاب.

روايته الأولى بعنوان «**غريب على أراضٍ غريبة**»، صدرت سنة 1988 في بلجيكا. لم تلفت اهتمام أحد من النقّاد والإعلام، رغم تعليق الناشرِ آمالاً كبيرة عليها، إلّا أن حماسته لنشرها لم تسعفه في رواجها. وبالكاد النسخ التي بيعت، غطّت نفقات الطباعة والنشر والتوزيع. فكان مشروعاً خاسراً، حزيناً ومخيّباً للآمال، على الصعيد الأدبي، للناشر والمؤلّف معاً! وماتت تلك الرواية مكدّسة في الصناديق والمستودعات، إلى أن اضطر الناشر إلى شحن جثث تلك النسخ إلى مطحنة إتلاف الأوراق والكراتين، حتى يعاد تدويرها، وتُصنع منها عُلَب تستخدم في تعليب بيض الدجاج وبيعه في المحلات والسبورماركتات. فعل الناشر ذلك لأن تلك الصناديق المكدّسة أو التوابيت التي تضم النسخ المتبقّية من «**غريب على أراضٍ غريبة**»، كانت تشغل أماكن لصناديق أخرى، تحوي روايات جديدة لكتّاب آخرين جدد، كانوا أكثر حظّاً من يان دو سخيبّر.

في روايته الأولى تلك، سرد يان الكثير من سيرة والده الرقيب في الجيش البلجيكي؛ آلفونس دو سخيبّر، المنحدر من مدينة أوستند، والذي شارك في الحرب الكوريّة مطلع الخمسينات، مع الكتيبة البلجيكيّة التي شكّلت جزءً من قوات الأمم المتحدة وقتذاك. تلك الحرب العالميّة المصغّرة، شارك فيها ما يزيد على عشرين دولة موزّعة على جبهتين؛ كوريا الشماليّة والصين والاتحاد السوفياتي

وحلفاؤها؛ بلغاريا، تشيكوسلوفاكيا، ألمانيا الشرقية، بولندا، رومانيا، المجر. وفي الجبهة الأخرى، أمريكا وحلفاؤها؛ بريطانيا، كندا، تركيا، أستراليا، الفليبين، نيوزيلاندا، تايلاند، أثيوبيا، اليونان، فرنسا، كولومبيا، بلجيكا، لوكسمبورغ، هولندا، جنوب أفريقيا، إلى جانب الدعم الطبي واللوجستي من ألمانيا الغربية، إيطاليا، الدانمارك، الهند، إسرائيل، النرويج، السويد وإسبانيا. تلك الحرب كانت إحدى أكثر الوجوه قباحة للحرب الباردة بين موسكو وواشنطن، بحيث نقلت ساحة الحرب العالمية الثانية من أوروبا إلى شبه الجزيرة الكوريّة، ولم يتقابل فيها فقط الكوريون كي يقتلوا بعضهم بعضاً، بل تقابل فيها الألمان الشرقيون والغربيون أيضاً، على جبهتين متعاديتين، في حين أنّ دخان الدمار ورائحة الجثث والقتلى كانت لمّا تزل تخيّم على ألمانيا.

وبدأ المحقق إيريك فان مارتن بقراءة **«غريب على أراضٍ غريبة»** يحذوه الأمل بأن تكون تمهيداً لمعرفة شخصيّة وتكوين كاتبها المختفي.

* * *

السابع عشر من ديسمبر/ كانون الأول 1950. نهارٌ غائمٌ، باعثٌ على السأم والكآبة، بسماءٍ محتقنةٍ مريضةٍ، موشكةٍ على الانهدام والسقوط على رؤوس السائرين تحتها، كمَن يكابدُ شيئاً، ولا يفصحُ عنه، فيفشلُ في مواراته أيضاً. سماءٌ تريد أن تبكي، ولا تبكي. كامرأةٍ حُبلى، تشعر بالغثيان الشديد، ولكنها عاجزةٌ عن التقيّؤ وتفريغ ما في جوفها كي ترتاح. ومع ذلك، كان الرقيب آلفونس مبتهجاً، منفرد الأسارير، رائق البال، بالضدّ من المزاج العكر لذلك اليوم،

ذي المزاج المُعقّد والمُتلِف. حَزَمَ حقيبتهُ، ولم يستطع أن يضمّ إليها صديقيهِ الحميمين؛ الغيتار والساكسفون. واكتفى بوضع الهارمونيكا في جيب سترته العسكريّة، إلى اليسار، بحيث تكون قريبة من قلبه. ذلك أنه ذاهبٌ إلى حرب، وليس إلى حفلة موسيقيّة. صحيحٌ أنه عسكري، ولكنه مهووس بالموسيقى. دائمُ المرح والرقص. يحسبُ أن الكونَ لا يتسع لأحلامهِ، ولن يكفيه أن يعيشَ عمراً واحداً لتحقيق جزءٍ من تلك الأحلام. شَهِدَ آلفونس أهوال الحرب العالميّة الثانيّة طفلاً ويافعاً، وذاق مرارتها وقسوة ظروفها، حيث فقد والده وعمّه، وابن خاله، في الحرب. وحين انتهت تلك اللعنة التي طحنت بلاده أيضاً، كان عمرهُ ستة عشر عاماً. ومع ذلك، دخل سلك الجنديّة سنة 1949، مدفوعاً بحبّ المغامرة، ومفتوناً بالقصص والمقالات التي كانت تُكتب وتنشرها الصحف والمجلات البلجيكيّة، عن بطولات بعض الجنود والضبّاط في ساحات القتال، وحفاظهم على أخلاقهم وإنسانيتهم، وسط تفاقم التوحّش لدى الأطراف المعادية. رغبةُ التماهي والتماثل مع تلك النماذج المُأسطرة حدّ الخرافة لأولئك الجنود، كانت سبباً رئيساً لانضمامه إلى الجيش وعدم إكماله دراسة الحقوق والفلسفة في جامعة «لوفان» الكاثوليكيّة. والده باتريك دو سخيبّر كان يملك زورقاً كبيراً للصيد، وقُتِلَ بقصف طائرة بريطانيّة عن طريق الخطأ، في الثامن عشر من ديسمبر/ كانون الأول سنة 1944، قبالة ساحل «أوستند»، بعد بدء الهجوم الألماني في «الآردين» بيومين. كان الألمان يريدون السيطرة على الطرق في تلك المنطقة الجبلية الوعرة الكثيفة الغابات، ثم توجّهوا نحو حصار مدينة «باستون» بهدف الاستيلاء عليها، تمهيداً للوصول إلى ميناء مدينة

«آنتويربن»، وفتح ثغرة في جيش الحلفاء. وهو نفسه الميناء الذي سيغادر منه آلفونس، بعد خمس سنوات من نهاية الحرب، للمشاركة في حربٍ جديدة تدور رحاها في بلادٍ بعيدةٍ جدّاً عن بلاده اسمها كوريا، وفي اليوم نفسه، الثامن عشر من ديسمبر/ كانون الأول، الذي قتل فيه والده ومَن معهُ، على متن مركب الصيد، بنيران صديقة، إذ ظنّ الطيران البريطاني زورقهم يعمل لمصلحة جيش هتلر، رغم رفعه علم الصيّادين!

كان والدهُ يريد لابنهِ الوحيد أن يكون رجل قانون وحِكمة، وأن يعمل قاضياً. لم يشأ له العمل في البحر صيّاداً أو بحّاراً. لذا، دراسة آلفونس في جامعة «لوفان» كانت تلبية لرغبة والده الميّت، ونتيجة ضغط وإلحاح والدتهِ آنليز فاندرمايس، ولم تكن رغبته الشخصيّة، إذ كان يفضّل الموسيقى، بعد أن تشكلّت لديه قناعة في وقت مبكّر، أن العدالة والعقل والمنطق هي أبرز وأوّل ضحايا الحروب. وأن قوّة العدالة والحِكمة، يلزمها ما يحميها. هكذا كان يظنّ ويعتقد، أو هكذا توهّم سابقاً. لأنه عادَ وسقط تحت تأثير الدعاية والبروباغندا التي سوّقت لعدالة ونبل وإنسانيّة المشاركة في تلك الحرب التي تبعد عن بلجيكا آلاف الأميال. تلك الدعاية الرسميّة في الراديو والصحف والمجلات، ساهمت في خلق حالة من التعاطف والتشوّق والحماسة ليس لدى آلفونس وحسب، بل لدى شباب ورجال بلجيك كُثُر، على أن الهدف من المشاركة في تلك الحرب هو تحقيق السلام، وحماية المدنيين الأبرياء من الاعتداءات، وملاحقة القتلة الأشرار الذين ساهموا في تدمير أوروبا، والآن يحاولون تدمير العالم مرّة أخرى، وأن هذه الحرب

النبيلة ستكون تحت مظلة وراية الامم المتحدة. لذا، تشكلت قناعة لدى آلفونس على أنه جندي في جيش الإنسانيّة. وتزايدت لديه الرغبة في خوض التجربة، جرياً وراء قناعة تبلورت لديه؛ أنه لن يطفئ الحرب إلّا الحرب، وصولاً لتحقيق السلام.

سببٌ آخر دفعه للمشاركة في تلك الحرب، هو روح المغامرة والرغبة في اكتشاف بلادٍ بعيدة، مختلفة تماماً عن بلجيكا من حيث الجغرافيا والبيئة والبشر واللغة والثقافة. كل ذلك عزّز لديه الحماسة والشعور بأنه فارس من فرسان العصور الوسطى الذين حاربوا الأشرار والطواغيت، أينما كانوا، لنشر الخير والسلام. وربما الرغبة في أن يكون شيئاً عظيماً في هذه الحياة، وقيمةً كبيرةً في حياة الكثيرين من البشر، كأولئك الجنود والضبّاط الذين شاركوا في الحرب الثانيّة، وتمّ تخليدهم وكتابة قصصهم ومآثرهم، وتدبيج القصائد عن بطولاتهم، هي التي دفعت به للمشاركة في الكتيبة البلجيكيّة الذاهبة إلى الحرب الكوريّة. شعورٌ، ربما يشبه شعور بطل ثيربانتس في رواية «دون كيخوتي»، أو شعور أن يصبح «روبن هود» كما في القصص الشعبيّة الإنكليزيّة، ولكن على أرضٍ غريبة، يجهلُ مسالكها. وربما تكون هناك أسباب أخرى، نجهلها ويجهلها آلفونس نفسه، دفعت به لاتخاذ هذا القرار المصيري. وفورَ الإعلان عن تشكيل الكتيبة من الجنود والضبّاط وصف الضبّاط والمتطوّعين، سارع آلفونس إلى تقديم طلب المشاركة فيها والخضوع لدورة تدريبيّة خاصّة امتدت ثلاثة أسابيع، وتمّت الموافقة على طلبه. كان عدد المرشّحين 3 آلاف، اختير منهم 700، غادروا إلى كوريا، وعُرِفت كتيبتهم اختصاراً بـ BUNC.

بدأ يتفحّص أركان وزوايا المنزل ويجول بنظرهِ بينها ببطءٍ شديد؛ من العلّيّة إلى غرف النوم، الصالون، المطبخ، ثم الحديقة. يمسكُ مقابض النوافذ والأبواب والخُزن والأدارج...، ويفركها بشغفٍ وحنان، لكأنّه يلقي النظرة الأخيرة على البيت وتفاصيلهِ. عانق أمّه، وشقيقتيه الصغيرتين؛ آنماري، وشانا، بحرارة. بكت الأمّ، فمسح آلفونس بإبهاميه دمعها، متحسساً دفء وسخونة وجهها. بنظراتٍ منكسرةٍ يائسةٍ من محاولةِ إقناعهِ بالعدولِ عن قرارهِ، قالت له، جملاً قصيرةً متقطّعة، وبصوتٍ متهدّجٍ مختنق يعصره البكاء وتتخلّله الشهقات المترعة بالحزن والأسى:

- «عد إلينا سالماً. لا تتأخّر. نحن بحاجة إليك. لا تتركنا وحدنا هنا. اعتنِ بنفسك. ليحفظك الربّ، بُنيّ. عدْ إلى المسيح المخلّص، واستنجد به، إذا ضاقت بك الأحوال والظروف. كنْ مع الربّ، يكن معك». ثم رسمت علامة الصليب، ورفعت نظراتها المتوسّلة نحو السماء، وضمّت كفّيها إلى بعضهما، وشابكت الأصابعَ على شكل قبضة واحدة، قرّبتها من فمها، ثم طأطأت الرأس ببطء، مغمضة العينين، وهي تتمتم بعض الأدعية والتراتيل.

- «لا تقلقي. سأعود إليكم. ثقي بي». ردّ عليها، بثقةٍ مصطنعةٍ، وابتسامةٍ مفتعلةٍ، محاولاً طمأنتها.

شعرَ وكأنّه داليةُ العنبِ الموجودةِ في حديقة المنزل، تقتلعُ نفسها من الجذور، وتغادر المكان، ولا تعرف إنْ كانت ستعود أم لا؟ بخطواتٍ وئيدةٍ بطيئةٍ وثقيلة، بدأ مشوارهُ. قطع نحو مئة متر، وبخلاف العادة في لحظات الوداع، لم يستدرْ إلى الخلف، راسماً بيده تلويحة الوداع في الهواء، مع إطلاق ابتسامةٍ ربما تكون

مصطنعة. لم يفعل ذلك، لئلا يرى أمّه وأختيه ما زلنَ واقفاتٍ أمام باب المنزل، تحدّقنَ إليه والدمع ينهمر مدراراً من أعينهن. لكنه رآهنّ بعينيّ قلبهِ، رأى فيض حزنهنّ وبؤس حالهن.

سألت شانا، شقيقته الصغيرة البالغة من العمر ثماني سنوات، والتي حين قُتلَ والدها في البحر، كانت تبلغ عامين:

- أمّي. . إلى أين سيغادرنا آلفونس؟ ولماذا لم يأخذ معه الغيتار؟

- غادرنا إلى حيث يغادر كُثُر، ولا يعود إلّا القليلُ القليل منهم.

- وهل سيعود آلفونس يا أمّي؟

- نعم، بالتأكيد، سيعود. يجب أن يعود. يجب.

- ولماذا تبكين، طالما أنه سيعود؟!

- لأنني سأشتاق إليه كثيراً.

- أنا أيضاً سأشتاق إليه. وسأعتني بالغيتار والساكسفون. وحين عودته إلينا، سأعزف له ألحاناً جميلة. أليس كذلك يا أمّي؟

- نعم، يا ابنتي، نعم.

واصل سيرهُ مرفوعَ الرأس لئلا يوحي بأنه متكّدرٌ أو مهموم. وحتى أثناء انعطافة الشارع إلى اليمين، لم يلتفت للوراء، ولم يختلس النظر إلى منزلهِ والواقفات أمام بابهِ. ليس لأن آلفونس قاسي القلب، بل خافَ أن يؤثّر منظر والدته وشقيقتيه على قراره. آثر المكابرة والجَلَد، وحاول طرد التردد والاضطراب اللذين بدأ شررهما يقدحُ ويبرق في عروقه.

المسافة التي تفصل منزله عن محطة القطار في أوستند، تزيد على ثلاثة كيلومترات، أراد أن يقطعها سيراً على الأقدام، بدلاً من

استخدام الترام أو الباص، كي يشبع بصره ناظراً إلى تفاصيل المدينة، كرجلٍ سائرٍ في حلم، يريدُ أن يستيقظ منه، ولا يريد أيضاً. وصلَ قبلَ موعد انطلاق القطار بنصف ساعة، وكان في استقباله ثلاثة جنود آخرين، هم شركاؤه في هذه الرحلة؛ سيمون فان خوستلد، إيريك دو روستوخن، ومارتن فان ديلاريسيس. الأخير كان ضابطاً، وأكبرهم سنّاً وخبرةً. حاول الأربعة تبادل أطراف الحديث بكلام يتعلّق بالطقس، وبعض الكلام التافه الذي لا علاقة له بحالتهم أو وجهتهم. وتناوبوا على اختلاق الابتسامات والضحكات التي توحي بالثقة والاعتداد بالنفس، ورباطة الجأش والجسارة وعدم الاكتراث بركوب الأهوال والمخاطر. فجأةً صاح بهم رجلٌ طاعنٌ في السنّ، يتوكأ على عكّاز، يبدو أنه أيضاً ينتظرُ القطار، قاطعاً عليهم أحاديثهم المفتعلة البلهاء:

- هييه.. أيها الحمقى. إلى أين أنتم ذاهبون؟! أخشى أن تعودوا في صناديق إلى أهاليكم! أليس أجدى بكم أن تجرّوا تلك العربات بدلاً من الأحصنة أو الحمير والبغال، من أن تنصاعوا إلى أوامر أشخاصٍ يريدون الدفع بكم نحو مصيرٍ مجهول محتوم؟!

قالها بصوت مرتعش وأجشّ، مليء بالسخط والثقة الفائضة حدّ العجرفة، وهو يلوّح بعكازه صوب عربة تقليديّة يجرّها حصان، مرّت بالصدفة في الطريق العام المارّ بجانب محطة القطار. ثم واصل كلامه:

- نعم، نعم... أقصدكم أنتم، أيها الحمقى. لا تستغربوا ذلك. أنا أعرف إلى أين أنتم متجهون. سيلحق بكم حفيدي الأحمق أيضاً، الملازم دافيد دوميانيس في محطة مدينة «غينت». الأجدى

بكم أن تلقوا بأنفسهم أمام القطار، هذا أشرف لكم من أن تذهبوا إلى حيث يراد لكم أن تموتوا برُخص. طيب، وهو كذلك، كما تشاءون. لا أعرف لماذا أتعب نفسي مع حمقى وأغبياء، أمثالكم! اذهبوا.. اذهبوا، فلن يخسر هذا العالم سوى المزيد من الحمير والسذّج. اذهبوا إلى الجحيم الذي اخترتموه لأنفسكم.

واختتم كلامه، وهو يهزّ رأسه مقهقهاً، ساخراً وشامتاً. انتهت ضحكته المدوّية كأنّها في قاعةٍ كبيرة فارغة، بسعالٍ مخلخلٍ لا يصدر إلّا من مسنّ قضى عمره مدخّناً. وضع قبضته اليمنى على فمه، كعادة كل من ينتابهُم السعال الحادّ، ثم أشاح بوجه عن الجنود الأربعة. وغمغم بصوت منخفض كأنّه يتكلّم مع نفسه: «حمقى... حمقى».

أثار كلام العجوز في الجنديين الآخرين الكثير من الحنق والغضب وفورة الدم، بينما شعر الضابط بشيءٍ يتحطّم في داخله. بل سمع صوت شهقات حطّابٍ يختلط بصوت فأسهِ وهو يهوي به على الأشجار. أمّا آلفونس، فلم يستطع تحديد مشاعره تجاه العجوز وكلامه الجارح والساخط، في اللحظات الأولى. واصل الأربعة تصنّع اللامبالاة وعدم الاكتراث بكلامه. وركبوا القطار، وكان آخرهم آلفونس حيث التفت إلى اليمين، وهو يضع قدمه اليمنى على الدرج الأول، ممسكاً بيدهِ اليسرى عمود المقبض الذي يساعد الركّاب على الصعود الى مقصورة القطار، فرأى العجوز ما زال جالساً على كرسيّه، منحني الظهر، واضعاً كلتا يديه على عقفة العكّاز، محدّقاً فيه بألمٍ وشفقة. تساءل آلفونس: «لماذا لا يصعد؟! ألم يكن ينتظر هذا القطار مثلنا؟!». وصار كل منهما يحدّق بعمق في كبد عيني الآخر. لاحظ آلفونس حزناً متدفقاً من عينيه، لم يلحظه في

الوهلة الأولى. حزنٌ كحزنِ الجندي المهزوم في المعركة. وقال في نفسه: «غالب الظنّ أنه كان جنديّاً، عايش الحرب العالميّة الأولى، ولا يريد ركوب قطار الحرب هذا». وصار يؤلّف لهذا العجوز سِيَراً وقصصاً شتّى، يتخيّل أنها حياته، أو احتمال أن تكون حياته. وفي آخر لحظة، وقبل أن يطلق القطار صافرة التهيّؤ للمغادرة، لمح آلفونس بارقة ابتسامة في عينيّ العجوز، ربما كانت ابتسامة الأمل، أو ابتسامة الوداع الأخير. خاصةً أنه أرفقها بتلويحة خفيفة من يدهِ اليمنى، وبهزّة رأسٍ بالكاد يمكن ملاحظتها. وبدأت الأرض تتحرّك ببطء من تحت قدميّ آلفونس، بحكم بدء القطار مسيره. طفق متجهاً إلى رفاقه، حيث اتخذ الأربعة مقاعد قبالة بعضهم البعض.

بدأ آلفونس شروده وتأمّلاته محدّقاً عبر النافذة ذات الزجاجِ العكر الرجراج، وكيف أن العالم الخارجي يتراجع نحو الخلف، بينما هو، يتقدّم نحو مجاهيل مصيره؛ أشجار، بيوت، قرى، سهول، أبقار، خنازير...، تمرّ سريعة أمام ناظريه عائدةً إلى الوراء. لم يقطع عليه هذه التأمّلات شيء، إلّا توقّف القطار في محطات المدن الرئيسيّة، في بروج (Brugge)، آلتر (Alter)، غينت (Gent)، لوكرن (Lokeren)، سينت نيكولاس (Sint-Niklaas)، وصولاً إلى المحطة الرئيسيّة في آنتويربن (Antwerpen). وفي كل مدينة، يصعد إلى القطار مجموعة من الحمقى، حسب تعبير الرجل العجوز، في وصف الجنود.

«... أيها الحمقى. إلى أين أنتم ذاهبون؟»، صدى هذا النداء الساخر، رويداً رويداً، بات يشكّل سحراً يثير في خاطره الكثير الكثير من الأسئلة، الأفكار، الهواجس والخلاصات، في منولوج داخلي

عاصف، شديد التعقيد والتراشق والفوضى:

- البشر مرايا بعضهم البعض. لم يعجبنا كلام العجوز، لأنه كان مرآتنا التي عكست حقيقة دواخلنا، ودوافعنا، ودوافع الذين يطبخون الحروب في أماكن بعيدة عن مسارحها. ربما كان ذلك العجوز، في أيام شبابه، أحمقَ مثلنا، وذهب لخوض حربٍ، لم تكن حربه، مأخوذاً أو مفتوناً أو مخدوعاً بأوهامٍ وكلامٍ فارغ عن نبل هذه الحرب التي من الواجب عليه خوضها! أو ربما كان واقعاً تحت تأثير جنوح المغامرة وطيشها، ونجا بأعجوبة من المهزلة والمقتلة التي سمّوها الحرب العالميّة الثانيّة. فأراد أن يمنحنا خلاصة تجربته وخيباتِهِ. لكننا أبينا إلّا أن نكرر الحالة، ونكرر التجربة، لنصل إلى النتيجة نفسها التي أبلغها لنا العجوز، حتّى نتأكّد من أننا كنا محض حمقى، لا أكثر، وليس كي نتأكّد من أن العجوزَ مُحقٌّ أم لا؟ وكان أجدى بنا، فعلاً، أن نجرّ العربات عوضاً عن الخيول والحمير والبغال، من أن نجرّ عربات الحروب التي ستطحننا.

البشر مرايا بعضهم البعض. ثمة مرايا محدّبة تبالغ في تصوير الأشخاص التي تعكس صورها. ومرايا مقعّرة، تبخسهم حقّهم وجمالهم، فتكون مشوّهة. وفي كلتا الحالتين، ثمة تضليل في تقديم الصورة المعكوسة للأشخاص. يفضّل الكثير منّا المرايا المحدّبة، رغم تأكّدهم من أن صورهم المعكوسة، وهميّة ومخادعة، ولا تفصح عن الحقيقة، وبل تستر الكثير من القبائح. كذلك البعض منّا لا يحبّ أن تعكس المرآة حجمه الحقيقي، وصورته الحقيقيّة، المشوّهة من الداخل، والأنيقة من الخارج. لذا، يحاول أن يكسر أيّة مرآة تمنحهُ صورة عن حجمه الحقيقي.

البشر مرايا بعضهم البعض، وكان ذلك العجوز مرآتنا التي كسرناها دون أن نرميها بحجر.

اختتم آلفونس الجولة الأولى من مونولجه الداخلي، بتلك العبارة. لاحظ الضابط شروده. وأثناء التوقّف في محطة «بروج»، افتعل الذهاب إلى تواليت القطار لقضاء حاجة. وبعد عودته، طلب من آلفونس الجلوس بجوار النافذة تماماً، حتى يكون مرتاحاً أكثر في النظر إلى العالم مباشرةً. سرّهُ موقفُ الضابط، وشكرهُ على ذلك.

بعد الوصول إلى محطة آنتويربن المركزيّة، خُيّل لآلفونس أن عدد الحمقى الذين لحقوا بهم من الجنود والضبّاط وصف الضبّاط، كان أقل من عدد المشاركين في الدورة التدريبيّة المخصصة لهذا الغرض. ولكن مع ذلك، فهم بالمئات. «مئات من الحمقى. كل هذا العدد من الحمقى يعيشون في هذا البلد الصغير؟!»، سأل آلفونس نفسه! ورأى عربات عسكريّة وشاحنات تنتظرهم، كي تقلّهم إلى الثكنات القريبة من الميناء. تفقّد ثلاثة ضبّاط أسماء المشاركين في الكتيبة، وظهر أن هناك نحو عشرة أفراد من المتخلّفين عن الالتحاق بهم. «ربما هم العقلاء الوحيدون بيننا، الذين آثروا البقاء على الذهاب معنا؟»، أيضاً ساءل آلفونس نفسه.

قبل حلول المساء، التحقت بهم المجموعة العسكريّة الآتية من لوكسمبورغ أيضاً. باتوا ليلتهم في الثكنات. وفي صبيحة اليوم التالي، اتجهوا على شكل أرتال عسكريّة نحو الميناء، في عرض عسكري مصغّر، تتقدّمهم فرقة موسيقيّة عسكريّة، إلى حيث ترسوا السفينة العسكريّة «كامينا» (Kamina) التي ستبحر بهم نحو ميناء «بوسان» (Puasan) في مقاطعة جيونغ سانغ، جنوب شرق شبه

الجزيرة الكوريّة. لاحظ آلفونس وجود مئات العائلات جاءت لتوديع أولادها. ولحسن حظّه أنه لم تكن بينهم أمّه وشقيقتاه.

18 ديسمبر/كانون الأول 1950، ركب الرقيب في سلاح الإشارة والاتصالات؛ آلفونس السفينة «كامينا». شابٌ وسيمٌ، طويلُ القامة، بجسدٍ رياضي مفتول العضلات، وشعرٍ أسود وبشرةٍ بيضاء، وعينين عسليتين واسعتين كعيني بوم في ليلةٍ مقمرة. ملامحه المتناسقة أقرب إلى ملامح الطليان والإسبان منها إلى ملامح البلجيك والهولنديين والفرنسيين. شخصٌ مرح، يحبّ الرقص، يعزف على الغيتار والساكسفون والهامورنيكا. ومع ذلك، ترك عالم الموسيقى، ودخل عوالم البارود والرصاص والنيران والدماء.

ما إن أطلقت «كامينا» صافرة الرحيل، حتى بدأ الآباء والأمهات والإخوة والأخوات التلويح بالقبّعات والمناديل، وصيحات الفرح والحزن. ولم يجد آلفونس بين المودّعين من يودّعه.

استمرّت رحلتهم البحريّة زهاء شهرٍ ونصف، وحطّوا رحالهم في ميناء بوسان في 31 يناير/كانون الثاني 1951. هذه المدّة قضاها آلفونس في حفلات الاكتئاب، الإحباط، والندم الذي لم يعد ينفع. فائض الكآبة لديه، بات ينتقل إلى زملائه أيضاً، إلى درجة أن بعض الضبّاط اقترحوا عزله عن بقيّة الجنود. ضابط آخر، أتته فكرة مجنونة مفادها؛ إلقاؤه في البحر، والقول: إنه انتحر.

ليلة الميلاد ورأس السنة والانتقال من 1950 إلى 1951، أمضاها آلفونس ورفاقه على متن «كامينا» في عرض البحر. وبينما الفرحة تخيّم على الجميع، كانت ملامح آلفونس تنضح بالأسى والندم والكآبة. تلك الليلة مضت ثقيلة موحشة ومخنوقة كأنّها «ليلة

الممات» وليست ليلة الميلاد ورأس السنة. كان يتخيّل صورة أمّه وشقيقتيه جالسات حول الموقد وكأنّهن في حداد، ولسنَ في ليلة الميلاد. حمل الهارمونيكا وبدأ يعزف، لحناً حزيناً جنائزيّاً، رثائيّاً، حداداً على نفسه. كأنّه يرثي حاله وأحوال زملائه. لم يبقَ هناك هامش للعودة والتراجع. مقولة عجوز المحطّة: «أيها الحمقى، أين أنتم ذاهبون» صارت كابوساً يلاحقه في صحوه ومنامه، وكمطرقة ضخمة تنزل على رأسه. فكّر في الانتحار. ما كان يمنعه، هو رغبة أمّه وأملها في عودته إليها. ذاكرته، وأحلامه التي لا حدود لها، توقه لاحتضان الغيتار ومعانقة الساكسفون، كل ذلك، صار كالحديد الملتهب الذي يكوي جسده وروحه. رويداً صار يبتعد عن الإلحاد ويعود للإيمان، لسبب واحد فقط، هو؛ أن يساعده اللّه في مسح ذاكرته تماماً، تماماً، لكأنّه ليس هو الذي عاش ما يزيد على 20 سنة في «أوستند».

«الذاكرة، هذا الكابوس المرعب والأليم، كيف يمكن الاستيقاظ منه؟! كيف يمكن مواجهته وقتله إلى الأبد!؟»، قالها وفي نفسه سخطٌ وغضبٌ على نفسه. عاشَ طوال الرحلة، على متن السفينة، أكثر لحظات الضعف والعجز والهشاشة والحاجة الجارفة إلى البكاء، لكنه لم يبكِ. حتى الدمعُ جافاه، وغادرهُ. كيف سيغسلُ عن روحهِ الكربَ والهمّ والكدر، ما لم تذرف عيناه الدمع؟! هكذا كان يسأل نفسه أيضاً، وما من إجابة. حالة الانقلاب الذاتي هذه، أنتجت الكثير من الصمتِ والتأمّل المكتظ بالضجيج والصخب والفوضى والصراع الداخلي.

اختصاصه الحسّاس، باعتباره المسؤول عن الاتصالات والإشارة

والشيفرات والمراسلات العسكريّة، كان يفرض عليه التحلّي بأقصى درجات التركيز والانتباه. ولكن، وسط هذا التشظّي والتمزّق والفوضى الداخليّة، من أين له التركيز؟ القلق العاصف كان يرفع لديه منسوب الشجاعة لمواجهة الموت، ليس حبّاً، بل باعتباره الوسيلة الوحيدة للخلاص من هذا التسمم الروحي والفكري الذي يعانيه.

بعد وصول الكتيبة إلى كوريا، تم الزجّ بها في المعارك، وأصبحت جزءً من فرقة المشاة الأمريكيّة الثالثة. هذا الأمر غيّر من مزاج آلفونس، وبات أكثر راحة. ولاحظ رفاقه ذلك. لكن الارتياح النسبي لديه، كان مردّه الرغبة في أن يتحوّل جسده إلى مغناطيس، يجذب رصاصة أو قنبلة أو قذيفة تنفجر به وتلقيه إلى عالم آخر. فقدَ الرغبة في العودة إلى أمّهِ وشقيقتيه وغيتاره سالماً. صحيحٌ أن مهمّته لا تملي عليه التواجد في الخطوط الأماميّة، لكنها ساحة حرب، لا يعرف فيها الموت حدوداً لطيشه وعبثه. قريباً من نهر «هان»، رأى آلفونس مقتل ضابط زميل له بانفجار لغم أرضي، وكيف تطايرت أوصاله في الهواء، كأنّها سرب حمامٍ مذعور من إطلاقة رصاصة صيّاد عليها. كان ذلك أوّل مشهدٍ من مشاهد الموت التي يراها في الحرب الكوريّة؛ أن يرى جسداً مفعماً بالحياة والأحلام، أشلاءً ممزّقةً منثورةً في الهواء! شكّل ذلك رعباً مضافاً لديه. ثم صارت مشاهد الموت، بفعل التكرار اليومي، أمراً عاديّاً. في مقدور الحرب أن تجعل الموت وتمزّق الأجساد وأشلاء البشر، من الأمور الروتينيّة التي تراها أعين الجنود. وهكذا تُفقِدُ الحربُ الموتَ رهبتَهُ، وتبددُ جلالَ الحزنِ والحدادِ على فقدان شخصٍ عزيز. كذلك الطبيعة الجبليّة الوعرة، الثلوج، الأمطار، البرد القارس، الطين، الغبار،

رائحة احتراق اللحم البشري، روائح البارود والزيت المحترق. . .، كل ذلك أصبح من التفاصيل التي تتكرر يوميّاً أمام آلفونس وزملائه. الأمور الجد عادية قبل الحروب، تصبح غير عاديّة أثناءها. «الحرب دوّامة عمياء، تشفط جميع المتحاربين إلى أسفل السافلين مِن انعدام المنطق والأخلاق. يا ليتها تشفطني أيضاً، وتُنهي هذه الحال التي أعيشها»، قالها آلفونس لنفسه.

خاض آلفونس ورفاقه معركة نهر «إيمجين» (Imjin) بالقرب من «هانتانغانغ» بشراسة الضواري والجوارح، وربما أكثر من ذلك أيضاً. هذا النهر المتدفق من الشمال إلى الجنوب، يلتقي بنهر «هان»، قريباً من «سيول»، ثم يصب في البحر الأصفر، كان شاهداً على معركة طاحنة استمرّت من 22 إلى 25 أبريل/نيسان 1951، حيث تمّ ردّ الهجوم الصيني والكوري الشمالي الذي حاول الوصول إلى العاصمة «سيول». الصينيون احترفوا الغارات الليليّة الخاطفة، كأنهم قطعان ذئاب جائعة، تودّ الانقضاض على الفريسة. يهاجمون بغزارة كالجراد. استراتيجيّتهم قائمة على الصدمة والمباغتة، بحيث إن الكثير من جنود «الأمم المتحدة» كانوا يظنون أن الأرض تنشقّ، ويخرج منها الصينيون. تَدخّلُ الطيرانِ الأمريكي، ونقصُ الإمدادات عند الصينيين والكوريين الشماليين كانا عاملاً حاسماً في اندحار هجومهم. تلك الأيّام الشديدة الوطأة والقسوة من حيث الاستماتة في القتال من الجانبين، والظروف المناخيّة الصعبة، عجز خيال آلفونس عن وصفها، فقال في نفسه: «هذه الحرب التي أسقطنا أنفسنا فيها، صارت أسوأ من العيش في جحيم محاطٍ ببحرٍ من مياه الصرف الصحّي. هذه الحياة - الحرب، أكّدت لي أن داروين كان مخطئاً

جداً في نظريته، على أن أصل الإنسان خراء، وليس أحد أنواع القردة. الحرب عمياء. مهما حاولت الأيديولوجيّات تجميل قباحتها وقذارتها. الحرب عمياء، وكل المشتركين فيها عميان».

في الحروب، الزمنُ زمنان. زمنٌ مخاطيٌّ، يمضي بلزوجةٍ وبطءٍ شديدين. وزمنٌ متوحّشٌ ومتفجّر، تصبحُ في لحظةٍ منهُ؛ الأمكنة، القرى، البيوت، الخنادق، التحصينات التي أخذَ بناؤها أياماً وشهوراً، أثراً بعد عين. حتى الهارمونيكا التي كانت أُنس آلفونس ورفاقه في لحظاتِ الكربِ والهمّ والغمّ الشديد، أفقدتهُ الحرب رغبة العزف عليها. لكن، حدث شيء طارئ ومفاجئ، جعل آلفونس ينقطع عن ذلك الجحيم، ويخلق لنفسه عالماً آخر، خاصاً به وسط تلك الدوّامة الدمويّة. ذلك الحدث، هو ظهور الأمريكيّة مارغريت هيغينز، المراسلة الحربية في صحيفة «نيويورك هيرالد تريبيون». بحكم أن آلفونس معني بالإشارة والاتصالات، فمن الطبيعي أن تتواصل مارغريت معه، أكثر من غيره. لكن خيالهُ كان يسرح في تأويلات عديدة، لا علاقة لها بمشاعر هذه السيدة تجاهه. ومع أن زياراتها كانت قليلة للمواقع التي يتواجد فيها آلفونس، وحواراتها معه كانت أكثر قلّة، إلّا أنها سحرته تماماً، وأخرجته من عالم الحرب، وأدخلته في عالم الحبّ. حبٌّ من طرف واحد. ذلك أن مارغريت المولودة في «هونغ كونغ» سنة 1920، تكبرهُ بتسع سنوات. إلّا أن ذلك لم يحل دون افتتانهِ وانبهاره بها وبجرأتها وجمالها. كان يكرر اسمها: «مارغريت هيغينز... مارغريت هيغينز... اسمٌ لا يليق إلّا بالملكات أو الأميرات أو الشخصيات العظيمة. أوه، حبيبتي مارغريت. أحبّك، سواء عرفتِ أو لم تعرفي».

لكثرة شروده أثناء حديث مارغريت معه، كانت تظنّ أن هذا الرقيب ربما فيه مسّ من الغباء والبلادة. فتتساءل: «كيف تمّ تكليفه بهذه المهمّة الحسّاسة؟!» لكن خبرتها في التعامل مع الجنود والضبّاط وصفّ الضبّاط في الحروب والمعارك، كانت تساعدها في التماس أعذار لآلفونس. ذلك أنها سبق لها أن شاركت كمراسلة حربيّة في الحرب العالميّة الثانيّة، وكانت في برلين وقتذاك، وحضرت محاكمات نورومبيرغ أيضاً. مشاعر الحبّ التي يكنّها آلفونس لها، كانت بالنسبة إليه، مشاعر مواطن فقير وحقير تجاه أميرة أو ملكة أو حتى إمبراطورة. ذكّرته حالته هذه بقصص الطفولة التي كانت تقصّها عليه أمّه وجدّته عن الفقير الذي وقع في حبّ الأميرة. لكن دخول مارغريت بتلك الطريقة، في حياة الرقيب البلجيكي، خلقت لديه شيئاً ما يربطه بذلك المكان الذي ينهشه عمى الحرب. فحيثما يتواجد الحبيب، هناك فردوسُ العاشق. أو ربما كانت حاجة آلفونس إلى شيء من هذا القبيل، إلى بصيص أمل بالحياة وسط طغيان الموت بهذه الكثافة والشراسة، ولّدَ لديه إحساساً أو انطباعاً، على وشك أن يتحوّل إلى قناعة؛ أن الحبّ يمكنهُ التعبير عن نفسه، مهما تعمّقت واتسعت مستنقعات الكراهية. كان آلفونس بحاجة إلى خيط عنكبوت واهن، يربطه بالحياة في تلك الجغرافيا العمياء التي تنهشها الحرب، وكانت مارغريت ذلك الخيط الذي بات آلفونس حريصاً جدّاً على ألّا ينقطع، ما جعلهُ يستعيد ولعه بالهارمونيكا مجدداً.

تلة «بروكين أرو» (Broken Arrow)، يصل ارتفاعها إلى 1500 متر، تمتد من الجنوب إلى الشمال، وتطلّ على سهل يحيط بها من

كل الاتجاهات. أطلق الأمريكيون على الموقع اسم: التلّة رقم 391. مكسوة بالصخور والأشجار والشجيرات والنباتات الشوكيّة، والمنحدرات الوعرة، ويزداد الانحدار في الجهة الجنوبيّة. هذا الموقع له اسم آخر، في ما بعد، أطلق على المعركة التي شهدتها المنطقة، هو: «هاكتانغ-ني» (Haktang-ni) تابعة لمحافظة «تشيورون» (Cheorwon). عسكرت الكتيبة البلجيكيّة هناك، وكان عدد أفرادها وقتذاك 560، بعد عودة الجنود اللوكسمبورغيين إلى بلدهم في سبتمبر/أيلول 1951. يتواجد آلفونس مع بعض الجنود الذين يحمون موقعه، في السفح الجنوبي للتلة، قريباً من خط الإمداد. منذ العاشر من أكتوبر/تشرين الأول والصينيون يقصفون الموقع بالمدافع ونيران الرشاشات تمهيداً للزحف عليه. شاهد آلفونس جثث جنود بلجيك تمرّ أمامه، وهو في موقعه، ولم يعرف من منهم القتلى والجرحى، إلى أن وصله التقرير المقتضب الذي يجب أن يرسله إلى مركز قيادته: «قتيل و5 جرحى، جراح بعضهم خطرة». هذه الأخبار صارت روتينيّة بالنسبة إليه، كأنّه يسمعها من الراديو، وليس شاهداً على حدوثها. حطّت طائرة الميجر جنرال الأمريكي؛ روبرت اتش سول، قائد فرقة المشاة الثالثة، ثم اتجه نحو مكان تواجد آلفونس، وكان بصحبته الصحافية مارغريت هيغينز. وهذه كانت آخر مرّة يرى فيها معشوقته؛ مارغريت. تفكيره مشوّش. لم يركّز على ما قاله الجنرال الذي تفقّد الجنود والقادة هناك، ثم غادر وكأنّه اجتثّ قطعةً من صدر آلفونس. كان فرحاً برؤيتها، فرحةَ المنتصر في مئة حربٍ حامية الوطيس. وحزيناً لفراقها، حزن المهزوم في مئة حربٍ ضروس.

في ليلة الثاني عشر من أكتوبر/ تشرين الأول، كان الخريف أكثر شراسة مما ينبغي. ريحٌ لاهبة البرد، وسماءٌ مكدّسةٌ بالغيم، ولا بصيص لنور، سوى الشرر الذي يقدحه الرصاص أثناء ارتطامه بالصخور والحجارة، والنيران المنبعثة من انفجار القنابل والقذائف الصينيّة المنهمرة. ومع ذلك، كان آلفونس في صومعة تأمّلاته، منقطعاً عن الخريف والليل والبرد والحرب.

انتابته فكرة كتابة رسالة كاذبة إلى أمّه وشقيقتيه، كتلك الرسائل المخادعة التي يكتبها الجنود لأهاليهم، ويطمئنونهم فيها على أنفسهم. وأنهم سعداء، ولا ينقصهم شيء، ولا خوفَ عليهم. وأن بشائر النصر تلوح في الأفق، وباتوا قاب قوسين أو أدنى من تحقيقه، ودحر العدو بشكل نهائي، وإنقاذ البشريّة والإنسانيّة منه ومن شرورهِ. إذ كيف له أنْ يكون المعني بأمور الاتصالات والإشارة والمراسلات، ويطلع على رسائل الجنود إلى ذويهم، حتى يتأكّد أنه لا يوجد فيها معلومات عسكريّة مسرّبة أو خطرة، تتسبب في إلحاق الأذى بالكتيبة البلجيكيّة وأفرادها...، ولا يكتب لأمّه وشقيقتيه ولو رسالة واحدة، كاذبة، يطمئنهنّ فيها عليه، وأنه بخير، وسعيد جداً!؟ شعرَ بالحزن والندم على تجاهله مكاتبة أمّه وشقيقتيه، وصار يرتّب أفكاره بخصوص كتابة الرسالة صبيحة اليوم التالي، وبأيّة عبارة سيبدأها؟ وماذا سيقول فيها؟ وبات يكتب في ذهنهِ عبارات، ثم يمحوها! أو يحذف بعضها، ويضيف أخرى...، إلى أن اشتدّ عليه النعاس، فاستسلم له.

فجأةً، استيقظ على سماعِ دويّ هائلٍ، رفعهُ من الأرض إلى السماء المظلمة العمياء مع الغبار والحجارة وحطام الأخشاب، ثمّ

ألقى به على الأرض مجدداً. ارتطمَ رأسه بصخرة، فغاب تماماً عن الوعي. بعد فتحهِ عينيه، لم يعرف المدّة التي بقي فيها غائباً عن وعيه، أكانت لحظات؟ ساعات؟ أم أيّاماً؟، ثم غاب مرّة أخرى. وبعد فترة، استيقظ مجدداً. كانت العتمة ما زالت تخنق المكان، مع هدوءٍ مطبق، باعثٍ على الرهبة والذعر. كذلك، لم يدرك ما الذي جرى، وأين هو. شعر بجوعٍ شديد، وألم أكثر شدّة في رأسه وكل أوصال جسده. حاول النهوض متكئاً على يدهِ اليمنى، فغاصت اليد في كتلة عجينيّة هلاميّة، طريّة ومخاطيّة الملمس، ظنّها طيناً، للوهلة الأولى، أو حلزونة كبيرةٍ دبقة، من دون قوقعة، تمزّقت تلك الكتلة بفعل ضغط يده. قرّب يده من عينيه، فلم يستطع رؤية شيء من حلكة الظلام. حاول تشمم يده للتأكّد من طبيعة تلك المادّة اللزجة، أهي طين؟ أم غائط؟ فتشمم رائحة غريبة، لم يعرفها سابقاً. حاول إعادة يده إلى الموضع نفسه، وإذا به يتحسس جسداً، صدراً، ثم عنقاً، ثم وجهاً بجمجمة مهشّمة، فعرف أن يده انغرست في دماغ شخص. لحظتئذ، أطلق صرخةً لم يطلقها شعبٌ بأكملهِ أثناء سقوطٍ جماعي في هاويةٍ سحيقة، لا قرار لها! صرخته كانت خليطاً من الزئير، وخوار ثيران، والنباح، والمواء والعويل...، وصار يركض هارباً من المكان على غير هدى. يهرب، يسقط، ينهض، يرتطم، يسقط، ينهض مجدداً ويركض...، وهكذا، حتى انعدم لديه الشعور بالزمن. واصل الركض، مذعوراً وكأنّه يحاول الإفلات من قطيع ضباعٍ يلاحقه. انتابه شعور أنه في كابوس، يسعى إلى الاستيقاظ منه، من دون جدوى. شعر بأنه ميّت لا محالة، ولن تبقي الضباع التي تلاحقه أي شيء منه. استمرّ في الركض مع عجزه عن

إدراك الزمن الذي استغرقه، إلى أن ارتطمَ بشجرة، وفقد الوعي مجدداً.

فتح عينيه على ابتسامة امرأةٍ كوريّة في العقد الثالث من عمرها. الألم الشديد والمبرّح لم يحل دون أن يجول بنظره يميناً ويساراً محاولاً استكشاف المكان. وعاد إلى غيبوبته مرّة أخرى. بعد مضي فترة، فتح عينيه مجدداً، مع إطلاق أنين، وإذا به في بيتٍ ريفي، تُنيره نيران موقد على وشك الانطفاء. استيقظت المرأة على صوت أنينه. ألقت ببعض قطع الحطب في الموقد، فاستعادت النار أجيجها ووهجها. قالت له:

- لا تخف. أنت في أمان. أنا يون مي وينغ. وأنت؟!

لم يفهم شيئاً مما قالته، لكنه شعر بأنها تعرّفه على نفسها. حاول التحدّث إليها. لكنه نسي اللغة التي كان يتكلّم بها سابقاً. ظنت يون أنه أصمّ وأبكم. وصارت تتحدّث إليه بلغة الإشارة.

- «هل تسمعني؟». أشارت بيديها نحو فمها وأذنيها.

- «نعم». هزّ رأسه.

- إذاً، لستَ أصمَّ أو أبكمَ؟. وإلّا ما كنتَ لتحارب؟!. ثم قالت في نفسها: «الحقّ أن كل المتحاربين صمٌّ، بُكمٌ وعميٌ. وإلّا لماذا شاركوا في هذه المذابح».

- «لا أعرف من أنا؟ وماذا أفعل هنا؟!». أجابها عن طريق الإشارات، وحركات اليد وملامح الوجه.

ظنّت يون أنه قلق وخائف، لذا يخفي حقيقة هويّته واسمه ولغته وبلاده. فقررت التحدّث إليه صباح الغد. قالت له:

- أكيد أنك جائع. هذا حساء الرز والبطاطا، تناوله.

تناول آلفونس الحساء بنهم، فطلب المزيد. عاودت يون ملء قصعته، أفرغها مرّة أخرى. شعر بالشبع والراحة. قالت له، وأيضاً عبر لغة الإشارة:

- نمْ الآن. وغداً نتحدّث.

منذ يومين، ولم تذقْ يون طعم النوم. ليس لأن مدينتها الصغيرة نسبيّاً؛ «هواتشون» (Hwacheon) التابعة لمنطقة «تشيورون» الحدوديّة، واقعة في مرمى الاشتباكات، وتتعاقب الأطراف المتحاربة في السيطرة عليها، ودويّ انفجار القذائف والقنابل والمدافع يهزّ أرضها وسماءها، وهدير الطائرات لا يفارق أجواءها ليلاً نهاراً، فكل ذلك صار من تفاصيل الروتين اليومي، بل لأنها وحدها في المنزل، ومشغولة وقلقة على مصير هذا الشخص الغريب. شخصٌ ضخم الجثّة، بملابس عسكريّة، ملامحه أجنبيّة وليست كوريّة أو صينيّة أو آسيويّة شرقيّة أو جنوبيّة، ممدّدٌ بالقرب من الشجرة التي تبعد عن منزلها مسافة 25 متراً. منزلها الموجود على الطرف الشمالي الغربي من المدينة. جرّته بشقّ النفس، حتى أدخلته البيت. على عجل، ومن دون التدقيق في جيوبه، خلعت عنه ملابسه وألقت بها إلى موقد النار، وألبسته بعض ملابس الرجال الموجودة لديها. كانت صغيرة عليه. لم يعد هناك شيءٌ يمكن أن يشير إلى هويّته وجنسيّته، بعد حرق ملابسه. إذ إن يون خشيت أن يداهم الجنود منزلها في أية لحظة، ويعثروا على الرجل، وربما يتم قتله لأي سبب كان. فقط كانت يد الرجل ممسكة بالهارمونيكا إلى درجة التخشّب، لكأنّها الحبل الذي سينقذه من الغرق. وبصعوبة بالغة نجحت يون في إخراج

الهارمونيكا من يده. ما كانت واثقة منه أنه جندي أجنبي من المشاركين في الحرب ضد الغزو الشيوعي الصيني والكوري الشمالي. لكنها لا تعرف من هو، ومن أين. انتابها ندم على حرق ملابسه وما كان موجوداً في جيوبه، وأنه كان عليها التدقيق فيها أكثر. لكنها عادت محاولةً طمأنة نفسها بأنها إذا كانت تعرف هوية الرجل، ربما أثناء اعتقالها وتعرّضها للتعذيب، ستكشف عن المعلومات الموجودة لديها، وسيؤدي ذلك إلى إلحاق الأذى به وبها.

يون استلمت وظيفتها كمعلمة في إحدى مدارس «هواتشون»، قبل بدء هجوم جيش كيم إيل صونغ على كوريا الجنوبية بعامين. ثم تزوجت من زميلها. وبقي زواجهما عاماً كاملاً، دون أن تنجب أطفالاً. وبدأ الهجوم الكوري الشمالي، وسيق زوجها إلى الجيش، وقتل في المعارك. وسيق والدها وإخوتها الثلاثة للجيش، وقتلوا أيضاً. ماتت أمها حزناً وقهراً وكمداً على ما حلّ بأسرتها. لم يتم العثور على جثّتَي شقيقين لها. وفقط تم العثور على جثث الزوج والأب وأحد الأشقاء، ودفنتهم في قبور متلاصقة بالقرب من الشجرة التي ارتطم بها آلفونس. كما وضعت يون كومتي حجارة إلى جانب تلك القبور على أنهما ضريحا شقيقيها القتيلين الذين لم يتم العثور على جثتيهما. وأحياناً، كان ينتابها شعور بأنهما مفقودان، ولم يقتلا، وسيعودان للبيت، ذات يوم!

في صبيحة اليوم الثالث له في منزل يون، شعر آلفونس بتحسّن شديد. ولكنه لا يتذكّر أي شيء مما جرى معه سابقاً. فقد الذاكرة تماماً. ذاكرته عمياء أو بيضاء. حين يتكلّم مع نفسه ويسأل: «من

أنا؟ أين أنا؟ وماذا أفعل هنا؟ ولماذا؟...»، يتحدّث الهولنديّة الفلامانكيّة، لكنه لا يعرف ما اسم هذه اللغة. وحين يحاول التحدّث بها مع يون، يفقد القدرة على التركيز وتذكّر أيّة مفردة من تلك اللغة الداخليّة التي يتكلّم بها مع نفسه. استمرّت يون في التواصل معه بلغة الإشارة والرسم. وأدركت يون أنه بالفعل فقد الذاكرة والقدرة على الكلام، لكنه قادر على النطق وتلقّي لغة جديدة. وكان هذا بصيص الأمل لديها كي تقوم بتعليمه اللغة الكوريّة، كأنّه طفل من الأطفال القلائل الذين بقوا يرتادون المدرسة في فترة الحرب.

بعد مرور أسبوع، صارت يون تشعر بمتعة الحياة مجدداً، تقودها اللهفة إلى منزلها القديم المتهالك، لأن فيه سرّاً يجب أن تخفيه عن أعين الحرب والمتحاربين. إذ إنها باكتشافها لهذا الغريب الذي لا تعرف عنه أيّ شيء، سوى أنه أجنبي، وأنه من ضحايا الحرب، وفاقد الذاكرة تماماً، هذا الاكتشاف صار بمثابة كنزها الثمين الذي يجب أن تحافظ عليه، محافظتها على حياتها. اعتبرته هديةً من السماء. تألّمت كثيراً لحالة فقدانه أيّ شيء يعيد إليه ذاكرته وأصوله. لكنها، في ما بعد، قالت في نفسها إنها ستتألّم أكثر وأكثر، إن عادت إليه الذاكرة، ما سيجعله يبدأ رحلة البحث عن بلده وأهله، وتركها تواجه مصيرها وحدها مجدداً. شعرت بأنها تمارس أنانيّة مفرطة حين لا ترغب في استرداد الغريب ذاكرته. ولكن، قالت في نفسها: «أخذت منّي الحرب كل شيء، كل شيء، ولم تُبقِ لي سوى بعض القبور، والقليل من رمق الحياة. وها هي السماء تكافئني وتمنحني هذا الرجل. الأقدار ألقت به في طريقي، فلماذا لا أحافظ عليه لنفسي؟».

اتفقا على أن تختار له اسماً كوريّاً هو: دان بياو جونغ. وصارت

تعلّمه اللغة الكوريّة. أبدى دان تجاوباً سريعاً، وصار يلفظ أحرف الأبجديّة الكوريّة، ويجيد رسمها، وكتابتها ولفظها، وحفظ الأرقام من الصفر إلى المئة، وحفظ ما يزيد على مئتي كلمة، في غضون أسبوعين. إذ لم يكن يخرج من البيت أبداً. كما أن خروج يون من المنزل بات قليلاً، فقط إلى المدرسة، ولشراء بعض الحاجات الضروريّة من المزارعين الذين كانوا يحبّونها ويحترمونها ويقدّمون لها المساعدة. صارت يون تعتذر عن قبول الزيارات، لئلا يتم افتضاح سرّها، وكنزها الدفين في البيت.

بعد مرور ثلاثة أسابيع، بدأت رياح الأنوثة والإحساس بالوجود تعصف بها، وبدأت مياه الرغبة والشهوة تسري في عروقها. ذلك أنها لم تمارس الجنس، منذ ترمّلها ومقتل زوجها. أحياناً، كانت تداعب بظرها، وتمارس العادة السريّة وفنّ التخيّل، فتحصل على رعشة خارجيّة خفيفة، هي ليست تلك الرعشة التي كانت تنتابها من الأعماق، أثناء ممارسة الجنس مع زوجها في أيّام العسل الأولى من الزواج. لكن العادة السريّة كانت تعويضاً قليلاً، ومؤلماً على ما فقدته باكراً في ريعان سنوات الصبا والجموح وعدم الارتواء الجنسي. في منزلها رجل، يثير الشهوة لدى أيّة امرأة، مهما كانت باردة في مشاعرها، نظراً لضخامة جسده وعضلاته المفتولة ووسامته. تتخيّل حجم قضيبه وما يمكنه أن يشعل في أعماقها من لذّة ومتعة على وشك الانقراض. صارت يون تشتهي دان، ولكنها خجلة من مطالبته بممارسة الحب معها. حاولت ابتكار مدخل لجرّه إلى مكايدها وفخاخها البسيطة والساذجة والخجولة، عبر التحجج بتعليمه أسماء أعضاء الجسد بالكوريّة. ذات مساء، وبعد تناول العشاء البسيط:

حساءُ الأرز مع الخبز المصنوع من طحين الشعير والذرة، كان دان جالساً على كرسي وبين يديه دفتر كتب عليه الكلمات الكورية الجديدة، وبعض الجمل والتراكيب القصيرة. وقفت يون أمامه، وأخذت منه الدفتر، وقالت:

- «اليوم، سأعلّمك أسماء أعضاء الجسد باللغة الكوريّة. الرأس، نقول له: 머리. العين: 눈. الأذن: 귀. الأنف: 코». ثم بدأت تضع إصبعها على شفتيها وترسم حركة دائرية مثيرة. وتكمل حديثها: «الشفتان: 입술». «الحب: 사랑». «ممارسة الحب: 사랑 운동». وشكّلت بالإبهام والسبابة في اليد اليسرى حلقة، ثم صارت تُدخل وتُخرج منها سبابة اليد اليمنى، كناية عن عملية الجنس. رسمت ذلك وهي تطلق ابتسامة ونظرات إغراء.

ثم أمسكت نهديها الصغيرين، وقالت: «هذا نهد: 찌르기». ثم فتحت أزرار قميصها ببطء وأخرجت نهدها الأيمن، وصارت تداعب حلمتها بحركة دائريّة مثيرة، وتقول: هذه «حلمة: 젖꼭지». أخرجت النهد الأيسر أيضاً من الستيان. ثم أنزلت يدها نحو الأسفل وقالت: «هنا العانة: 모음»، «البظر: 핵음» ثم «الفرج: 외음».

شيئاً فشيئاً تسرّب الدفء إلى أوصالها مع تراجع الحياء والتردد، وانتصارها على ارتعاشة القلق والخوف. بينما دان، غارقٌ في الدهشة والاستغراب والذهول الممتع مما يراه. حالهُ حالُ هرٍّ لم يرَ قطةً في حياته، وها هو يراها الآن. اقتربت منه أكثر، وجثت، وبدأت تنزع عنه البيجاما ببطء، ثم الكلسون، وتشير برأس سبابتها إلى قضيبه المرتخي المتهدّل كدودة سميكة، وتحرّكه يُمنة ويُسرة.

وتنقره نقرات خفيفة، مع إطلاق ابتسامات تنمّ عن إثارة وغنج وإغراء، وإصدار تأوّهات خفيفة ممزوجة بغمغمة الاشتهاء واللهفة. بينما دان مستسلمٌ تماماً للذهول، يتأمّل المشهد ومجرياته بشيء من الغرابة والاستعذاب والفضول في آن. وقالت عن قضيبه: «هذا يدعى 남근 بالكوريّة. وهاتان الخصيتان نقول لهما: 두 고환».

ثمّ بدأت تفرك خصيتيه وقضيبه برفقٍ وحنان، وتقشّره، مزيلة الشحمة عن تمرته الباهتة اللون. أمسكت بيديه الضخمتين ووضعتهما على نهديها وطلبت منه أن يفركهما ويعصرهما برفق ولين. وما إن أصبح النهدان الطريان الأملسان في كفيه، حتى شعر بصعقة تضرب رأسه، وكأنّ دلو ماءٍ دافئ يندلق عليه، باعثاً في أوصاله الخدر اللذيذ من باطن قدميه إلى رؤوس أصابعه، ثم في الذراعين، والكتفين، ثم الظهر، فالخصر، وصولاً إلى أطراف أصابع قدميه مجدداً. مشاعر وأحاسيس غريبة، شديدة اللذّة والمتعة، تنتابه الآن. ومع ذلك، لم يغمض عينيه، كما تفعل يون.

قرّبت رأسه ووضعته على صدرها، وصارت تفرك نهديها بوجهه وتضع كفّيها على رأسه وتداعب شعره. وتلمس برقةٍ وهدوء وببطء ظهره، وتنقر فقراته برؤوس أصابعها. قامة يون القصيرة التي تبلغ 160 سنتيمتراً، لا تسعفها على الإحاطة بجسد دان الضخم الذي يبلغ طوله نحو 180 سنتيمتراً. أعادت يدها إلى حيث قضيبه ممسكةً به. بدأ الدفء والرغبة ومياه الذكورة والشهوة تجري في عروق دان أيضاً. ومع رؤية يون قضيبه ينتصب رويداً، فرحت كثيراً، لأنها خشيت من أن الصدمة أفقدته القدرة الجنسيّة والمشاعر الحميمة

أيضاً. واتضح لها أنه ما زال محافظاً على مشاعره الجنسيّة، وكان بحاجّة إلى من يوقظ فيه عواصف وجمر وجذوة الذكورة. أمسكت بيديه ومددته على الفراش. صارت تقبّل بطنه وصدره وعنقه ببطء، وتفعل ما ينبغي أن يفعله أي رجل كي يثير الرغبة والشهوة لدى أيّة امرأة. ومع كل لثمة من شفتيها على جسده، يشعرُ بلسعة خفيفة من اللذة تفتح في أعماقه براعم حقول الاشتهاء. صارت تعلّمه كيف يتعامل معها، كأنّه مراهقٌ غرٌّ جاهل، لم يمارس الجنس في حياته. وهو بالفعل، طوال أيام تواجده في بيت يون، كاد ينسى أن لديه عضواً ذكرياً، له وظيفة روحيّة إلى جانب وظيفته العضويّة كممر لطرد البول من الجسد. أججت يون في داخله الهياج الذكوري، وصارت كدُمية صغيرة تتمرّغ في حضن هذا العملاق نظراً لتفاوت الحجم بينهما. قضيبه المشدود والمحتقن والمتخشّب، صارت تمرته متوهّجة كأنها قطعة ياقوت أحمر يميل إلى الزرقة. لم يكن قضيبه بتلك الضخامة التي كانت تتصوّرها، قياساً بجسده. ساورتها فكرة ساخرة؛ صحيح أنه أكبر من قضيب زوجها القتيل، لكنه صغير قياساً بحجم رجل يناهز طوله مترين تقريباً. بعد تدفق مفرزات المهبل وازدياد الطراوة والسخونة واللزوجة أثناء الهياج الجنسي، صارت يون جاهزة تماماً للجلوس على قضيبه، والبدء برقصة الحياة، وإطلاق صهيل النشوة كأنّها فرسٌ شموس تعاشر حصاناً بمنتهى العشق والرغبة. وهي تفضّل هذه الحركة أو الوضعيّة أثناء ممارسة الحبّ، أكثر من غيرها. تحسب نفسها فارسة تمتطي صهوة جواد، وحركة الارتفاع والانخفاض ما هي إلا حركة الفارس أو الفارسة على ظهر الجواد أثناء بدئه مشية خبب. لم تتأخّر رعشتها الأولى،

وكانت كموجةٍ هائلةٍ ارتطمت بصخرة فانكسرت وتطايرت قطراتها في كل مكان. هزّت الرعشةُ كيانها من الأعماق، رفعتها وأهبطتها، لكأنّها في أرجوحة الدولاب العملاق المتواجدة في مدن الملاهي والألعاب. وأثناء كل صعود وهبوط في دولاب اللذّة العملاق، تطلق تأوّهات الدهشة والنشوة المصحوبة بالشهقات والزفرات، التي لا يمكن أن تصدر إلّا عن شخص شارف على الاختناق، وفجأةً تمتلئ رئتاها بالأوكسجين، ثم تنكمشان مجدداً، وهكذا. شعرَ دان بنبضات جدران مهبلها الخفيفة، ضاغطاً على قضيبه، كقبضة اليد التي تشتدّ وترتخي، بشكل خفيف. بقيت مرتمية على صدره، تستمتع بلحظات التحليق والشرود والاسترخاء، ولم تشأ إخراج قضيبه، حتى ارتخى وانزلق نحو الخارج. بعد استراحة، عاودت يون مداعباتها، فاستعاد القضيب صلابته، ثمّ غيّرت الوضعيّة، وبدأت صولاتها مجدداً. فأتتها الرعشة الثانية أقوى من الأولى، كصعقةٍ ضربت تلك الصخرة نفسها التي تكسرت عليها الموجة السابقة، وطحنتها، ثم ذرتها غباراً. لم تشفق يون على دان، بل واصلت ممارسة الحب معه، كأنّها ستفقده في صبيحة الغد. دوي الانفجارات وهدير الطائرات، لم يشتتا تركيزها أبداً، ونسيت أنها تمارس الحب وسط التهاب حلبات الموت واشتداد سعيرها، خارج منزلها. وبإمكان أيّة قذيفة أو صاروخ أن يطيح بكل شيء، في أيّة لحظة! وصارت تقول في نفسها: «ثمة أناس يمارسون الجنس، وثمة من يمارس الحب. في هذه الليلة، مارستُ الحبّ. هذا الرجل، صرت أحبّه، ولا أعلم ما إذا كان يبادلني المشاعر أم لا. لكنني سأحاول أن أمنحه الحبّ، بهذا الجسد المنهك، المتعب، الحزين والفقير».

بسبب قلّة التغذية وظروف الحرب والكبت والحرمان وتفاقم الأحزان والمآسي، فقد جسد يون النضارة، وبدا شاحباً، قليل الشحم والنعومة، وأقرب إلى الخرقة منه إلى جسد امرأة في منتصف العقد الثالث من عمرها. وبعد ممارسة الحب، نظرت يون في المرآة العكرة الموجودة في البيت، فبدا جسدها يميل إلى اللون الوردي، كأنّها كانت زهرةً ظامئةً وذابلة، وارتوت. بعد أن كانا ينامان منفصلين طوال ثلاثة أسابيع، من تلك الليلة الأولى، ليلة القدر، صارت يون تنامُ في حضنه، نومَ فرخ الحمامة في عشٍّ دافئ وثير. شعرت بالأمان وبراحة شديدة، لم تشعر بها أبداً، إلّا في الأيّام الأولى من زواجها. نامت ملء جفونها، ولم تعد تكترث لأيّ شيء، حتّى لو انتهى العالم في صبيحة اليوم التالي.

في ما بعد، صارت رقصة المتعة، أو لعبة البحث عن اللذّة، وسط ضجيج وركام الحرب، متبادلة بين دان ويون، ولم تعد هي وحدها التي تبادر أو تطالب. وحين صار هو يفاتحها بالرغبة، بات يضيف في كل جولة إلى الفنون التي علّمته إيّاها، طرائق وإضافات وإبداعات جديدة، تزيد من حماسة ومتعة وفرح يون، على أنه أصبح يستعيد عافيته وطاقته، ويبتعد عن صدمة الحرب التي دمّرت تكوينه على مستوى الذاكرة واللغة والأحاسيس. ساعدته يون في استعادة ذكورته التي سلبتها الحرب منه. فصار هو يداعبها ويجرّها إلى حلبة ممارسة الحبّ بشراهة ونهم واشتياق العاشقَين اللذين يلتقيان بعد فراق طويل. لكنها بقيت على خشيتها من أن استعادته ذاكرته تماماً، ربما يكون سبباً في الفراق الأبدي بينهما. خاصّة أن يون أدمنته، أدمنت وجوده في حياتها. أدمنت ممارسة الحب معه. وصارت

متعلّقة به تعلّقها بالحياة. وبات دان مبرر حياتها وسرّها وإكسيرها، ولا تعرف ماذا يمكن أن يحصل لها من دونه. وأصبحت تقول لنفسها: «بصماتُ الأصابع ليست متشابهة. كذلك بصمات الأرواح والقلوب. هناك أناس نمرُّ بهم، بصماتهم خفيفة تزول بسرعة. وهناك بشرٌ نصادفهم، تكون بصماتهم قويّة وعميقة على أرواحنا وأفكارنا، وأجسادنا أيضاً».

بمرور الأيّام، ازداد حبّها لدان، وبسببهِ اشتدّ تعلّقها بالحياة. وإن هذا السرّ الذي حافظت عليه طوال 5 أشهر، لا مناص من انكشافه وافتضاحه، وربما يشكل ذلك خطراً على حياته، وخسارتها له إلى الأبد. قالت يون: «الناس آبار متفاوتة العمق والسعة. مِنهم ما هو سطحي وضيّق. ومِنهم ما هو واسع ولا قرار له. ينبغي أن يكون لكل منّا بئره الخاصّ، ربما يكون أُمّاً أو صديقاً أو صديقةً أو أخاً أو أختاً. . .، نلقي في أعماقه أسرارنا. السرّ لا يستحق الموت بموت صاحبه. السرّ، يستحق الحياة، وأن يبقى سرّاً أيضاً، دفيناً كامناً في قاع بئر، ربما يكون إنساناً أو أغنية أو قصيدة أو رواية. لا متعة للحياة من دون أسرار. الحياة بحدّ ذاتها سرّ، نقضي أعمارنا في سبيل استكشافه. وبما أن للحياة سرّ، وأن الحياة نفسها سرٌّ عظيم، فيجب أن تحيا الأسرار إلى الأبد، كي تبقى الحياة إلى الأبد. هناك لحظات في حياتنا، تكون في غاية المتعة واللذّة، حين تبقى محافظة على سرّيتها. هذا السرّ، يجب أن يبقى معي. ويجب ألا يموت معي. كيف السبيل إلى ذلك؟ لا أعرف!».

صارت تراودها الوساوس والمخاوف من المستقبل. وأنه لم يبقَ لها شيء يربطها بهذه الأرض سوى هذه القبور المرصوفة إلى جانب

تلك الشجرة الهرمة. «الحياةُ سفرٌ من استقبال المجاهيل، ومغادرات المعاليم. ولكن، إلى أين يمكننا أن نغادر حفاظاً على حياتنا؟ فالبلاد كلها، صفيحٌ مستعر، صيفاً شتاءً، نتيجة الحرب والموت الذي لم تعد له حدود، بسبب غزارة حدوثه وتكراره. إلى أين يمكننا أن نذهب، أن نهرب؟!». قالت يون لنفسها.

كذلك حياة دان أضحت مقوَّضة وقلقة، كأنّه تحت الإقامة الجبرية، لا يخرج من البيت، إلا في الليل، فقط كي يتنسّم بعض الهواء، ويكتشف أن هناك سماء في خارج المنزل. اعتاد على هذا النمط من العيش الليلي كالبومِ والخفافيش الأليفة.

بعد دخولهما سنة 1953، وتعلُّمِ دان اللغة الكوريّة بشكل جيّد، تكلّماً وقراءةً وكتابة، قررا مغادرة المنزل مع موجات النزوح الكبيرة التي كانت تملأ الطرق والممرات في البلاد. عشرات ألوف النازحين من القرى والمدن الحدوديّة الشماليّة يحاولون الهرب من مناطق الاشتباك والبحث عن أماكن آمنة، أو يتوفّر فيها الحدّ الأدنى من الأمان. ولكن، أيُّ مكانٍ آمن، وسط هذا الموت العاصف الذي تهبّ رياحه من كل الجهات وفي كل الاتجاهات؟! أيّ مكانٍ آمن يمكن لهما العثور عليه في بلادٍ تقضمها الحروب والاحتلالات الكثيرة؟! لم يعد هناك خيار آخر أمام يون ودان من أن يغادرا «هواتشون». فالأصعب من الموت، هو انتظار مجيئه. وفي ليلة الثاني من يونيو/حزيران 1953، أصبح دان ويون ضمن عشرات النازحين المتجهين نحو سيول (Seoul) العاصمة. بدأت الرحلة من «هواتشون»، حيث البرد ليلاً، والحرارة الشديدة نهاراً، والأمطار الموسميّة الصيفيّة، ثم اتجها نحو «تشونتشيون» (Chuncheon)، ثم

«غابيونغ» (Gapyeong)، ومرّا بـ«ناميانجو» (Namyanju) وصولاً إلى «سيول»، وكان خط سير الاتجاه مائلاً؛ من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي. دمار الجسور والطرقات، ووعورة المناطق الريفيّة، وحرارة الصيف والخوف من القصف، والأمطار الموسميّة. . . ، كل ذلك جعل من الرحلة تستغرق أضعاف أضعاف ما كانت تستغرقه في فترة السِّلم. في كل قرية أو مدينة مرّا بها، أضيف إليهم المزيد من النازحين، بحيث صاروا عشرات الآلاف؛ نساء وأطفال، وشيوخ، لأن الشباب كانوا يساقون إلى المعارك حتى في سنّ مبكّرة تتراوح بين 16 و18 سنة. اضطر دان أن يمثّل دور الأعرج المتكئ على عكاز. ربطت يون ذراعه اليسرى بجذعهِ، وتركت كمّ القميص والسترة فارغاً، حتى يبدو وكأنّه مبتور الذراع، ومعطوب وغير صالح للقتال. وسط الزحام وكثرة النازحين وشدة التعب والإعياء، والذعر الدائم من قصف الطيران الأمريكي لقوافلهم، انطلت حيلة يون ودان، ولم يلحظ أحد، أو لم يدقق أحد في جسد دان، وهل حقاً هو مبتور الذراع وأعرج أم لا! أثناء السير، تحت وطأة الذل والمهانة، الجوع والعطش، والذعر والرعب من الموت. . . ، رأى دان ويون جرائم الحرب التي ارتكبها الجيش الأمريكي الذي من المفترض أنه أتى لحماية الشعب الكوري والدفاع عنه من الغزو الشيوعي! رأيا كيف يقصف الطيران الأمريكي قوافل النازحين الكوريين الجنوبيين، بحجة أن هناك صينيين وسوفيات تسرّبوا أو اندسوا بينهم كي يستهدفوا الجنود الأمريكيين ومواقعهم! وصار دان يتساءل: «أيّة سماء هذه، التي يمكنها تحمّل كل هذا العذاب والألم الذي يحدث تحتها هنا، على هذه الأرض؟! أية سماء هذه، التي

يمكنها أن تستوعب حشود الأرواح البريئة التي تزهق، وترتفع إليها بغزارة؟! أيّة مسرحيّة جهنميّة هذه التي يتفرّج عليها الآلهة في الأعالي، بينما البشر في الأسفل، يتحوّلون إلى مِزق وإرب، في طرفة عين؟!».

مرّوا بغابات وقرى ومدن، لم يخطر على بال يون أن تزورها أو تمرّ بها. بعض النازحين من الأطفال والشيوخ، لم يموتوا بفعل القصف الأمريكي، بل من الجوع والمرض وانعدام الأدويّة. كذلك رأوا جثث قتلى تفسّخت في الخلاء، قيل إنهم قُتلوا جراء قصف الطيران الأمريكي لهم بأسلحة جرثوميّة.

هذا الماراثون الكارثي في مواجهة فيضان الموت والقتل والدمار، كان يلزمه إرادة ورغبة في الحياة تكون أقوى وأكثر صلابة على تحمّل وتحدّي كل تلك الأهوال والصعاب. القرى والمدن والطرقات التي مرّوا بها، كانت تشبه بعضها بعضاً، بسبب حجم الدمار وفظائع الحرب. ظنّت يون أن مدينتها فقط كانت على خطّ التماس والجبهة المشتعلة مع كوريا الشماليّة، فأكّدت لها المسيرة الماراثونيّة من «هواتشون» نحو «سيول» أن كل مدن وقرى البلاد أصبحت خطوط تماس وجبهات قتال. وصارت تفكّر في مغادرة البلاد نهائيّاً. ولكن كيف؟ كيف يمكنها المغادرة مع هذا الغريب الذي أحبّته وتعلّقت حياتها به؟!

لم يخطر في بالها أن الاستقرار في حي «أيتيوان» بـ«سيول»، سيعرّض حياتهما للخطر، بسبب وجود بعض المقرات الأمريكيّة. وظنّت أنه ربما نظام الحماية والدفاعات الجويّة هناك سيكون أفضل وأقوى من أي مكان آخر. سكنا شقة مهجورة في بناية شبه مدمّرة.

ومع كل غارة جويّة وسماع دوي القصف كانت العمارة المتهالكة تهتزّ، ويتساقط جزء من جدران شققها. بقيا في الشقة ريثما وجدا بيتاً مشتركاً مع عجوزين تركهما أولادهما وهربوا إلى خارج البلاد. هينرو زاماكي، جندي ياباني يبلغ من العمر 75 سنة، وزوجته الكوريّة تشوي زون هونغ البالغة 60 سنة. لم تخبر يون العجوزين بسرّها. لكن العجوز هينرو لم يكن مرتاحاً لتهرّبها من كشف هويّة هذا الرجل ذي الملاح الأجنبيّة. وبعد مضي شهر ونصف، لم تلحظ يون منهما أيّة بادرة عن سوء نيّة، وإلّا لكانا أخبرا السلطات عن وجودهما، وخاصة وجود هذا الأجنبي الذي يبدو بصحّة جيّدة.

ذكرت الإذاعة أنه تمّ التوقيع على اتفاق الهدنة في 27/ 7/ 1953. فأخبر هينرو يون بذلك. ولكنه كان حزيناً للغاية، لسبب وحيد ووجيه يتعلّق به:

- تم التوقيع على اتفاق الهدنة. ويبدو أن هؤلاء الحمقى ملّوا من طحن عظام بعضهم البعض. أخشى أن يعودوا إلى إدارة الطواحين بدماء هؤلاء الجنود الحمقى، الذين سرعان ما يصدّقون أكاذيب هذه الحرب المجنونة أو هذه المطحنة المجنونة على أنها حربهم المقدّسة، وأن اللّه أو التاريخ كلّفهم بخوض هذه التفاهة والحماقة الخسيسة. والذي يؤسفني في الأمر حقّاً، أنكما ستعودان إلى «هواتشون» بعد أن اعتدنا عليكما وأصبحتما جزءً من عائلتنا، بل أفضل من أولادنا الذين هربوا، وتركونا نواجه مصيرنا. أنا حزين للغاية أنكما ستغادراننا.

اندهشت يون ممّا سمعته من العجوز الذي اختتم كلامه بزفرة تنضح بالكآبة والأسى. فقالت في نفسها:

«إنه البئر الذي كنت أبحث عنه، كي أودع فيه سرّي الذي اعشقه. إنهما ليسا بئرين، بل أمّي وأبي اللذان أخذتهما الحرب، وأعادتهما إليَّ في هذه اللحظات».

ارتمت في حضن العجوز وهي تجهش بالبكاء وتقول له: «أبي. أنت أبي. نعم، من الآن فصاعداً أنت أبي، وأنتِ أمّي. لن نغادركما. لا، لن نغادر». فبكت تشوي زون أيضاً. بينما دان يتأمّل المشهد باندهاش محايد. وأفشت سرّها، وسردت حكاية دان (آلفونس) وأنه جندي مجهول، ولكن حيّ، لم يقتل، كعادة الجنود المجهولين. فأعرب هينرو عن فرحته بقرار بقائهما للعيش معهما. وقال:

- كم أحسدكَ على النعمة التي أنتَ فيها يا بُني. يا ليتني مثلك، عديم الذاكرة. هذه النعمة، نعمة النسيان التام، هبة من السماء، لا يمنحها الربّ لأيّ شخص كان. لقد عايشت حروباً عديدة، في كل واحدة منها، تمنّيت الموت آلاف المرّات، ولم يستجب الربّ لدعائي واستغاثاتي. دخلتُ الحرب اليابانيّة - الصينيّة الأولى سنة 1894، وأنا في سنّ السادسة عشرة. ثم شاركت في الحرب اليابانيّة - الروسيّة سنة 1904. . ومنذ سنة 1910 وأنا في سيول، كجندي محتلّ. ومن هنا، شاركت أيضاً في الحرب اليابانيّة - الصينيّة الثانية سنة 1937. ودخلنا الحرب العالميّة الثانية، وأنا هنا، في كوريا. هل تعرف حجم الألم الذي تجلبه لي ذاكرتي؟! هذا الألم والمعاناة، لا يمكن لجبل فوجي أن يتحمّلها. ومع ذلك، نجوت من كل هذه الحروب، ولم أنجُ من ذاكرتها. كم أحسدك. كم أغبطك على ما أنت عليه وفيه من فقدان الذاكرة. صدّقني. أنا أعني ما أقوله.

الذاكرة ألم. فإن كنّا نتذكّر شيئاً مفرحاً في حياتنا، فاستعادة تلك اللحظات تكون مشوبة بالألم، لأنها ذهبت ولن تعود. وهذا الاستحضار أو الاستذكار غالباً ما يكون مصحوباً بالحسرة على الماضي وعتاباً للحاضر أو رفضاً له. وفي حال كانت ذاكرتنا مليئة بالأحزان والمآسي والكوارث، فإنها تبقى قيداً من الألم مشدوداً على عنق حياتنا. وغالباً اللحظات السعيدة في الحياة قليلة، وسط بحر من اللحظات والساعات والأيام والسنوات الأليمة. لذا، أقول لك: الذاكرة ألم. نعم ألم. فلا تحزن يا بني على آلامٍ فقدت الشعور بها أو تذكّرها.

- لست حزيناً. كما أنني لست سعيداً أيضاً. لا أعرف طبيعة الحياة التي عشتها، قبل أن افتح عيني في منزل يون، حتى أحزن على فقدان ذاكرتها، أو أفرح لأنني فقدتها. يمكن أن تعتبرني طفلاً ولد في سن ما بعد العشرين. حتّى أنني لا أعرف كم هو عمري بالضبط! الحروب التي تتحدّث عنها، رأيت بعض مظاهرها في الطريق من «هواتشون» إلى «سيول». أنا الآن، أنتمي إلى هذه اللحظة بما فيها من ألم وحزن وفرح وأمل. يمكن للحظة أن تختزل عشرات السنين. ويمكن للحظة أن تقرر مصير عقود من الزمن الآتي. إنها مجرّد لحظة، لا يمكن أن نؤمن بأننا نصنعها أو أننا من ثمارها، أو من ضحاياها، أم هي من تصنعنا وتصنع مصائرنا؟! يمكن للإنسان أن يكون ابن لحظة ما. ويمكن لشعوب أيضاً أن تكون أبناء لحظة ما. هي لحظة، يغادرها الآلاف، ويسكنها الآلاف، نشترك فيها مع المكان ومكوّناته. بصراحة، لا أعرف بالضبط ما أنا عليه؛ هل أنا جزء من هذه اللحظة؟ أم من الأمكنة التي تجوبها هذه اللحظة؟ لست

حائراً. ولا يهمّني معرفة الإجابة على هذا التساؤل. لا يحزنني عدم معرفة الإجابة، ولا يفرحني العثور على الإجابة أيضاً.

- تتحدّثُ وكأنّكَ عايشتَ كل هذه الحروب ومررتَ بها. وليس كشخصٍ بذاكرة بيضاء، تخطّ عليها اللحظات بصماتها!

- الحروب التي عايشتها أو عايشها آخرون، تنتقل إلينا، بفعل الاستماع لأحداثها وأهوالها، أو قراءة هذه الأحداث عبر الصحف والمجلات والكتب. الآن، بعد الاستماع لك، أصبحت ذاكرتك جزءً من ذاكرتي الوليدة أيضاً. أصبحتُ شريكك في اللحظات التي عايشتها، طالما انتقلت مشاعرك وأحاسيسك إليّ، عبر الوصف والكلام.

- لكننا حمقى، لأننا خضنا ونخوض هذه الحروب. كل المتجهين للحروب حمقى. حتى المنقاد بالجبر والإكراه للحرب، هو أيضاً أحمق.

شعر دان بشيء غريب، كأنّه سمع هذا الكلام سابقاً. وكأنّه رأى هذا الرجل في ما مضى. وكأنّ هذا المشهد، مشهد نقاشه مع هذا العجوز، سبق أن مرّ به، ربما في حلم، ربما في مكان ما. وصار يحاول عصرَ ذاكرته لربما يعثر على بصيص أمل يعيده إلى المكان والزمان اللذين رأى فيهما هذا الرجل، واستمع لهذا الكلام؛ «كل المشاركين في الحروب، طوعاً أو جبراً، هم حمقى»!!؟

عاود هينرو زاماكي كلامه بشيء من الثقة:

- بُني. هذه الهدنة التي تمّ التوقيع عليها، ستكون تكريساً لتقسيم هذه البلاد التي كانت منقسمة أصلاً. اليابان التي كانت تحتّل كوريا،

من شمالها وجنوبها، تحوّلت اليابان من دولة مُحتِلة إلى دولة مُحتَلة. بينما المساكين الكوريون كانوا تحت احتلال مضعّف؛ ياباني مهزوم، وأمريكي منتصر، وتحت احتلال سوفياتي - صيني منتصر! نحن اليابانيين ساهمنا في إدخال الأمريكيين في الحرب العالميّة الثانية بالهجوم على قاعدتهم البحريّة في «بيرل هاربور» سنة 1941. وجلبنا الكارثة الذريّة لبلادنا، وحققنا لأنفسنا الاستسلام المهين، وقبول الاحتلال أيضاً. أي عقل هذا؟ أي منطق في ما ارتكبناه بحق أنفسنا وبلادنا وبلاد الآخرين؟! ألسنا حمقى؟ في الحروب، لا يستجيب للحمقى، إلّا أمثالهم من الحمقى. وأقصد ترومان وجماعته.

توقّف هينرو عن الكلام هنيهةً، وبيدٍ راعشة متوتّرة حمل كوب الماء، وارتشف بضع جرعات، فتسرّبت بعض القطرات من فمه وانحدرت على ذقنه، وتناثرت على قميصه. مسح بيده الأخرى البلل الموجود على شفتيه والذقن. وأثناء محاولته إعادة الكوب إلى حيث كان، فوق المنضدة، سقط الكوب من يده على الأرض فانكسر وتطايرت قطع الزجاج وقطرات الماء بفعل الصدمة. جثت يون بسرعة وحاولت جمع قطع الزجاج بيديها. جرحت الإصبع الوسطى من يدها اليمنى. فسال الدم، واختلط بالماء والزجاج. سارع دان إلى المطبخ وجلب خرقة ربط بها إصبع يون، وجلب مكنسة صغيرة لكنس قطع الزجاج. ثم جلب ممسحة مسح بها الماء والدم الموجودَين على البلاط.

- «تشعرين بألم؟» سألها دان.

- «لا. لا أبداً. وخزة بسيطة جداً». نظرتْ إلى عينيه فوجدت حزناً هائلاً محتقناً، لم تجده من قبل. سرّها هذا الحرص الشديد منه

عليها. أمسك دان يدها المجروحة بحنان ورفق، ورفعها إلى فمه، وقبلها مغمض العينين. استمرّ في الإغماضة بضع ثوانٍ، وحين فتح عينيه، انزلقت منهما دمعتان كبيرتان، كقطرتي مطر ربيعي. فقالت له:

- إنه جرح بسيط، ولا يسترعي كل هذا الحزن يا حبيبي.

كلمة حبيبي، في هذه اللحظة، كان لوقعها على مسمع دان سحرٌ آخر، أشبهَ بالخدرِ الخفيف، وانعدامِ الوزن، أو دغدغة شغاف القلب، وملامسة رهيفة لروحهِ التعِبة.

شعرت العجوز تشوي زون بانقباض قلبها، بعد سقوط الكأس من يد زوجها، وجرح إصبع يون، وأن في ذلك فال شؤم، ربما ينذر بحدوث مكروه غير محمود العواقب. في حين، شعرت يون براحة شديدة، ومتعة كبيرة، بعد أن أخرجت من أعماقها السرّ الذي قالت ذات يوم عنه: «هذا السرّ يجب أن يبقى معي. ويجب ألا يموت معي. كيف؟ لا أعرف!». الآن، عرفت الإجابة. أو ساعدتها الأقدار على معرفة الإجابة. سبب آخر جعلها تشعر براحة وطمأنينة كبيرتين، هو ذلك الحزن والاهتمام الذي وجدته يتدفّق من كل خلايا دان باتجاهها. أرادت يون أن يتوقّف الزمن هناك، في تلك اللحظة التي مرّت وصارت من الماضي.

الثلاثون من أغسطس/آب 1953، حرٌّ شديدٌ لا يطاق، لكأنَّ المرء قذيفة في جوف مدفع، تتمنّى أن تنفجر في أيّة لحظة، حتى يتخلّص من حالة الانتظار تلك. مع هبوط المساء، الأرضُ والشوارعُ والجدرانُ التي احتبستِ الحرارةَ طوال نهار اليوم، تبدأ بالتفريغ، مع وجود نسبة عالية من الرطوبة. لا تعتدل حالُ الطقس قليلاً، وتبدأ النسمات سريانها إلّا بعد منتصف الليل. يعني؛ أنها حربٌ أخرى،

وصراع آخر مع الطبيعة، بعد مضي نحو شهر على توقيع الهدنة. ومع ذلك، تحرّكت الأحوال الاقتصاديّة في «سيول» وتحسّنت قليلاً، باتت المواد الغذائيّة أكثر توفّراً. ذهبت يون إلى السوق لشراء بعض الحاجات. هذه المرّة، اصطحبت معها دان، سليماً معافى، من دون أكسسوارات التمثيل والخداع على أنه معاق. كانا واقفين أمام عربة لبيع الخضار. السوق مَلأى بالباعة والمرتادين، شأنهُ شأن أيّ سوقٍ شعبي، في أيّةِ بقعةٍ من العالم.

فجأةً، توقّفت عربةٌ عسكريّة، عليها العلم الأمريكي، نزل منها جندي وحيد، كان يقودها. وقفَ أمام الناس المتواجدين على الرصيف وأمام الحوانيت والعربات الجوّالة، وصرخ:

- أنا بيل غولدهستون، من فيرجينيا، عمري 23 سنة. أحلامي كانت صغيرة وبسيطة جداً: أن أتزوّج صديقتي مونيكا ساترفيلد التي عشقتها وعشقتني، ونكمل الحياة معاً، ويكون لنا بعض الخراف والدجاج وبقرة في مزرعة صغيرة. وأن يكون لي طفلان؛ ولد وبنت. وأن أستمر في كتابة الشعر. أهذه أحلامٌ كبيرةٌ جداً، تستحق أن أحارب لأجل تحقيقها على هذه الأرض البعيدة عن موطني؟! أمي ماتت منذ سبعة أشهر، ولم يخبرني أحد. مونيكا انتحرت منذ ثلاثة أشهر، ولم يخبرني أحد. رفاقي الجنود، الكثير منهم قتلوا في هذه الحرب، والكثير منهم تشوّهوا، بترت أطرافهم، أو أصيبوا بالعمى أو الصمم أو الجنون. ترى، هل كان هؤلاء حشرات؟! ألم يكن لهم أحلام صغيرة كأحلامي؟! حتّى لو كان لهاري ترومان أبناء، لما أرسلهم إلى حيث أرسل أبناء الأمريكيين كي يقاتلوا ويقتلوا، ويحقق هو أمجاده على جماجمهم! أين أبناء ألبين باركلي؟! أين أبناء دوايت

آيزنهاور؟! لماذا هم ليسوا هنا معنا، مع الأمريكيين الفقراء؟! لماذا يتم إرسال جون آيزهاور إلى الجامعة، وأُرسَل أنا إلى الحرب؟! لماذا يصبح جون كاتباً، وأصبح أنا محارباً؟! أي عدل في هذا؟! لماذا يتم زجّ أولاد الفقراء في الحروب، لينعم أولاد الأغنياء بالحريّة والسلامة والمراتب والمناصب؟!

لقَّم بندقيّته بسرعة وغضب، وأطلق رشقة في الهواء. وعاد للكلام، والدمع ينهمر مدراراً من عينيه:

- مضى نحو سنتين وأنا هنا، أصارع الموت، وغلبته. نعم، غلبته. وأنقذت حياة الكثيرين. ولكن، خسرت حياتي. خسرت حبيبتي. خسرت أمّي. وخسرت إنسانيّتي، خسرت أحلامي ومستقبلي. نعم، خسرت إنسانيتي. أنا وحش في جسد إنسان. هذه اليد، هذه الأصابع، أزهقت الكثير من الأرواح على هذه الأرض، فعاقبني الربّ بأن أخذ منّي أمّي وحبيبتي. أرفض عقابك هذا، أيّها الرّبُّ الحقودُ اللعين! تعالَ انزل إلى هنا، إن كنت حقّاً ربّاً وقادراً على النزول. انزل، أقول لك: انزل، ونازلني هنا، رجلاً لرجل!... انزل، وسترى كيف أصلبكَ، بكلتا يديّ هاتين!

أطلق رشقة أخرى في السماء. وأضاف: «لا تريد النزول إذن؟! ستبقى متوارياً في حصونكَ المشيّدة لك في سماواتكَ!؟ تريدُ البقاءَ مختبئاً خلف الحُجُب والستائر والأقاويل التي منذ ألفي سنة نسمعها ونكررها في الأديرة والكنائس!؟ طيّب، وهو كذلك. كما تشاء». صوّبَ بندقيّته صوب حشود البشر الذين اندهشوا مما رأوه من هذا الجندي الأمريكي، وكأنّهم يشاهدون عرضاً مسرحيّاً تراجيديّاً، صاروا جزءً منه، ليس بوصفهم جمهوراً، بل كومبارساً مشاركين فيه!

حتى أن بعض الموجودين، ورغم أنهم لا يفهمون اللغة الإنكليزيّة، إلّا أن البكاءَ والرثاءَ لحال الجندي الأمريكي، غَلَبَهم. في هذه اللحظة، استشرى الذعر بين الناس، وبدأوا بالصراخ والعويل وحاولوا الهرب. أطلق رشقة أخرى، وقال: «توقّفوا. أقول لكم: توقّفوا..! جئت كي أدافع عنكم، وأدفع الموت والأشرار عن بلادكم. لماذا تخافون منّي. لن يذكر التاريخ أنني فعلت أموراً إيجابيّة على هذه الأرض. ولا أريد أن يذكر التاريخُ الخراءُ هذه التفاهات والجرائم التي اقترفتها بحق نفسي وبحق الكثيرين على أنها بطولات وشجاعة ومآثر في هذه الحرب. كنتُ أحمقَ لأنني أتيت إلى هنا. كنت أحمقَ لأنني بقيت هنا. عشت أحمقَ، وأودّ أن أموت أحمقَ، هنا».

وضغط بإصبعه على زناد البندقيّة الآليّة، وصار الرصاص يتدفّق بغزارة وينغرس في أجساد الموجودين، ويخترق بعضها، لينغرس في أجساد أخرى. تراكمت الأجساد، وتلطّخ المكان بالدماء. حين بدئه بإطلاق النار، دفع دان يون إلى الأرض، وحاول تغطيتها بجسده. أصيب بثلاث طلقات، واحدة في الكتف والثانيّة في الجانب الأيمن لإليته، والثالثة استقرّت في الساق اليمنى. عاود دان النظر إلى عيني الجندي، فإذا بهما تكادان تنطفئان، ويوشك الموت المتدفق منهما على النفاد. وضع الجندي مشطاً جديداً مليئاً بالرصاص في البندقيّة. ووضع فوّهتها في فمه، ثم ضغط على الزناد، فتدفقت نافورة دم من جمجمته، وتطاير دمه في الهواء، مع خروج الرصاصات. سقط على الأرض، معلناً نهاية حفلةَ الدمِ هذه.

بعد أن تأكّد دان من نهاية الكارثة التي استمرّت بضع دقائق،

التفت إلى يون، وإذا بها تلفظ أنفاسها الأخيرة، بعد إصابتها برصاصتين، واحدة في الرقبة والأخرى في الصدغ. لم ينتبه دان إلى الدم المنساب منها، وظنّه دمه، نتيجة إصابته بالرصاصات الثلاث. حاول الجلوس وجرّها إلى حضنه، واضعاً رأسها على ذراعه اليسرى. لا يصدّق ما تراه عيناه. أهو في كابوس مرعب؟ أم في حقيقة لا تطاق؟! صار يسأل نفسه.

أغلقت يون عينيها على صورة دان وبكائه. لم تقوَ هذه المرّة على مسح أدمعه الغزيرة، رغم أنها كانت ترغب في ذلك. شعرت أن يديها مغلولتان وتخونان رغبتها. كذلك خانتها شفتاها ولسانها، ولم تستطع أن تطالبه بالتوقف عن البكاء، وأنها لا تريد رؤيتهُ حزيناً باكياً. فقط، ابتسمت ابتسامة الرضا على الأيام التي عاشتها بصحبة هذا المجهول الذي أسمته «دان»، على أن تلك الأيّام والأشهر كانت الحياة الحقيقيّة، وما قبلها كان تمريناً على الحياة. أغمضت عينيها على صورته وابتسمت، ثم غادرت إلى الأبد وتركته للأقدار والمصائر التي ستواجهه.

إنها المرّة الأولى التي يجرّب فيها دان مفارقة شخص عزيزٍ عليه. هذه المرّة الأولى، بعد فقدانه الذاكرة، يجرّب فيها قسوة الموت وبشاعته، ويجرّب فيها الإحساس بالوحدة واليتم والألم الذي ينهش أعماقه.

أمّا الجندي الأمريكي، بيل غولدهستون، الشاعرُ الرقيق الذي حوّلته الحرب إلى قاتل، أكثر من حزنت لمآله وخاتمته هي المراسلة الحربية مارغريت هيغينز (Marguerite Higgins)، لأنها كتبت عنه تقريراً ونشرته في الصحيفة التي تعمل لمصلحتها. كما ساعدته في

نشر قصائده في صحف ومجلات أخرى. أعيدُ الاعتبار إلى غولدهستون في الذكرى الثلاثين لانتهاء الحرب الكوريّة سنة 1983. حيث تمّ تجميع نصوصه وقصائده المنشورة وغير المنشورة في ديوان شعري حمل عنوان قصيدته الأخيرة التي كتبها قبل ارتكابه تلك المجزرة المروّعة بأسبوع، وحملت عنوان «ظلال مكتئبة وقاتلة»، وأهداها إلى حبيبته: «إلى عينَي مونيكا اللتين ما زالتا تنتظران عودتي». هذه القصيدة كتبها غولدهستون في 23 أغسطس/آب 1953:

مونيكا...

يا بحراً من الانتظار والأحزان.

العتبُ واللومُ المتدفّق من عينيكِ، يخنقاني كحبل مشنقة.

أنا هشيمٌ لا نهاية له.

لستُ أدري؛ لماذا تأخّرتِ الشرارةُ والريح؟!

أنا غريبٌ على أرضٍ غريبة.

مدنّس بالخطايا، وميّتٌ مُذ غادرتكِ.

لا تلقي بجيفتي في البحار أو الأنهار.

لا تدفنيها في أيّة أرض.

لا تلوّثي النار بحرقها.

أنا جثّة حائرة وشديدةُ الاكتئاب.

فقدتُ القدرة على القتل.

وإلّا، لقتلت نفسي أولاً.

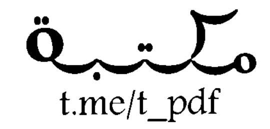
مونيكا، أحبُّكِ، ومشتاق لك.

لا تسرعي في الركض.

ساعديني على اللحاقِ بكِ.

انتشليني من قاع الجبّ الذي أنا فيه، مونيكا.

أودّ اللحاق بك، ولا أعرف السبيل إلى ذلك؟!



23/ 8/ 1953

سيول/ كوريا الجنوبيّة.

أتت طواقم الإسعاف إلى المكان، لإجلاء القتلى والجرحى من مكان المجزرة. أودع دان في المستشفى، وتم دفن يون مي وينغ، في مكان يجهله. وحين أخذ العاملون في المستشفى بياناته الشخصيّة، ذكر أن اسمه دان بياو جونغ. لكنه لا يعرف أي شيء عن عمره، ومكان ولادته، وبياناته الشخصيّة الأخرى. شكك الأطباء في أقواله، وتم استدعاء البوليس للتحقيق معه، خاصّة أن ملامحه أجنبيّة وليست كوريّة. جاءت عناصر الاستخبارات والجيش للتحقيق معه. فسرد على أسماعهم كل ما جرى معه، منذ لحظة فتحه عينيه في منزل يون. وأن هناك عجوزين يشهدان على أقواله هما: هينرو زاماكي وزوجته تشوي زون هونغ. وأثناء الاستماع لأقوالهما أيضاً، ذكرا القصّة نفسها، وأنهما يعرفان يون القتيلة. وأن دان فاقد للذاكرة، ولا يعرف أي شيء عن نفسه. وطالبا من السلطات أن تساعداه في البحث عن أهله ووطنه. وذكرا ذلك، لأنهما متأكدان أنهما لن يعيشا

إلى جانب دان إلى الأبد. ويجب أن يعثر على هويّته وأصوله وبلاده، لربما أهله الآن في انتظار عودته.

بقي دان في المستشفى إلى حين تماثله للشفاء تماماً. أثناء ذلك، بدأت السلطات الكورية الاتصال بمقر قيادة الأمم المتحدة بهدف البحث عن هويّة هذا الشخص المجهول. لم يكن بين أيديهم أي دليل سوى صوره وملامحه التي تشبه ملامح الطليان والاسبان. ولكن إيطاليا وإسبانيا لم يكن لديهما قتلى أو جرحى في الحرب الكوريّة. فاتجهت الأنظار نحو تركيا التي شاركت في الحرب بـ 5453 جندياً وضابطاً وضابط صف. قُتل منهم 741 شخصاً، وجُرح 2068. وعدد المفقودين كان 164 شخصاً. وبالنظر إلى صور وبيانات المفقودين الأتراك، تبيّن أن هناك نسبة شبه كبيرة تتراوح بين 90 و95 بالمئة بين دان بياو جونغ وصفات جندي تركي، اسمه لاوند أصلان أوغلو، المولود في 21 مارس/آذار 1929. الأب: محمد أمين. الأم: ريحانة. الطول: 180 سنتيمتراً. الوزن: 83 كيلوغراماً. شعر أسود. بشرة بيضاء. عينان عسليتان واسعتان. ملامح الوجه متناسقة. كذلك وزن دان كان 82 كيلوغراماً. وله نفس الطول، ولون العينين وشكلهما. مع وجود اختلافات طفيفة بنسبة 5 بالمئة.

اتصلت قيادة قوات الأمم المتحدة بالجانب التركي. وذكرت أنهم عثروا على جندي فاقد الذاكرة، تنطبق عليه مواصفات الجندي الذي اعتبر من ضمن المفقودين؛ لاوند أصلان أوغلو. لم تستجب السلطات التركيّة لهذه الرسالة. وبعد معاودة المراسلة أكثر من مرّة، اضطرت قيادة الجيش التركي إلى الردّ والترحيب بالأمر. وبالرغم من وجود اسم الجندي على لائحة المفقودين، إلّا أن السلطات التركيّة

أبلغت عائلة الجندي بأنه قُتل في الحرب، ولم يتم العثور على جثته.

أبرق الجيش التركي إلى عائلة الجندي بوجود خطأ، وأن هناك احتمالاً أن يكون ولدهم على قيد الحياة، بعد العثور على شخص تنطبق عليه صِفات الجندي لاوند. وأن هذه الأمور تحدث كثيراً في الحروب. وأن ترتيبات السفر إلى تركيا، ربما تستغرق شهرين أو ثلاثة على أبعد تقدير.

خلال هذه الفترة، وبعد موت يون، مرّت على آلفونس حالة من الاكتئاب الشديد، والرغبة في الانتحار. لكن العجوزين هينرو وتشوي زون حاولا التخفيف عنه كثيراً، وأن الأقدار لا رادّ لها. والموت والانتحار ليسا حلاً، فالموتُ لا يعالجُ بالموت. وأن السفر إلى تركيا والعثور على الأهل والأحبّة سينسيه كل هذه الأحزان والأهوال التي مرّ بها.

أثناء فترة الانتظار، استدعت السلطات التركيّة والد الجندي المفقود لاوند، وأخبرته بشكل رسمي بأن ابنه لم يقتل، بل حيّ يرزق، وتمّ العثور عليه في كوريا. ولكنه فاقد الذاكرة. لم يصدّق الأب ما سمعه، فاغرورقت عيناه بالدمع، وبدأ لسانه يلهج بالحمد والشكر للّه على نعمته هذه، وكاد يغمى عليه من هول الصدمة وشدّة الفرح. وصار الأب يفكّر في الطريقة التي يمكنه بها إخبار أمّه التي حزنت على ولدها حزنَ يعقوب على فقدان يوسف. لاوند يشبه أمه وأخواله أكثر من أبيه وأعمامه. فالأب والأعمام متوسّطو القامة، ببشرة حنطيّة، وشعرٍ كثيف، وحواجب غليظة، ووجوهٍ طويلة، ومناخير كبيرة معقوفة على الشوارب الكثّة. بينما الأمّ والأخوال، فقاماتهم طويلة، وبشرتهم بيضاء، وأعينهم ملوّنة؛ زرقاء خضراء

وعسليّة. والدته ريحانة المولودة سنة 1905، أطول من والده محمد أمين، وجسمها أكثر امتلاءً من جسمه. وجهها الصبوح الأبيض المائل للوردي، وهي في التاسعة والأربعين من عمرها، يبدو كرغيف الخبز الطازج المحمّر الخارج من التنور توّاً. تضع على رأسها حجاباً من الكتّان الأبيض الرقيق، المطرّز الحواف بالخرز الناعم الملوّن. وترتدي فساتيناً، كفساتين النسوة الكرديات في دياربكر، فوقها سترة مشغولة من الصوف، بدون أكمام.

لاوند هو الابن قبل الأخير في العائلة، يكبره ثلاثة إخوة وأخت. ويصغره أخ وأخت أيضاً. تزوّجت أمّه في الرابعة عشرة، بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى بسنة، وكان والده وقتذاك في السادسة عشرة. أنجبت أمه عشرة أطفال، مات ثلاثة منهم بسبب أمراض الحصبة والجدري المصحوب بالإسهال الحادّ. وقتذاك كانت تركيا تخوض حربين، خارجية مع ألمانيا والنمسا والمجر، وحرباً داخلية على رعاياها من الأرمن والسريان، وخرجت من الحرب الخارجية مهزومة، وأرادت تعويض الهزيمة بشنّ حرب داخلية على مواطنيها ورعاياها المسيحيين. بعدها دخلت تركيا في حرب ضد مواطنيها الأكراد أيضاً وسحقت انتفاضاتهم. في الحروب التركية هذه، خسرت عائلة محمد أمين أصلان أوغلو الكثير من أبنائها. فتزوّج والد لاوند من امرأة أخرى، أنجب منها خمسة أطفال. وكان يريد الزواج من امرأة ثالثة، بهدف إنجاب المزيد من الأولاد، لأنه كان ميسور الحال، لديه أراضٍ زراعية، ودكّان لبيع الأقمشة في سوق دياربكر القديم، تمّ نهبه وحرقه من قبل الجنود الأتراك الذين قمعوا ثورة الشيخ سعيد بيران سنة 1925. لكنه أعاد فتحه مجدداً.

قبيل توجّهه إلى الجامع لأداء صلاة الجمعة، جلس محمد أمين مع زوجته وقال لها:

- حلمت اليوم أن لاوند عائد. يرتدي ثياباً جميلة، ويحمل حقيبة، مثل الحقيبة التي يحملها المفتشون الموظفون الرسميون في الدولة. كان وجهه مبتسماً، وتفوح منه رائحة المسك. طلب مني أن أخبرك بأنه عائد وأنه مشتاق لك. واستيقظت على صوت المؤذّن ينادي لصلاة الفجر، قاطعاً عليّ الحلم.

اختلق محمد أمين هذا الحلم كي يمهّد للحديث معها على أن ابنها عائد، وأن السلطات في مخفر الجندرمة أخبروه بذلك. سال دمعها رقراقاً حزناً وكمداً على موت ابنها. وبعد مسحها لدموعها بوشاح الكتّان الأبيض الذي تضعه على رأسها، انقبض قلب الأمّ ثم تسرّع خفقانه من الألم. وقالت له:

- إنه حلم. مجرّد حلم. اللّهم اجعله خيراً.

- «هذا لم يعد حلماً. سيصبح حقيقةً عما قريب». قالها بصوتٍ مترع بالأمل والثقة والفرح. ثم أردف: «هكذا قال لي الضابط في المخفر».

- هل جننت؟! استغفر ربّك. هل الموتى يعودون للحياة؟! أنت تمزح. أليس كذلك؟!

- لا أبداً. هذه هي الحقيقة. لاوند لم يمت. سيعود لنا. لقد عثروا عليه في قوريا.

قلب حرف الكاف إلى القاف، لأن الأكراد في تركيا غالباً ما يقلبون الكاف قافاً. «فتشي له عن عروس كي تزوّجيه، بعد وصوله

بالسلامة إلى بيته»، قالها محمد أمين وهو يغلق باب الدار خلفه، بفرحٍ غامر.

لم تسع الدنيا فرحة الأمّ، وكاد يغمى عليها. ولم تعد تعرف ماذا تفعل. أتت بسجّادة الصلاة، واتجهت نحو القبلة وصارت تصلّي، والدمع لا يغادر عينيها. خامرها الظنّ والشكّ مرّة أخرى. طال انتظارها لحين عودة زوجها من الجامع لتناول الغداء. وبعد عودته، حملت ريحانة مصحفاً واتجهت نحوه وقالت له: احلف بأنك لا تمزح، وأن لاوند عائد. احلف.

- هل جننتِ!! ألا تصدقينني؟!! ولماذا أكذب عليك؟! هو ابني كما هو ابنكِ. إنه عائد. هذا ما أخبرني به الضابط. ولماذا يكذب عليّ؟! لماذا؟! أنا مثلكِ، لم أصدّق الخبر في البداية. لكنه أكّد لي ذلك. لم يخبرني بتاريخ عودته. وقال لي شيئاً واحداً فقط، يجب أن تعرفيه، وتتعاملي معه على هذا النحو.

- ما هو؟

- لاوند لا يتذكر شيئاً. لا يعرف شيئاً عن أهله. فقد ذاكرته. ولكن الضابط قال: ستعود ذاكرته له، حين يعود إلى البيت والأهل. ربما يستغرق الأمر بعض الوقت. ولكن سيشفى وتعود له الذاكرة.

لم تفهم ريحانة ما يقصده زوجها. وعاودت السؤال: تقصد أنه سليم. لا يوجد في جسده أية مشكلة؟

- لا. لا.. جسده سليم. مشكلته في الذاكرة. هو لا يعرفنا. لا يعرف أسماءنا. لا يعرف أنه عاش هنا، في هذا البيت. وأن له إخوة. لكن الضابط قال: هذه مرحلة مؤقتة، وستزول. ويجب ألّا نتفاجأ بذلك.

– الحمد للّه، نحمده ونشكره. طالما جسده سليم، ولا يوجد أيّة مشكلة فيه، هذا هو المهم. أما ذاكرته، فسوف تعود بإذن اللّه. المهم أنه عاد إلى الحياة، بعد أن قالوا لنا إنه مات. وأقمنا له عزاءً.

صباح 18 ديسمبر/كانون الأول 1953، غادر لاوند على متن طائرة أمريكيّة من مطار «جيمبو» الكوري، غرب «سيول»، اتجهت نحو مطار «كاي تاك» في هونغ كونغ. استغرقت الرحلة نحو ثلاث ساعات ونصف. ومنه إلى مطار «بانكوك» في تايلاند. وأيضاً أخذت الرحلة 3 ساعات. ثم اتجه نحو مطار دلهي في الهند، واستغرقت الرحلة 4 ساعات وربعاً. ومن هناك إلى مطار «مهرباد» في طهران، واستغرقت الرحلة ساعتين ونصفاً. المحطة الأخيرة له كانت مطار أتاتورك في اسطنبول. واستغرقت الرحلة ساعتين. ما يعني أن لاوند بقي معلقاً في السماء لما يزيد على 15 ساعة. ومع حساب فترات الانتظار في ثلاثة مطارات: تايلاند، الهند وإيران، الرحلة التي قطعها آلفونس دو سخيبّر من بلجيكا إلى كوريا في شهر ونصف على متن سفينة حربيّة، قطعها لاوند من كوريا إلى تركيا في يوم ونصف، بحيث حطت طائرته في مطار اسطنبول في مساء 20 ديسمبر/كانون الأول 1953. وهذه كانت أوّل مرّة يركب فيها لاوند الطائرة. لم يكن وحده في هذه الرحلة بل كان بصحبته ضابط في المخابرات التركية اسمه أوكتاي أوزتورك من أنقرة. لم يكن يعرف لغة غير اللغة التركيّة، ويكره تعلّم لغة أخرى غير لغته الأم. كان تعامله مع لاوند، تعامل الضابط مع الجندي، عبر الأمر والنهي والعصبيّة والاستعلاء. ولم يكترث أنه فاقد الذاكرة، رغم علمه بذلك. كان يكرر له بالتركيّة: «جيّد جداً أنك فقدت الذاكرة كي تنسى أنك من دياربكر.

تلك المنطقة البشعة والمتخلّفة من تركيا». لاوند لم يكن يفهم ما يقوله الضابط. ولكن، غالباً ما تبادر إلى ذهنه سؤال: «لماذا يتعامل معي هذا الرجل بعصبية وتجهّم وكأنني سرقت دجاجته؟! أو اعتديت على أمّه؟!». لم يكن يدري أنه ضابط أمني مكلّف بمرافقته مكرهاً وليس طوعاً.

استخرجت السلطات التركيّة للجندي لاوند ورقة تسهيل عبور من المطارات، مختومة من الخارجيّة التركيّة ومن السفير التركي في نيودلهي؛ نومان طاهر سيمان. بينما الضابط أوكتاي أوزتورك يحمل جواز سفر دبلوماسياً، على أنه يتبع السفارة التركية في الهند. لكنه ضابط استخبارات عسكريّة، جاء إلى كوريا الجنوبية مع القطعة العسكريّة التركيّة التي شاركت في الحرب.

منظر الطائرة وهي تزمجرُ رابضةً على المدرج أثار الرهبة في نفس لاوند. إذ غالباً ما تعرّف على الطائرات وهي في السماء، تقذف القنابل وحمم الموت على النازحين. لم يخطر في باله قط أنه سيأتي اليوم الذي يمتطي فيه هذا الطائر الحديدي الوحشي القاتل. ولكنه في المطار، أدرك الفروق بين شكل الطائرة المدنيّة والطائرة العسكريّة. ومع ذلك، انتابه القلق والخوف والرهبة، وهو يصعد السلّم. كان مقعده في وسط الطائرة، إلى الجانب الأيسر، وبالقرب من النافذة. وما إن بدأت الطائرة بالحركة والمسيرة وارتفاع هديرها وزيادة الارتجاج حتى شعر لاوند وكأنّ هذا الكائن الحديدي العملاق، يحضّرُ نفسه للانفجار. ومع ارتفاع الطائرة عن الأرض، شعرَ بانعدام الوزن، وأن هناك من يشدّه إلى الأسفل والوراء في آن. راعه منظر الصعود إلى السماء، وكيف أن الأشياء تصغر تباعاً، حتى

تبدو كالحشرات. وخطر في باله أن قادة الطائرة العسكريّة الأمريكيّة التي كانت تقصف النازحين بالقنابل، كانت تتراءى لهم حشود وقوافلِ البشر النازحين على أنهم مجرّد حشرات، لا مناص من إبادتهم. وبعد استقرار الطائرة في السماء وتحليقها بشكل مستوٍ، على علوّ مرتفع، وامتزاجها بالغيم، شعر لاوند بشيء من الارتياح والطمأنينة، وبقليل من الفرح الطفولي، مجهول المصدر والسبب، يداعبُ قلبه. بعد مضي ساعة من التحليق، أغمض عينيه واستسلم لنعاسٍ لذيذ الوطأة، ولم يفتحهما إلا مع معاودة الطائرة زمجرتها وارتجاجها الشديد، وهي تحطّ في مطار «كاي تاك» بهونغ كونغ.

غيّرا الطائرة مرتين، في تايلاند وطهران، لتنتهي رحلة الصعود والهبوط في المطارات، حين حطت الطائرة في مطار أتاتورك. بعد النزول من الطائرة، والاتجاه نحو الحافلة ودخول مبنى المطار، لاحظ لاوند كثرة الأعلام الحمراء، لكنها تختلف عن العلم الصيني والسوفياتي والكوري الشمالي. ولاحظ كثرة صور شخص بملامح متجهّمة ونظرات حادّة، بعينين زرقاوين، وجبهة عريضةٍ، وشفتين رقيقتين، وشعرٍ مصفوف بعناية إلى الوراء، وبربطة عنق أنيقة؛ تارةً حاسر الرأس، وتارةً بقبّعة كبيرة غريبة كقبّعات الروس وشعوب القفقاس وآسيا الوسطى، أو بقبّعةٍ فرنسيّةٍ صغيرة. عَرفَ في ما بعد أنه الشخص الذي يسمّى المطار باسمه، وأنه مؤسس الدولة ورئيسها وقائدها المعظّم.

الثلوج تغطي الأبنية والشوارع والأشجار، والبردُ قارس. فورَ الانتهاءِ من التدقيق في جوازات السفر، أوقف أوكتاي سيارة أجرة وبصحبته الجندي لاوند، واتجها الى أحد مقرّات قيادة الجيش.

وبعد نظر الضابط المسؤول في ملفّ لاوند، سأل أوكتاي: «لماذا لم تفحصوا بصماته وقارنتموها مع بصمات لاوند، حتّى نتأكّد من أنه هو نفسه الجندي المفقود؟!». ارتبك أوكتاي من السؤال المفاجئ، ولم يعرف ماذا يقول. حاول التقاط أنفاسه. بالفعل، السؤال يتعلّق بإجراء بسيط وروتيني، وليس بحاجة إلى كل ذلك الذكاء. كيف فاته ذلك؟! تحجج بأنه كان يظنّ أن الأمريكيين قاموا بفحص البصمات ومطابقتها. ما أثار غضب المسؤول، فصرخ في وجهه:

- يا غبي، هذه مسؤوليتنا بالدرجة الأولى، وليست مسؤوليّة الآخرين. شخص غريب أجنبي، قيل: إنه الجندي التركي لاوند أصلان أوغلو المفقود، اعتماداً على نسبة شبه كبيرة، لكن البصمات تقطع الشك باليقين. وهذا ما لم تفعلوه.

- والحل سيدي؟ هل نعيده إلى كوريا؟!

كيف أصبحتَ ضابطاً في الاستخبارات العسكريّة؟! ولديك هذا الفائض من الغباء؟! أنصحك بافتتاح شركة لتصدير الغباء، بدلاً من العمل في السلك العسكري والأمني!! كيف نعيده؟! ومن سيقبله؟! بعد أن كتبنا للأمريكيين أننا نوافق على عودته على أنه جندينا المفقود؟! هل تريد أن نعتذر لهم عن غبائنا على أننا لم نجرِ فحص البصمات؟! كيف نعيده وقد تحملنا نفقات مجيئه من كوريا إلى تركيا، عبر هونغ كونغ ثم تايلاند فالهند وإيران؟! كيف سنعيده بعد إخبارنا أهله بأن ابنهم حيّ، وفي طريقه إليهم؟! كيف نعيده بعد أن استخرجنا له وثيقة عبور، عليها تأشيرة دخول إلى تركيا على أنه مواطن تركي!؟ لقد قضي الأمر، سنواصل هذه اللعبة الغبيّة، ونعتبر هذا الشخص مواطننا التركي، الجندي المفقود لاوند. كنّا نظن أننا

ارتحنا من كردي في تركيا؟ أتيتَ أنت لنا بكردي آخر، حتى اللّه لا يعلم من هو؟ ليحلَّ محلّ المفقود! فليذهب إلى عائلته، وليصطحبه أحد العناصر من أبناء المنطقة، ويسلمه مع ملفه إلى الثكنة العسكريّة، كي يستلمه أهله من هناك. اقطعوا لهما تذكرة القطار إلى دياربكر. وأخبروا أهله بضرورة المجيء إلى الثكنة لاستلامه.

هذه المرّة، بصحبة عنصر آخر، اتجه لاوند إلى دياربكر. جندي في الجيش اسمه مظفر كورتاي، من بلدة «شانيورت» التابعة لمحافظة ماردين، تشطرها الحدود التركية - السورية شطرين، ومظفر من الشطر التركي. اتجها أولاً إلى محطة حيدرباشا في حي «كاديكوي» المطلّ على بحر مرمرة في الجانب الآسيوي من اسطنبول، كي يستقلّا القطار. انبهر لاوند بطراز عمارة المحطّة، وبدا المبنى وكأنّه قصرٌ كبير، ربما كان يسكنه ملك أو أمير. استوقفته لوحة كُتِبَ عليها بعض المعلومات، لم يفهم اللغة التركيّة، وعرف فقط تاريخ تأسيس المحطة (1908)، لأن يون أثناء تعليمها إيّاه اللغة الكوريّة، علّمته أيضاً كيف تُكتب الأرقام في اللغات اللاتينيّة.

الجندي مظفر، استطاع بشق النفس أن يدرس حتى المرحلة الإعداديّة سنة 1952 لأن الحاجة إلى العمل وإعالة الأسرة حالت دون إكماله تعليمه. سيق إلى الجنديّة وخدم العلم مطلع 1953، وتمّ فرزه في اسطنبول، بعيداً عن مدينته وأهله وأسرته. وأن يصلَ شاب كردي إلى المرحلة الإعداديّة في تلك الفترة وضمن الظروف الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة الجد صعبة، كان يُعتبر إنجازاً كبيراً جداً. شابٌ تميل بشرته إلى السمرة، بعينين بنّيتين، وأنفٍ رفيع ومائل قليلاً. فمه صغير، يعلوه شاربٌ رقيق وخفيف، ومنفصل في

المنتصف. بعد مجيء عدنان مندريس للحكم في تركيا سنة 1950، خُفِّفَتِ الضغوط على العسكريين الذين كان محرّماً عليهم إطلاق الشوارب واللحى.

المسافة من اسطنبول إلى دياربكر تزيد على 1450 كيلومتراً، وتستغرق بالقطار بين 35 و40 ساعة، يتوقّف فيها القطار في 80 محطة تقريباً. وليس من المعقول أن يبقى مظفر صامتاً طوال الرحلة. كان مسروراً لأن جنديّاً كرديّاً سيعود إلى عائلته بعد طول فراق. ولكنه كان حزيناً أيضاً لأن هذا الجندي فقد الذاكرة، كما قال له الضابط، وكما قرأه في الملف الموجود في حوزته ضمن ظرفٍ كبير مفتوح، لأن المعلومات الواردة فيه لم تكن سريّة وخاصّة، حتى يتم ختم المظروف. حاول مظفر أن يجد مدخلاً للكلام مع صاحبه، فبدأ الكلام بحذر:

- أنا مظفر كورتاي. نحن جيران. أنت من دياربكر وأنا من ماردين. ستكون الرحلة طويلة ومتعبة. لكنها ستكون جميلة. للأسف، عمّي أيضاً كان جنديّاً في كوريا، وقتل هناك. الحروب لا ترحم. تحرق الأخضر واليابس.

نظر إليه لاوند نظرة استغراب وعدم فهم، توحي بالبلادة أيضاً. فظنّ مظفر أن صاحبه لا يفهم التركيّة، فحاول التحدّث إليه بالكرديّة. صار يلتفت حوله، قبل البدء بالحديث خافضاً صوته وكأنّه يرتكب أمراً مكروهاً محظوراً:

- آسف، لم أكن أعرف أنك لا تفهم التركيّة. أنت كردي. وربما لم تذهب إلى المدرسة أيضاً. لذا، من الطبيعي أنك لا تفهم التركيّة. لي أقارب في دياربكر. صهري من دياربكر، من عشيرة

«سوركجي». من أيّة عشيرةٍ أنت؟ أنا أتكلّم معك بصوت منخفض، لأن التكلّم بالكرديّة ممنوع ويعاقب من يتحدّث بها. أنا مثلك كردي. لا تخف منّي. ثقْ بي.

لم يلقَ مظفر أيّة إجابة أو استجابة، لكأنّه يتحدّث مع نفسه، باستثناء ارتسام ابتسامة على محيا لاوند. ابتسامة تشي بأنه سمع ما قاله صاحبه، ولكنه لم يفهمه. في ما يشبه التبادل في الكلام والمشاركة فيه، تكلّم بالكوريّة، حتّى يتأكّد صديقه من أنه ليس أصم وأبكم: «أنا آسف. لا أعرف التكلّم بالتركيّة. اسمي دان. ويُقال إن اسمي لاوند. لقد فقدت الذاكرة. لذلك اعذرني». أثارت الكلمات المبهمة، وطريقة النطق المتقطّعة، ومخارج الحروف الصوتيّة الغريبة ذات الطنين، الضحك والتعجّب لدى مظفر! واستغرب من اللغة التي تحدّث بها، وأنه لا يعرف التركيّة أو الكرديّة، وتساءل في نفسه: «كيف اسمه لاوند أصلان أوغلو؟ ومن دياربكر؟ ولا يعرف التركيّة أو الكرديّة؟! كيف سيتفاهم مع أهله؟! يبدو أنه فقد حتى ذاكرة الكلام واللغة أيضاً؟! هل يعقل ذلك؟!». بينما استغرب لاوند من تفاعل صاحبه مع كلامه، وأنه لم يقل ما يثير الضحك. لكنه أدركَ أن عدم الفهم هو السبب.

أطلق القطار صافرته المدوّية، وبدأت الأرض تميد وتنسحب من تحتهما. كانت هذه أوّل مرّة يركب فيها لاوند القطار. ذاكرة دان التي تشكّلت في كوريا، وذاكرة لاوند التي بدأت تتشكّل في تركيا، ليست لهما أيّة علاقة بذاكرة آلفونس دو سخيبّر المفقودة. تشكلت لديه قناعة في كوريا أن «من يفقد ذاكرته، يفقد نفسه أيضاً». وأحياناً أخرى، كان ينقلب على هذه القناعة، فيقول: «من يفقد ذاكرته، يجد نفسه.

الذاكرة إرث مفخخ، نرثه من آبائنا وأجدادنا، سواء على صعيد اللغة، العادات، التقاليد، المشاعر القوميّة أو الدينيّة أو الوطنيّة، الأحقاد والضغائن الشخصيّة والجماعيّة. .، كل ذلك يلقننا إيّاهُ آباؤنا وأجدادنا أو الأنظمة التي تحكمنا وتتحكم بحياتنا؛ عبر المدارس والمناهج. هذه الذاكرة لسنا وحيدين أو أصلاء في صناعتها. إنها إرث، نرِثه ونتوارثه ونورثه لأبنائنا. التعامل مع الأشياء بحياديّة وموضوعيّة تامّة وبراءة مطلقة، يستوجب التطهّر والبراءة من الذاكرة».
هكذا كان يحاول إقناع نفسه وطمأنتها بأنه في خيرٍ على ما هو فيه وعليه من فقدان الذاكرة تماماً. وأنه بريء من ماضيه المجهول بكل ما فيهِ من تراكم، ربما لا يكون حميداً وجيّداً. هذه الأفكار والخلاصات ظهرت لديه حين تعرّفَ على الجندي الياباني العجوز هينرو زاماكي، وتأثّر به وبكلامه كثيراً. هذا الافتراض عن ماضيه وذاكرته، كان يميل إلى ترجيح احتمال أن موروثه من الذاكرة المفقودة، سيّئ وسلبي. وفقدان الشيء السلبي، بالضرورة هو أمر إيجابي. هذا ما كان يظنه. ولكن تجربته القصيرة في كوريا، علّمته أيضاً أن الحياة سِفرٌ لا ينتهي من الاحتمالات. وأنه لا حياة مع اليقين، ولا يقين مع الحياة، طالما أنها قائمة على الاحتمالات. وإنْ كان هناك يقين في هذه الحياة، فهو الاحتمالات التي تعكس صيرورة الحياة.

أخرج مظفر صورة بالأبيض والأسود، من الجيب الداخلي لسترته، ونظر إليها بتمعّن. تغيّرت ملامحه، وارتسمت ابتسامة شغف وتوق على وجهه. وبعد لحظات من التأمّل والشرود، رفع الصورة إلى فمه وقبّلها. ثم أراها لصديقه لاوند. لم ينتَبْهُ خجل من إطلاعه

على شيءٍ خاصّ به، كأنّه كان يودّ أن يشاركه معرفة هذا الكنز أو السرّ الذي يعتمل قلبه. أطلق تنهيدة مليئة بالحسرة والشوق، وقال:

- إنها نسرين، ابنة عمّي، وحبيبتي. أنا موعود بالزواج منها، بعد انتهاء الخدمة العسكريّة. هي في الدرباسية، الشطر السوري من مدينتا. أنت تعرف أن الحدود اللعينة قسّمت المدن والعشائر والعوائل إلى قمسين، ووضعت بينها حقول الألغام والأسلاك الشائكة. نسرين أيضاً تحبّني. التقيت بها، قبل سنتين، بعد عبورنا الحدود، عن طريق المهرّبين. حين وقعت عيناي عليها، وتعانقت النظرات بخجلٍ واختلاس، وكأنّ عُقاباً نشب مخالبه في قلبي، شعرتُ برعشةٍ غريبة في كل كياني، هزّتني من الأعماق. نسرين تصغرني بسنتين. أنا في الأصل، ولدتُ في الدرباسية. ولكن حدث خلاف بين أبي وعمّي، لأن أختي التي تكبرني بخمسة أعوام رفضت أن تتزوج من شقيق نسرين. ولم يشأ أبي أن يجبرها على الزواج. لذا، حدث خلاف في العائلة. وكيلا يتعمّق، ويتحوّل إلى عداوة، غادرنا الدرباسية منذ عشر سنوات تقريباً، سنة 1942. كانت البلدة وقتها تحت حكم الفرنسيين. سيتوقف القطار في بلدتنا «شانيورت»، وستظهر الدرباسية واضحة من نافذة القطار، على الطرف الآخر من الحدود. لكن، يلزمنا الكثير من الوقت حتى نصل هناك. حين هاجرنا من الدرباسية إلى شانيورت، كان لدينا أقارب على الطرف التركي من الحدود، ساعدونا في الاستقرار وتأمين المنزل والحصول على الجنسيّة التركيّة. نحن من عشيرة «سوركجي». ربما سمعت بها، قسّمتها الحدود بين سوريا وتركيا. لدينا أقارب في دياربكر أيضاً. أختي التي رفضت الزواج من ابن عمّي، تزوجت من أحد أقاربنا هنا

في تركيا، وغادرت شانيورت إلى دياربكر. أعتقد أنني ذكرت لك ذلك. هناك طرائف ونوادر كثيرة تقال في حقنا وحق عشيرتنا. نحن ظرفاء. ولكننا لسنا أغبياء، كما يتم تصويرنا.

اختتم مظفر كلامه بضحكة خفيفة. ثم عاد للحديث: «سأقص عليك إحدى النوادر الشائعة التي تقال عنّا: يفترض أن أبناء العشيرة يحتفلون بزعيمهم ورئيس عشيرتهم؛ الآغا. فيقولون له، في حضوره: «الآغا، زعيمنا، يأكل الخرا، يأكل الخرا، يأكل الخرا... إنه يأكل خرا النحلة الصفراء». تصوّر، يؤكلونه الخرا ثلاث مرّات. ثم يحوّرون الكلام على أساس أنهم يقصدون العسل، وليس شيئاً آخر». في هذه الطرفة، شيء من رفض الزعامة، في إطار من السخرية.

حاول كتم ضحكته، فازداد الضغط الداخلي على جسده. لكن حركة القطار وارتجاجه جعلا من رجفان جسده أمراً يبدو عاديّاً للموجودين في القطار الناظرين إليه.

سأقصّ عليك طرفة أخرى: «أضاع رجل من عشيرتنا حماره. وكان حماراً شديد البياض. وأثناء بحثه عن الحمار، وضع يده اليمنى على جبينه مقطباً حاجبيه، ناظراً إلى البعيد، سائلاً صديقه: «ذلك الكائن الأسود الظاهر في البعيد، أليس حماري الأبيض؟!».
تصوّر يا لاوند؛ كيف يمكن للشيء الأسود البعيد، أن يكونَ حماراً أبيضَ؟!. لا يمكن أن يحدث ذلك إلّا عندنا، نحن أبناء عشيرة السوركجي».

ابتسم لاوند، ليس لأنه فَهِمَ النكتة، بل لأنه تفاعل مع ضحكة مظفر. ثم تدارك مظفر سهوتهُ عن أن لاوند لا يفهم اللغة التركيّة

والكرديّة. وقال في نفسه: «حقاً كم أنا أحمق ومن عشيرة السوركجي! كيف نسيت أنه فاقد الذاكرة، ولا يقوى على الكلام؟!». فاعتذر له عن ذلك. ولكن لاوند لم يفهم حتى الاعتذار أيضاً.

أشغلتهُ الأسئلة حول المجهول الذي ينتظره في دياربكر، وكيف سيستقبل حياته الجديدة؟ وهل كانت له حياة قديمة قضاها هناك؟ وكيف كانت؟ لكنه بدأ يتذكّر لحظاته الأولى في منزل يون، ويستعيد شريط ذكرياته في كوريا، لكأنّه على وشك طيّ هذه الصفحات إلى الأبد، وفتح صفحات جديدة مع الحياة. وسط زحمة الأسئلة هذه، رويداً شعر لاوند بتسّرب خدرٍ إلى جسده، مصحوباً برغبة شديدةٍ وثقيلة في النوم، لكأنّها رغبةُ الموشك على الموت والنوم الأبدي، ولم يستيقظ إلّا والقطار يتوقّف في المحطة المركزيّة بحي تشانكايا في أنقرة. نظر إليه مظفر بابتسامة وقال:

وصلنا إلى العاصمة. هذه أنقرة. مررنا بالقصر الرئاسي الذي يسكنه الرئيس عدنان مندريس. لم أشأ إيقاظك كي تراه. يُقال إن القصر والأرض المحيطة به كانا لتاجر أرمني. وتم وضع اليد على القصر، بعد المذابح الأرمنية. هكذا سمعتُ من بعض الناس. لا أعرف بالضبط. هذا القصر، سكنه الغازي مصطفى كمال باشا، مؤسس الجمهوريّة ورئيسها. ثم سكنه نائبه عصمت إينونو باشا. الآن، يسكنه عدنان مندريس باشا رئيس الوزراء. الحديث في هذه الأمور ممنوع. احذرْ من أن تأتي على سيرة ذلك لأحد.

ثم زاد من خفض صوته أكثر، وهمس في أذن لاوند: «تصوّر أن القصر منهوب من شخص أرمني، ربما قتل في المذابح؟!». وما إن

انتهى من تلفّظ هذه العبارة، حتى اجتاحه ندم شديد على هذا البوح القاتل. وصار يسأل نفسه عن سبب تجرُّئه على الكلام حول هذه الأمور الخطيرة لهذا الشخص المجهول؟! كيف يثق به؟ ولماذا؟! مَن يضمن ألّا يشي به أمام السلطات، فتودي به سذاجته وحماقته في الكلام إلى حبل المشنقة؟ صار يندب نفسه ويؤنّبها بشدّة: «أي غبيّ أنا. يا لي من حمار أجرب وغبي!! لقد دمّرت نفسي ومستقبلي بلساني وثرثرتي». ثم عاد وتنفّس الصعداء، لأنه تذكّر أن الرجل الذي يرافقه فاقد الذاكرة، ولا يجيد الكرديّة أو التركيّة. ولم يفهم من كلامه شيئاً، وقال: «الحمد للّه أنه فاقد الذاكرة، وفاقد القدرة على فهم اللغتين الكرديّة والتركيّة. ألفَ حمدٍ وشكرٍ لك يا ربّ. ومع ذلك، أنا غبي وأحمق. لماذا أتحدّث مع رجل لا ولن يفهم شيئاً مما أقوله له؟!».

لم تمضِ ساعتان على حفلة الندب والشجب التي أقامها مظفر بحق نفسه، حتى عاد مجدداً إلى الحديث مع لاوند، ونسي مرة أخرى أنه لا يفهمه. وبعد أن فشل لاوند في إقناع مرافقه بأنه لا يفهم شيئاً من حديثه، قرر تركه على حريّته وسجيّته، يقول ما يشاء. وشعر بأن مظفر لم يتكلّم منذ سنوات، وقد وجد جداراً يفصح له عما يجول في خاطره وخياله. جدار سيمتصّ كلامه، ولن ينقله لأحد، لأنه لا يفهم فحواه. استمرّت ثرثرات مظفر إلى حين عودة النعاس مجدداً إلى لاوند، لكأنّه جندي آتٍ من معركةٍ لم يذق فيها طعم النوم منذ أيّام. جولة النوم هذه، عززتها وفاقمتها الضوضاء والضجيج الذي كان يصدره القطار أثناء المسير. لم يشعر بعدد الساعات، لكنه فتح عينيه مع تباشير الشفق تعلن عن نفسها مع توقف القطار في

محطة ملاطية. شعر لاوند بإحساس من الطمأنينة والراحة، كالذي ينتاب المرءَ حين يقترب من مكان يألفه ويحبّه. شاهد بزوغ الشمس مع وجود سحب متفرّقة في السماء. أدخل نور الشمس الدفء إلى جسده وروحه، وغسل عنها الهمّ والكدر، وشعر بأن شروق الشمس في تركيا أجمل وأقرب إلى نفسه من شروق الشمس في كوريا.

قاما بتغيير القطار واستقلا آخر، بدا وكأنّه قطار عسكري، أو قطار شحن، فيه فارغونات قليلة للركّاب، انحدر جنوباً نحو «أورفا». وخاب أمل مظفر في أن ينحرف القطار أكثر نحو جنوب شرق باتجاه «جيلانبينار» التي تقسمها الحدود قسمين؛ «سري كانيه» في سوريا، و«جيلانبينار» في تركيا، ثم المرور بالدرباسية. إذ اتجه شمالاً نحو «حيلوان»، ثم «سيفيرك»، وانتهت الرحلة في محطة القطار في دياربكر.

مع نزولهما من عربة القطار، كانت السماء محتقنة، متلبّدة بالغيوم. دوي قصف الرعود يهزّ المكان، مع ريحٍ خفيفةٍ منعشة تنذر بقدوم طوفان من المطر، ولا وجود لشيء سوى رذاذ خفيف، يكاد يبلل الأرض. لاحظ لاوند لوحة تشير إلى افتتاح هذه المحطة سنة 1935. فلفت انتباهه ليس فقط الفروق بين نظام العمارة البدائي والشوارع في أورفا والمدن التي مرّ بها إلى حين وصوله إلى دياربكر، مقارنةً بما وجده في اسطنبول وأنقرة، بل إن الفترة الزمنية الفاصلة بين محطة حيدر باشا في اسطنبول، والمحطة الموجودة في هذه المدينة، تناهز 27 سنة!

قارب المساء على الحلول. اتجها نحو الثكنة العسكريّة القريبة من المحطّة. سلّم مظفر عهدته من الأوراق والجندي لاوند أصلان

أوغلو إلى قائد الثكنة الذي رحّب بهما، وقال: «غداً صباحاً، سيأتي أهلك لاستلامك» موجّهاً كلامه إلى لاوند. بينما سيتجه مظفر إلى بلدته كي يقضي فيها 3 أيام، ثم يعاود الالتحاق بثكنته العسكريّة في اسطنبول. أخبر مظفر الضابط المسؤول بأنه لا يفهم ما ذكره له. لأنه فاقد الذاكرة تماماً، حتى أنه نسي لغته. فردّ الضابط مندهشاً: «أيعقل أن ينسى المرء اللغة التركيّة، لغته الأم؟!». قال مظفر في سرّه: «ولكن أمّه كرديّة وليست تركيّة!». ثم ذكر جهراً: «سيّدي. لقد نسي كل اللغات؛ التركيّة والكرديّة. ولكنه الآن يتكلّم الكوريّة فقط». فضحك الضابط قليلاً وأجاب: «أنْ ينسى الكرديّة، هذا شيء جيّد. ولكن أن ينسى التكلّم بالتركيّة، فهذا مؤسف جداً له. سيستعيد التكلّم بالتركيّة. هو مجبر على ذلك. لأن الأتراك أتراك، سواء أكانوا في الجبال أو المدن أو القرى، سواء أكانوا في تركيا أو كوريا أو على سطح القمر، سيبقون أتراكاً إلى الأبد».

رغم لهجته العنصريّة في الكلام وملامح القسوة والصرامة البادية على وجه قائد الثكنة العسكريّة القريبة من محطة القطار في دياربكر، إلّا أنه أبدى الرفق واللين المشوب بالاستعلاء والغطرسة، والقليل من الأسف، تجاه حال الجندي لاوند أصلان أوغلو. خاصّة حين عرف أنه لم يفقد الذاكرة وحسب، بل القدرة على النطق باللغة التركيّة أيضاً. لم يعرف لاوند كيف قضى ليلته في الثكنة العسكريّة، وكيف ومتى واتاهُ النوم وساعده في الفكاك من الأسئلة والهواجس والأفكار التي كانت تتنازعه، لشدّة القلق والترقّب مما يخبّئه له الغد.

قبل توجّه الأب إلى استلام ابنه من الثكنة العسكريّة، أخبر أمّه وإخوته وأخواته مجدداً بأن لاوند فاقد الذاكرة؛ لا يذكر أي شيء عن

حياته السابقة، لا يذكر اسمه واسم والديه وإخوته وأخواته، لا يذكر لغته. إنه كطفل يجب أن يساعدوه على تعلّم الكلام والتعرّف على الأهل. طفل في الرابعة والعشرين من عمره. وأن هذه المرحلة مؤقتة، وسيستعيد كل ذاكرته. ولكن يجب عليهم مساعدته على ذلك. وأنه مريض، ويجب التعامل وفق ذلك، ريثما يتماثل للشفاء. وأنه سيصلّي ويقرأ القرآن ويدعو إلى اللّه أن يشفيه بسرعة. أخبرهم بكل هذه التفاصيل لئلا يبدو التذمّر والانزعاج من وضعه الحالي الذي طرأ بسبب الحرب الكوريّة. وحذّرهم من مغبّة أيّ تصرّف طائش في تعاملهم تجاهه.

وفي صبيحة يوم 25 ديسمبر/ كانون الأول 1953 حضرت جمهرة من الرجال والنساء، بصحبة الطبل والزمر، وعدّة خراف معدّة للذبح قرباناً لعودة الجندي من الموت. دخل والد لاوند إلى الثكنة بخطى ملتهبة ومتشابكة المشاعر؛ حثيثة تريد أن ينتهي الأمر بسرعة، وقلقة تخشى من المفاجآت التي يخبّئها له القدر. بصم على محضر استلام ابنه بيدٍ راعشة لأنه لم يكن يعرف الكتابة بالتركيّة. وبعدها، جيء بالجندي، وقيل له: «هذا والدك. حمداً للّه على سلامته». ورغم نسبة الشبه الكبيرة بين هذا الشخص والجندي لاوند، والتي ربما ينخدع بها الكثيرون، إلّا أن محمد أمين أصلان أوغلو عرف فوراً، ومن النظرة الأولى، أنه ليس ابنه. لكنه آثر كتم مشاعر الصدمة والمفاجأة، بحيث بدا للجميع أنه مبهور ومدهوش وواقع تحت وطأة الفرح والسعادة. بينما الأمر كان خلاف ذلك تماماً، بل كانت دهشته دهشة الخيبة وصدمتها. في تلك اللحظة، وكأنّ وحياً من السماء تنزّل عليه قائلاً له: «ارضَ بما قسمه اللّه لكَ، الذي أخذ منك ابنك،

وأعطاك بدلاً منه ابناً آخر. لا تجحد بنعمة ربّك. احمده واشكره ما استطعتَ إلى ذلك سبيلاً. ارضَ بقضاء اللّه وقدره وقِسمته لك. تعامل مع هذا الشاب على أنه ابنك. فإن استعاد ذاكرته، وتعرّف على أهله وأصله، فسيجازيك ربّك على صنيعك واعتبارك هذا الشاب ابنك. وإن لم يستعد الذاكرة، فهو البديل الذي عوّضك اللّه به عن ولدك الذي فقدته إلى الأبد». عانق محمد أمين الجندي لاوند، بحزنٍ وحرارةِ مَن التقى عزيزاً بعد فراقٍ دام دهراً. عانقهُ بلهفةٍ وتفحّص، والدمع ينهمرُ. ظنّ الموجودون وقائد الثكنة أنه عناقُ الأب الحقيقي لابنه الحقيقي، ودمعهُ دمعُ الفرح. ولكنه كان دمعَ المأزق، دمعَ محنة المكلوم وخيبته، والانكسار المخنوق المتكوم، وكأنّ ابنه مات للمرّة الثانية، وهو يعانق جثّته. لكن عناق جثث الأعزّاء على القلوب والأرواح هي للوداع الأخير، وليس للاستقبال! بذل محمد أمين قصارى جهده كي يقنع لاوند بأنه والده، وحاول أن يوصل إلى أعماقه مشاعر الأبوّة، علّه يوقظ فيه مشاعر البنوّة تجاهه وتجاه أمّه التي تنتظره في الخارج. لكن هول الخيبة أنساه مناداة الشاب باسم ولده، كما جرت العادة في هكذا لقاءات. لم يناده: «لاوند، ولدي. الحمد للّه على سلامتك». فقط، اكتفى بالعناق والبكاء والتربيت على ظهره وكتفيه.

كانت مشاعر الجندي لاوند محايدة تماماً، ولم يؤثّر فيه هذا الدفق الشديد والموجة العارمة من مشاعر والده الجيّاشة. صار يسائل نفسه؛ لماذا مشاعره بليدة إلى هذه الدرجة؟! هل هذا حقّاً والده؟! هل هذه المدينة حقّاً مدينته؟! ثمَّ، ما الذي يجبرُ رجلاً مسنّاً على الكذب وادعاء أنه والده؟! لماذا يبدو وكأنّه جثّة هامدة بين ذراعي

هذا الرجل المسنّ ودفء حنانه الغامر، الذي بإمكانه أن يوقظ في الحجرِ مشاعرَ البشر؟! وقال: «يبدو حقاً أن هناك مشكلة عويصة وكبيرة في مشاعري كابن عاق، بليد وتافه، تحولُ دون تفاعلي مع مشاعر والدي العجوز!». وحين رأى الضابط المسؤول هذا الفتور البادي على لاوند، ربت على ظهر والده وقال: «لا تقلق. لا تحزن. سيعود الأمر كما كان عليه قبل فقدانه الذاكرة».

خرجا من الثكنة وسط مظاهر الفرح والسعادة التي تغمر المكان، والأبُ ممسكٌ بذراع ولده المذهول. همَّ الرجال برمي الخراف الثلاثة أمام قدمَي لاوند ثم ذبحوها الواحد تلو الآخر، فرحاً وابتهاجاً. فاندهش أكثر لما رآه، ودخل شيء من الرهبة والخوف إلى قلبه حين شاهد منظر الدم المسفوك المتدفّق من أعناق الخراف على الأرض. ذكّره ذلك بمنظر بِرك الدماء التي تشكّلت إثر ارتكاب ذلك الجندي الأمريكي المجنون مجزرته المروّعة في «سيول». اقتربت أمّه ريحانة منه، وتأمّلته وشعرت بما شعر به زوجها على أنه ليس ابنهما. همس محمد أمين في أذنها: «اسكتي. إنه ابننا لاوند. لا تنطقي بكلمة. الحرب جعلته مختلفاً بعض الشيء. إنه ابننا. عانقيه بسرعة». قالها ضاغطاً على ذراعها. أغمضت عينيها وعانقته عناقها لابنها يوم 15 سبتمبر/ أيلول 1950 قبيل سفره إلى ميناء الاسكندرونة ومغادرته من هناك مع رفاقه بعد يومين، بقيادة العميد تحسين يازي إلى كوريا. تذكّرت صوت ابنها لاوند وابتسامته الدافئة. عانقتهُ وهيَ واثقةٌ أنه غريبٌ وليس ابنها! تذكّرت الرسالة اليتيمة التي وصلتهم منه، بعد مضي شهر على وصوله إلى ميناء بوسان في 12 أكتوبر/ تشرين الأول من العام نفسه. وقتذاك، بكت ريحانة بمرارة وحرقة،

واحتفظت بالرسالة. الآن أيضاً، تبكي بغزارة وحرقة، وفي أعماقها عويلٌ هائلٌ مكتوم، وهي تعانق شاباً على أنه ابنها، ويشبهه كثيراً، لكنه ليس ابنها. الدمع المنسكب من عينيها، أيضاً كان دمع الخيبة والإحباط والانكسار وتجديد الحزن والألم، لكأنّ لاوند مات مرّة أخرى. ذلك أنه ليس بالأمر الهيّن والبسيط أبداً؛ أن تعانقَ شخصاً، كانت تظنّه فلذة كبدها العائد من الموت، وتكتشف أنه ليس ابنها، ثمّ تواصل مع الأقدار لعبتها ورقصتها القاتلة هذه! خاصّةً حين يكون الشخص المُعانِق أمّاً مكلومة، والمُعانَق شخصاً غريباً يشبه ابنها المفقود - الميّت!

لم تدقق جمهرة الحضور في مدى مطابقة تفاصيل هذا الجندي مع تفاصيل لاوند أصلان أوغلو. المفاجأة والفرحة حالتا دون محاولة الفرز بين الشك واليقين حيال حقيقة هذا الشخص، أهو لاوند؟ أم لا؟ شكر محمد أمين قائد الثكنة والجيش التركي والحكومة ورئيسها عدنان مندريس على هذه الخدمة الكبيرة التي قدموها له، بأن أعادوا إليه ابنه لاوند. ثم شكر الجمهرة التي شاركته فرحتهُ في استقبال ابنه، وطلب توزيع اللحم على الفقراء كصدقة لوجه اللّه. ثمّ اتجه وزوجته وأولاده والجندي المفترض أنه نجله لاوند إلى الدار. كانت أمه مطأطأةَ الرأس تحاولُ إخفاءَ دموعها، وتمسحها بشال الكتّان الأبيض الذي تغطّي بهِ رأسها. وصلوا إلى المنزل، لم تقوَ الأمّ على إطلاق الزغاريد بعودةِ الابن تعبيراً عن فرحتها. لكن أخواتِهِ البنات قمن بذلك. مظاهر البهجة والاحتفاء والفرح، أدخلت السرورَ والطمأنينة والثقة إلى قلب لاوند، وجعلته يبتسم ويتبدد توجّسه وتزول آثار دهشته قليلاً، من دون أن تحلّ الثقة التامّة محلَّ

التوجّس والمساءلات الداخليّة على أنه ابن هذه العائلة، ابن هذه البلد أم لا؟ ومع ذلك، شعر بشيء من الغبطة، حين رأى أن كل هذا المهرجان أو الاحتفال هو بسبب قدومه وعودته لبيتهِ وأسرتهِ، أو ما يفترض أنهما بيتهُ وأسرتهُ.

بعد انفضاض الضيوف والأهل والأقارب والجيران، وبقاء أفراد أسرة محمد أمين وحدهم، التفّ الجميع حول طعام العشاء المفروش على الأرض، بحيث جلس لاوند بين والديه وصار يراقب إخوته كيف يأكلون بأيديهم، وكيف يسكبون الشاي من الإبريق في الكؤوس الصغيرة، ويضعون فيها معالق السكر ثم يحركونها. وكيف يأكلون الجبن بالأيدي. ويدهنون لقمة الخبز بالزبدة ثم يغمسونها في دبس العنب. وكيف يضعون قطع البيض المقلي على لقمة الخبز بيد واحدة ويرفعونها إلى أفواههم. وكيف يلتقطون حبّات الزيتون بالأيدي، ثم يستخرجون نواها من أفواههم، ويضعونها على قطعة القماش التي وضعوا عليها سفرة الأكل الكبيرة، كأنّها طاولة مستديرة من دون أرجل. حاولت الأمّ مساعدته. وصار هو يقلّد حركات الإخوة اثناء الأكل. وفي كل مرّة، يشعر بمذاق لذيذ ورائع لأصناف الأكل الموجودة أمامه وكأنّه يتعرّف عليها توّاً. فما أكله في كوريا يختلف تماماً عما يتناوله الآن في دياربكر. شعر بمتعة شديدة أثناء الأكل، وعبّر عن ذلك عبر الملامح وإبداء صوت «أممم، رائع. لذيذ جدّاً» قالها باللغة الكوريّة. حاول الإخوة كتم ضحكاتهم نتيجة طريقة كلامه. لكنهم عرفوا أنها اللغة الكوريّة. وصار إخوته يعلّمونه أسماء ما هو موجود في طعام العشاء، ويطلبون منه أن يكررها. ففهم ذلك وفعلها. وأثناء تكراره للكلمات الكرديّة، شعر الأب والأم بشيء من

السعادة الممزوجة بالأسى على حال الشاب الذي يتعلّم النطق مجدداً. بعد ذلك ذهب الجميع للنوم.

الوالدان في غرفتهما. أفرد محمد أمين سجّادة الصلاة، ثم صلّى العِشاء، ثمَّ صلّى أربع ركعات أخرى، وجلس حاملاً القرآن وقرأ آية «الكرسي» وبضع آياتٍ أخرى من سورة البقرة. بعد انتهائه من الشكر والحمد والدعاء، كانت ريحانة أيضاً انتهت من صلاة العشاء. فسألها هل صلّت أربع ركعات حمداً وشكراً للّه على نعمته بأن أرجع لهم ابنهم لاوند. فأجابت بأنها فعلت ذلك. وأردفت: «لكنه ليس ابننا». وغالبها الدمع مجدداً. حاول محمد أمين التخفيف عنها وإقناعها بضرورة التعامل مع قضاء اللّه وقدره، وأن ما كتبه اللّه لهم من قسمة ونصيب، «لا رادّ له، ولا بطلان فيه، ولا اعتراضَ عليه. هو العليم الخبير، القادرُ على كل شيء، أن يقول للشيء كن فيكون». ثم أضاف، بعد برهة صمت، ومسحه لدمعة حارّة ذرفتها عيناه أيضاً:

- هذه الدنيا امتحان. امتحانٌ لنا ولإيماننا باللّه وقضائه وقَدَره. ما قدّره لنا سيكون، ولا محيد عنه. صحيح أن هذا الشباب ليس ابننا، لكن اللّه وقضاءه وقدره، رمى به في طريقنا، فهل ندير ظهرنا له، ولإرادة اللّه تعالى؟! حاشى وكلّا أن نفعل ذلك. إنه يشبه ابننا كثيراً، من حيث الشكل والهيئة. هو أيضاً كابننا لاوند، ذهب إلى حربٍ بعيدة، وله أمّ وأب وإخوة ينتظرونه في مكان ما في هذا العالم. تماماً مثلنا، حين كنّا ننتظر عودة لاوند من الحرب، فجاءنا خبر مقتله، من دون أن نحصل حتى على جثّته! لا نعرف عن جثّته شيئاً؛ هل أكلتها الوحوش؟ هل صارت مزقاً متناثرة؟ هل دُفِنت

عظامه أم لا؟! أين نحن؟ وأين «قوريا - كوريا»؟! تصوّري، لو أن ابننا لاوند لم يمت في تلك الحرب، وما زال حيّاً، لكنه فقد الذاكرة هو أيضاً، وذهب إلى بلد آخر، كأنْ يذهب إلى بلد هذا الشاب المسكين مثلاً، ورفضت أسرتهُ استقبال ابننا، وتعاملت معه كغريب، وليس كمريض وضحيّة من ضحايا الحرب، ماذا سيكون موقفي وموقفك من تلك الأسرة؟! ألن يكون موقفاً ساخطاً وناقماً ولاعناً على ذلك السلوك غير الإنساني لتلك العائلة مع ابننا؟! لقد حباك اللّه بما لم يحِبْه امرأةً أخرى، بأن أخذ منها فلذة كبدها، ثم أعاد لها ما يعوّضها عن ذلك. هذه لم تحدث مع الأنبياء والصالحين. هذه لم تحدث على وجه الخليقة مع أحد من بني البشر. فاحمدي اللّه على نعمته واشكريه شكراً لا حدود له. لقد أراد اللّه لهذا الشاب أن يكون ابننا، وأراد لنا أن نكون والديه وأهله وإخوته. فبأي حقّ يمكننا الاعتراض على حكم اللّه وحِكمته التي لا يعلم بها أحد غيره، سبحانه وتعالى؟! هذا الشخص يحمل هيئة وشكل ابننا. وبإمكاننا أن نشعره بأنه حقاً ابننا. وفي حال عادت له الذاكرة، وعرف هويّته وأهله، نكون بذلك ساعدناه وأنقذناه. ولن ينسى اللّه لكِ هذا الفضل العظيم. وإذا لم يستعد ذاكرته، فها هو يحاول أن يشكّل ذاكرة جديدة على أنه ابننا. نحن لا نعرف دينه ومذهبه، سواء أكان مسلماً أو مسيحيّاً أو يهوديّاً، ولا نعرف أصله وفصله؛ أهو عربيٌّ أم فارسيٌّ أم أرمنيٌّ. . .؟ لذا، فهو ابننا، إلى أن يظهر اللّه حُكمه النهائي، ويقضي أمره. فلا يعلم الغيب إلا هو، سبحانه. ولا حرج علينا إذا أدخلناه الإسلام؛ يأكل مما نأكل، ويلبس مما نلبس. ويعلمُ اللّه ورسوله أنه لا إكراه في ذلك. وبما أن الدولة أعلنت أنه ابننا لاوند، وعرف

جميع الأهل أنه ابننا، فإذا أخبرناه وأخبرنا الدولة والناس بأنه ليس ابننا، ماذا سنستفيد غير أننا نُدخل هذا الإنسان في متاهة ودوّامة الضياع، ونعيد إليه الألم والحزن أضعافاً مضعّفةً. لقد أرسل لك اللّه هديّة من السماء بأن عوّضك على فقدانك لابنك، ورزقك بطفل في الرابعة والعشرين من عمره، فاشكري ربّكِ واحمديه. إنه طفل يتعلّم الكلام وأصول الحياة والدين والعلاقة مع الناس من جديد، فساعديه على ذلك. ساعديه. وسينجح في أن يكون ابننا إذا ساعدناه ووقفنا إلى جانبه. هل تفهمين ما أقوله لك؟ هل تفهمين؟

- أفهم ما تقصده. أفهم. معك حق في كل ما قلتهُ. إنه ابني. ابني الذي عاد من الموت. والموت لا يعيد أحد. لكنه أعاد لي ابني. إنها إرادة اللّه. ونِعم باللّه، أشكره وأحمده على نعمته هذه. لقد أراد اللّه لي أن أكون أمّه، فسأكون. ألف حمد وشكر لك يا رب العالمين. ألف حمد وشكر لك.

أدخل كلام ريحانة في قلب زوجها الطمأنينة والأمان والمزيد من الثقة والحب تجاهها. بينما لم يعرف لاوند كيف استرقه النعاس من لحظات الشعور بالراحة والإحساس بالأمان والوجود والانتماء إلى عالم جديد بدأت تتشكّل ملامحهُ وذاكرته لديه. ولم يستيقظ إلّا على صوت أمه ريحانة وهي تقبّل جبينه، وتناديه لتناول الفطور. ذلك أن والده خصص له غرفة كيلا يزعجه أحد. وبعد مضي شهرين، وتعلّمه بعض العبارات والجمل القصيرة الكرديّة، والتركيّة أيضاً، قرر والده تعليمه قراءة القرآن، بعد أن اختلى به، ولقّنه الشهادتين، وتكرار لاوند الكلام وراء والده. ولكن الأب نفسه، شأنه شأنُ الكثيرين من الكرد الذين يقرأون القرآن، ولا يفهمون

معانيه. نسبة الشبه الكبيرة بين لاوند الحقيقي والافتراضي لم تقتصر على الشكل والطول والوزن، بل في نبرة الصوت أيضاً، ما ساعد أمّه في تعاملها معه على أنه ابنها. كان لاوند مجبراً على تعلّم ثلاث لغات: الكرديّة، وهي لغته الأمّ، لكنها شبه سريّة، وممنوع التحدّث بها في الدوائر الحكوميّة والمؤسسات الرسميّة. واللغة التركيّة، لغة الدولة والسلطة والحكومة والمؤسسات. ولغة الدين والصلاة والقرآن. ورغم أن ذلك شكّل ضغطاً على لاوند، إلّا أنه أبدى تفاعلاً سريعاً واستجابة كبيرة لتعلّمها. وهكذا، أصبح لاوند الطفل الكبير المدلل في الأسرة، وسطَ الاهتمام والحب الذي يغمرهُ. ولكنه لم يكتشف أبداً تلك المشاعر، على صدقيتها، وأنها كانت ممزوجة بالشفقة على حاله. رويداً، بدأ يتراجع الإحساس بالغربة الذي شعرت به ريحانة تجاه ابنها الجديد. وصارت متعلّقة به كأنه آخر أولادها وأصغرهم سنّاً. كذلك لم يشعر إخوته بمشاعر سلبيّة تجاهه، أو أي شيء يشككهم أنه ليس أخاهم لاوند. وبعد مضي ستة أشهر، صار يتكلّم معهم بالكرديّة العاميّة الدارجة بين أفراد العائلة وفي دياربكر. وقرر تعلّم التركيّة أيضاً، لأنها لغة العمل والتعاملات الرسميّة. وصار يرافق والده في الذهاب إلى صلاة الجمعة. حفظ عن ظهر قلب بعض السور القرآنيّة القصيرة المستخدمة في الصلاة. وبعد مرور سنة على وجوده في دياربكر، بدأ لاوند الذهاب إلى الجامع لتعلّم قراءة القرآن. وختم «جزء عم» من القرآن، إلا أنه لم يكن يفهم معنى ذلك الكلام، غيرَ أنه كلامُ اللّه، ومقدّس، يدعو إلى الخير، وينهى عن الشرّ، ويعدُ الأخيارَ بالثواب والجنّة، والأشرارَ بالعقاب والجحيم.

وسط أجواء الاهتمام والحبّ الأسري، لم يشعر لاوند بالزمن. ومع حلول شهر فبراير/شباط 1955، طلب محمد أمين من زوجته أن تبحث لابنهما عن عروس. فلم تجد ريحانة أفضل وأجمل من ابنة شقيقها، غزالة التي كانت قد وضعت عينيها عليها للاوند الحقيقي، وفاتحت أمّها بخصوص ذلك في حينه؛ أنهُ فور عودة لاوند من حرب كوريا، سيطلبون غزالة لابنهم. وها هو عاد، ومضى على ذلك أكثر من سنة ونيّف. تحدّثت ريحانة مع شقيقها وزوجته؛ أن السبب في التأخير هو مرضه وفقدانه الذاكرة. وقد استعادها. وهو الآن يعاون والده في دكان بيع الأقمشة. وصار جاهزاً للزواج.

فاتح محمد أمين ابنه بالأمر، وأن أمّه اختارت له عروساً، هي اسمٌ على مسمّى؛ ابنة خاله معصوم؛ غزالة. وأنهم اتفقوا على أن يكون الزواج في 21 مارس/آذار، يوم ميلادِهِ. صمت لاوند، ولم يعرف ما يجيب والده به. قفزت صورة يون الكوريّة إلى ذاكرته فجأةً. وانتابته حالة من الصمت المشوب بالشرود الذهني، اعتبرها والده خجلاً من الإجابة، وصمتاً يفصح عن الموافقة والقبول. وبعد أن كرر والده السؤال: «ما قولك؟»، هزّ رأسه بالموافقة والخجل، وأن الرأي رأيه ورأي والدته.

فقدانه الذاكرة، خلق لديه هاجس تشكيل ذاكرة بديلة. ذاكرة، بدأت حين فتح عينيه فرأى وجه يون الكوريّة، وصارت تتشكّل تباعاً؛ يوماً إثر آخر في كوريا. وها هي تزداد عمارة هذه الذاكرة في دياربكر أيضاً، ويعلو ويقوى بنيانها. الرغبة في تجاوز مشاعر اللاانتماء، والظروف والأسباب التي هيّأتها له عائلة أصلان أوغلو، خلقت لديه حافزاً قويّاً للتأقلم. والتأقلم هو الخطوة الأولى للانتماء. والذاكرة

في أحد أوجهها، انتماء، أو انتماءات لأشياء متعددة ومختلفة، تتقاطع في مكان وزمان معيّن. لم تكن هناك أسباب تعرقل هذا التأقلم والانتماء. وبقيت أسباب الارتداد للماضي شبه معدومة لديه. ربما لأنه كان يشعر بأن الارتداد لذاكرة الماضي، للذاكرة الأولى، سيكون قنبلة تنسف عمارة ذاكرته البديلة التي حلّت محلّ ذاكرته الحقيقيّة المفقودة، وما شاهده وعاناه في كوريا، قبل ذلك الانفجار الذي أودى بكل ذاكرته.

اتفقت العائلتان أن تكون الخطبة وعقد القران في الجمعة الأولى من مارس/آذار 1955، ويوم الزفاف في الـ 21 من الشهر نفسه. وكان عرساً مهيباً بدأ في العشرين من الشهر، وانتهى في مساء الحادي والعشرين، استمرّت فيه مظاهر الاحتفال والغناء والرقص والمآدب. اتّجه موكب العريس راجلاً مصحوباً بالطبل والزمر من منزل محمد أمين في شارع غازي، قريباً من جامع النبي، نحو باب «داغ كابي»، أحد أبواب دياربكر القديمة، وسلك الموكب شارع إينونو حتى نهايته باتجاه باب أورفا الموجود أيضاً في سور دياربكر العظيم، الذي يعتبر ثاني أكبر سور في التاريخ بعد سور الصين. العريس ممتطيّاً صهوة حصان مزركش ومزيّن بالألوان، كلما اقترب موكبه من بيت العروس، انضم إليه رجال ونساء وأطفال جدد، بحيث غصّ الشارع بالحشد. خاصّة أن محمد أمين أصلان أوغلو يتمتّع بسمعة اجتماعيّة وسيرة عطرة بين أبناء المدينة، وقصّة ابنه لاوند العائد من الموت، والحرب الكوريّة، على كل لسان. شيء آخر جعل موكب العرس حدثاً استثنائيّاً في المدينة، أنه صادف عيد النوروز الكردي، الممنوع والمحظور من قبل السلطات التركيّة.

صحيح أن جعل العرس يصادف مناسبة قوميّة لم تكن في ذهن والدي لاوند، لكن الناس استثمروا ذلك احتفالاً بالعريس والنوروز معاً. حتّى أن البعض أثار شائعة بأن والد لاوند تعمّد أن يكون العرس في هذا التاريخ. وأنه يدلّ ويؤكد على الحسّ القومي الكردي لديه. خاصّةً أن شقيقه الحاج نظام الدين أصلان أوغلو كان من ضمن قادة انتفاضة الشيخ سعيد بيران سنة 1925 على مصطفى كمال أتاتورك، وتمّ اعتقاله، وأودع السجن، وقضى تحت التعذيب، بعد إعدام الشيخ سعيد بأربع سنوات، وفي السنة نفسها التي ولد فيها لاوند. ولكن، كل هذه الافتراضات لم تكن واردة في ذهن محمد أمين أبداً. كان يريد فقط أن يصادف زواج ابنه الافتراضي، تاريخ ميلاد ابنه الحقيقي. لا أكثر، ولا أقلّ. ولم يكن يعلم أن القدرة الإلهيّة وقضاء اللّه وقدره جعلت ميلاد الجندي البلجيكي آلفونس دو سخيبّر في 21/ 3/ 1929، نفسه يوم ميلاد لاوند، في مكانين بعيدين عن بعضهما آلاف الأميال؛ دياربكر على نهر دجلة، وأوستند على بحر الشمال في بلجيكا. لم يكن محمد أمين يعرف شيئاً عن لعبة الأقدار ومصادفاتها.

العريس على صهوة حصانه، لا يتسع الكون لفرحته، وهو محاط بهذا الموكب الذي يسير في شارع إينونو من «داغ كابي» شرقاً باتجاه «أورفا كابي» غرباً. هذه السعادة التي تفيض بها عيون وقلوب وأجساد الناس السائرين في الموكب، تتجاوز فرحة الاحتفال بزفاف شاب، احتراماً وحبّاً لوالده. الكثير من المشاركين في الموكب، اتخذوا من حفل الزفاف فرصة وحجّة للاحتفال بعيد النوروز أيضاً. لذا، كانت الفرحة مضاعفة.

ترجّل العريس عن صهوة حصانه، وسط الزغايد والتهليل. فحمله بعضُ الشبان على الأكتاف ودخلوا به دار العروس المكتظة بالضيوف. ثم بدأ الرقص في حوش الدار الفسيح لساعتين، ولكن العروس لم تخرج. كان هناك بعضُ الشبان لديهم مجموعة من الطلبات حتى يسمحوا للعروس بالخروج وملاقاة العريس، بحسب العادات والتقاليد الكرديّة. طلب الشبان الذين يقفون خلف الباب ويمنعون خروج العروس بـ 500 ليرة حتى يسمحوا بخروج العروس! وبعد دفع ذلك، أتى خالها كي يطالب بهديته. وغالباً ما كانت هدية الخال قطعة سلاح؛ مسدّساً. ولأن محمد أمين رجل مسالم لا يتعامل مع الأسلحة، فقد أعطى ثمن شراء مسدّس لخال العروس. وبعد الانتهاء من هذه العقبة أيضاً، فجأةً ظهرت مجموعة أخرى من الشبان تطالب بـ«كبش العازبين»، فأوتي بالكبش أيضاً. ولأن محمد أمين كان محتاطاً لكل هذه المفاجآت التي هي جزء من الأعراف والعادات والتقاليد في المدينة، مرّت هذه المطالبات على خير وسلام. فخرجت العروس راضيةً مرضية من الداخل إلى حوش الدار، بقامتها الطويلة التي تقارب 170 سنتيمتراً، مغطاة بثوب أبيض، تعلوها عباءة خمريّة اللون، مطرّزة الحواف بخيوط ذهبيّة، مطأطأة الرأس خجلاً. الغلالة التي تغطي وجهها، فشلت في إخفاء ملامح وجهها الصبوح الفاتن. أمسكَ بيدها اليمنى، وقبّل رأسها، ونفّذ ما نصحه به والده تماماً. لكنه شعر بأن صدرهُ أصبحَ سماءً، وقلبهُ سرب عصافير تزقزق. وأنه لم يعد يمتلك الطاقة على تحمّل هذا الفرح والسعادة الغامرة.

والدة العروس تبكي فرحاً، وكذلك أمّ العريس. فجأةً تذكّرت

ريحانة أن هذا الشخص ليس ابنها، لم يخرج من رحمها، وليس من صلب محمد أمين. لكنها سارعت بطرد هذه الوساوس، بأن لعنت عين الشيطان الرجيم. وعادت ريحانة كسمكةٍ سعيدة تتقافز في نهر الفرح بزواج ابنها من ابنة شقيقها.

امتطى العريس حصانه، وساعد والد العروس ابنته في الركوب خلف عريسها. بخجل وحذر أمسكت خصره برؤوس أصابعها. ولكن ما إن استدار الحصان وبدأ المسير، خشيت غزالة من السقوط، فدفعها الخوف إلى التشنّج والإمساك بثيابه. هذا المنظر أثارَ ضحك المحتفلين. فقالت لها حماتها وعمتها في آن: «لا تخجلي يا ابنتي. تشجّعي. إنه عريسكِ». فازدادت خجلاً أكثر. أغمضت عينيها، وأسندت جبهتها إلى ظهر لاوند. وبعد مضي دقائق صار الجلوس على صهوة الحصان يؤلمها. إذ لم تركب حصاناً أو حماراً في حياتها. رويداً بدأ الألم يشتدّ بين فخذيها ويضغطُ أكثر.

المسافة بين المنزلين سيراً على الأقدام لا تستغرق 20 دقيقة، وبسبب الحشد وتوقف الموكب في الشارع للرقص، زادت على الساعة والنصف، والعروس فوق الحصان وفخذاها مفتوحان وجذعها يضغط على المنتصف. ثم إن السير البطيء للحصان كان يحرّك غزالة إلى الأمام والخلف، هذا أيضاً كان يزيد من الحساسيّة والإثارة بين فخذيها. خاصّة أنها قضت ليلة أمس مع أمها، وهي تنصحها بعدم الخوف من ليلة الدخلة، وألّا تخجل من زوجها، ولا ترتعب من منظر قضيبه منتصباً، ومن دخوله فيها. وأن الألم سيكون خفيفاً، ويحدث بعض النزف، لكن ستنسى الألم وتشعر بالمتعة والحاجة إلى المزيد لاحقاً. «هذه الحالة، أنا أيضاً مررتُ بها،

وستمرّ بها كل النسوة، حتى يوم القيامة» قالت لها أمّها. ولكنها ذكرت لأمها ما قالته صديقتها لها، في ليلة دخلتها:

- لكن، يا أمّي، ذكرت لي صديقتي شيرين أنها كانت مرعوبة. وشعرت بألم شديد، لم يبارحها عدّة أيّام. ونزفت كثيراً. وأن قضيب زوجها كان كبيراً. وأنه عاملها بقسوة.

- يبدو أن زوجها كان كالثور الهائج. أما لاوند فيبدو هادئاً ورزيناً. كلما ازداد لديك الخوف من الأمر، ازدادَ الألم أيضاً. كوني مسترخيّة، لأن التشنّج يزيد صعوبة الإدخال، فيحدث الألم. ومثلما النساء ليست متشابهات، كذلك الرجال.

نصح محمد أمين ابنه بآداب ليلة الدخلة، وأنّ عليه أن يصلّي ركعتين. وألّا يخجل من زوجته، ويعاملها بلطف وحنان، ويداعبها حتى تصبح جاهزة للدخول والإيلاج. فقال له لاوند إنه يعرف هذه الأشياء، وإنه لا خوف عليه من هذه الليلة. استغرب والده من كلامه، وسأله «كيف؟ وأين؟ ومَن علّمك ذلك؟». أجابه: «في كوريا. الفتاة يون التي أنقذتني وكنت عندها، علّمتني كل هذه الأشياء». شعر الأب بشيء من الامتعاض والغضب على أن ولده مارس الزنى، في ما مضى. ولكنه عاد واستغفر ربّه لابنِهِ ولنفسِهِ. وإن ما قام به ولده، كان تحت تأثير فقدان الذاكرة والدين وأخلاقه. أعطته أمّه منديلاً أبيض، ونصحته بأن يمسح به الدم المنساب من فرج غزالة. ولم تخبره السبب.

وصل موكب العروسين إلى نهايته. ساعد محمد أمين عروس ابنه على النزول، ثم نزل العريس. ارتبكت غزالة في مشيتها من الألم والتشنّج الموجود في فخذيها، ثم استعادت توازنها. خُصِّصت

للعروسين منصّة في الحوش؛ كرسيّان، خلفهما سجّادة عليها رسمة الكعبة والحرم المكّي، علّقت على الحائط. جلس العروسان في مكانهما، ثم رفع لاوند الغلالة عن وجه عروسه مع إطلاق الزغاريد والتسبيح؛ «سبحان اللّه... ما شاء اللّه.. اللّهم صلِّ وسلّم على سيدنا محمد». ذلك أن وجهها كان ساحراً فاتناً، يحيط به شعرها الكستنائي اللون كإحاطة ليلٍ مبهرٍ منيرٍ بالقمر. عيناها خضراوان واسعتان كحقلَي قمحٍ يانعين في مطلع شهر مايو/أيّار. أنف دقيق مرفوع للأعلى كمنقار حمامة. فمٌ متوسّط الحجم، وشفتان ممتلئتان شهيّتان، كوردِ الرمّان. بشرة رخاميّة ناصعة البياض. لكأنّها حوريّة من حوريّات الجنّة. كل هذا الفيض من السحر والجمال سيكون في متناول لاوند هذه الليلة. إنها ليلة القدر، ولا ريب. القدر الذي أخذه من بلاده إلى كوريا، وأفقده الذاكرة هناك، ومنحه حبّ وحنان الكوريّة يون. ثم أتى به إلى دياربكر، وضمّه إلى عالم آخر، وأسرة أخرى، صارت أسرته.

قلبه يخفق بشدّة. ولا يعرف متى يحلّ المساء كي يبدأ التهام كل هذه الثمار والكنوز التي منحها اللّه له من حيث لم يحتسب. ومضت السويعات لكأنّها أيّام، وحصل ما تمنّاه. انفض الحفل، وعاد الجميع إلى بيوتهم. وبقيت أم العروس في بيت لاوند، رفقة ابنتها لمدّة أسبوع. هكذا قضت العادات والتقاليد. أغلِق الباب على العروسين. وخيّم صمتُ الخجل الذي ينتظر فيه أحدهم أن يبادر الآخر بالكلام. حاولت كتم الرجفان الذي ينتابها مع مشاعر الخوف والخجل والقلق والرغبة أيضاً. حكايات كثيرة سردتها صديقاتها لها عن آلام فضّ البكارة، وعنف الرجال وتحوّلهم إلى ذئاب في ليلة

الدخلة. واحدة فقط، اسمها درمان، كانت تحكي قصصاً مختلفة حول تعامل الزوجة مع زوجها، وكيف تجعله يشتهيها في كل لحظة، عبر ممارسة الغنج والدلع، وأن الرجال يحبون الصوت الناعم وأن تكثر من المداعبة والتمنّع. وكلما تمنّعت بلطف وإغراء، وانسلّت كالماء من بين أصابع الرجل، أثارت جمر الشهوة لديه أكثر فأكثر. وأن الرجلَ يحبّ أن تزيد الزوجة من إطلاق تأوّهات المتعة ومطالبته بالمزيد، وهي تحته، لأن هذه التأوّهات تشعره بغبطة الفحولة التي يمتلكها.

وحين سألتها غزالة عن معرفتها بكل هذه الأمور وهي العزباء؟ أجابت، بأن لديها جارة مومس، اسمها زليخة، تسكن مع رجل، يعمل قوّاداً لها. يقول البعض إنه شقيقها، ويقول آخرون إنه زوجها. بينما تقول هي إنه حارسها الذي يعمل لديها. وهناك رواية رابعة تفيد بأنه خطفها من أذربيجان في إيران، وأتى بها إلى دياربكر، لتعمل في «كرخانتها» المشهورة، التي لا يعرف أحد تاريخ هذه «الكرخانة»، إلّا أنها مرخّصة وقديمة، يمتدّ وجودها إلى الفترة العثمانيّة. وهي مَعلمٌ مشهورٌ من معالم المدينة، شأنها شأن السور والسجن ونهر دجلة والجامع الكبير والكنائس والأديرة المسيحيّة والساناغوغ اليهودي المهجور. والد درمان كان من أحد زبائن ومدمني زليخة. وكل التفاصيل التي كان يتعلّمها والدها من هذه المومس، يأتي ويطالب زوجته بتطبيقها. ذات ليلة، وبينما كانت درمان تتلصص على والديها أثناء ممارسة الجنس، وتسترق السمع لوالدها وكيف يحدّث أمها عن فنون زليخة، وإذا بأمّها تنفجر صراخاً، وهي تقول: «كفى. أنا لست قحبة. أنا لست زليخة. وهذا البيت ليس كرخانة دياربكر. اذهب

إليها واطلب منها ما تريده». حاول والدها منع زوجته من الصراخ، وضربها، ثم ألقى بها على الفراش، وبدأ يمارس معها بعنف كأنّه يغتصبها. كان يأمرها بأن يأتيها من الدبر، أن تمارس جنساً فمويّاً، تماماً كما تفعل زليخة. وأم درمان تفعل ذلك مكرهةً، مع كتم وخنق مشاعر القرف والتقزز. ومع تكرار المشاكل، عرفت درمان من هي زليخة.

وبقيت عبارة عالقة في ذهن غزالة، قالتها درمان: «يجب أن نتعامل مع أزواجنا كأننا عاهرات، كأننا زليخة، بلا خجل وحياء. الرجال يحبّون المرأة المغناج اللعوب، ويهربون من المرأة الباردة، صاحبة الكبرياء. يجب أن نقبل كل ما يطلبونه منّا. وبإمكاننا إركاعهم لتقبيل فروجنا، بالمكر واللين والغنج والدلال والطاعة». ومع ذلك بقيت الرهبة والرغبة متداخلة في مشاعر غزالة.

اقترب منها لاوند، وأمسك بيديها الناعمتين ورفعهما إلى فمه وقبّلهما. تلك القبلة الصغيرة الخفيفة على ظهر اليدين، أدخلت دفئاً لذيذاً إلى جسدها. قرّبها إلى صدره. وضع رؤوس أصابع يده اليمنى تحت ذقنها الناعم، ورفع وجهها الخجول الناظر للأسفل، كي تنظر إليه، وغاص في سحر عينيها كعصفور يلوذُ بحقل قمحٍ سنابلهُ ممتلئةٌ والنسائم تعبث بها، هرباً من ملاحقةِ صيّاد. حدّقتْ هي أيضاً في عينيه العسليتين اللتين تفيضان قمحاً ذهبيّاً شديد النضوج. عانقها وشدّها أكثر إلى صدره، وبدأ يفرك ظهرها برفقٍ وتأنٍّ، مع تقبيل عنقها وجيدها وذقنها وشفتيها وخلف أذنيها بخفّة وهدوء، هامساً: «أحبك». هذه الكلمة خلقت موجتَي قشعريرة اجتاحتاها باتجاهين متعاكستين، من الأعلى إلى الأسفل، ومن الأسفل إلى الأعلى،

وتلتقيان في صدرها. بدأت يده تنزل أسفل الظهر وصارت تفرك خصرها ثم وركها، وفلقة دبرها الأيسر، بينما يده اليسرى ضاغطة على نهدها الأيمن، وهي لمّا تزل مرتدية فستان الزفاف. بدأ يخلع عنها ثيابها، قطعة قطعة، كأنّه يخلع عنها الحياء والخجل ببطءٍ شديد، كأيّ شخص محترف، مرّت عليه نساء كثيرات. لم يكن لاوند ريفيّاً أو جاهلاً أبداً في تعامله مع غزالة. وكأنّ شيطاناً ما، يلهمه كيف يتعامل مع زوجته الخجولة العذراء التي لم ترَ جسد رجل عارٍ أمامها.

من اللحظات الأولى لاحتضانه لها، بدأ الانتصاب يشدُّ وتده. وما إن رفع عنها كل الثياب وبقيت بالستيان والكلسون، حتّى حملها برفق ومدّدها على الفراش الموجود على الأرض. لم ينقطع عن تقبيل جسدها، وهو يخلع ثيابه أيضاً. واصل فرك وتقبيل الفخذين والبطن ومداعبة الفرج الحليق والبظر الناتئ النافر، ثم الانسحاب. انسحابه كان يثيرها أكثر. واصل فرك النهدين ومصّ الحلمتين والضغط عليهما. انقطعت غزالة عن العالم، وصارت في عالم آخر من مشاعر اللذة والمتعة، لم تكن تشعر بها سابقاً حين كانت تداعب نهدها وبَظَرَها في حالات الاختلاء بنفسها في الحمام أو قبيل النوم. «لمسات الرجال على الجسد، على النهدين، على الفخذين على الفرج والبظر، مختلفة تماماً عن لمسات النساء». هكذا كانت تقارن بين مشاعر الأمس وأحاسيس هذة الليلة. شعر لاوند بسخونة جسدها، وتسارع ضربات قلبها، وكيف أنها باتت تتلوّى من اللذّة وطلب المزيد. وكيف تضغط على رأسه الموجود على صدرها، وتضغط على ظهره. شعر لاوند بالبلل متسرّباً من فرجها. فسحب

نفسه برفق عن جسدها، بحيث صار قضيبه يلامس بَظَرَها ويدغدغه. طلب منها أن تفتح فخذيها أكثر، ثم بلل رأس القضيب بالافرازات، وبدأ إدخاله ببطء، فانطلقت منها شهقة عظيمة، لكأنّ خنجراً ملتهباً انغرس في أحشائها، يريد تمزيقها من الداخل. شعور الألم هذا كان للحظات، أطاح به شعورُ اللذة حين بدأ يفيض ويفيض ويفيض... مع تسارع حركة لاوند. وصارت تمسك بظهره وتريد أن يضغط أكثر فأكثر. فانهارت قلاع وحصون الخوف والألم، وبدأ طوفان المتعة واللذة يغزو جسدها. لاوند أتاه القذف، ولكن لم يخرجه. إذ بقي محافظاً على انتصابه. واصل الرقص وكأنّه على صهوة حصان إلى أن أطلقت غزالة شهقتها الثانية الكبرى، شهقة السقوط من السماء العاشرة في بحر اللذة. فجأة أثناء نظره إلى وجه غزالة، انصدم وهزّه منظر وجه يون الكوريّة مبتسماً أمامه. وكأنّها هي التي تحته وليست زوجته. تراخى قضيبه بسرعة من هول المفاجأة، وانسحب للوراء قليلاً وفرك عينيه، ليتأكد أن ذلك كان وهماً. استلقى جانباً. حضن زوجته التي تكوّرت على نفسها كقنفذ، تحاول الحفاظ على تلك اللحظات. وصارت تقول في نفسها وتعاتب أمها، لأنها لم تخبرها أن المضاجعة جميلة وساحرة وممتعة لهذه الدرجة! نسي لاوند نصيحة أمه بأن يمسح الدم بتلك الخرقة البيضاء. غلبه الشرود، فغفا. بعد مضي ساعتين، تبدد خجل غزالة الريفي، واقتربت من جسد زوجها العاري، وصارت تلامسه وتقبّله وتتشمم رائحة عرقه، وتداعب شعر صدره وبطنه وعانته. استيقظ لاوند، فبادلها الحركات والمداعبات. واشتعل الفراش مجدداً، وتعانقت انتفاضتا الذكورة والأنوثة في ليلة القدر هذه. ولكن، غزالة أتتها الرعشة قبل أن يقذف

زوجها الذي طال معه الأمر، ثم قذف. وهكذا، حتّى الصباح، دخل لاوند وغزالة حلبات الحبّ، أربع مرّات، وخرجا منها منتصرَين. ومع ذلك، شعر لاوند أن الحزن سريع الاستجابة، إذا ما ناداه أحدهم. بينما الفرح، شديد العناد والتكبّر والتجبّر، ولا يواتي إلّا نادراً تحت ضغط وإلحاح الطلب والاستدعاء، والإصرار على مجيئه. أحياناً، وسط بحر من السعادة والفرح، يشعر المرء بالخوف من المفاجأة التي يخبّئها القدر خلف هذا الفرح العارم. مجرّد لحظة سهوٍ عن الفرح، تجعله يفلت أو يتملّص. بينما الحزن، تكفيه لحظة تفكير واحدة به، حتى يداهم ويهاجم ويحتلّ ويتربّع. الفرح شديد البُخل، يأتي مكرهاً، لذا فهو سريع الهرب والعطب. والحزن يأتي طائعاً ملبّياً وكريماً، لذا، فهو شديد الدبق والالتصاق. الفرح دائم الترحال، ويكره المكوث. بينما الحزن يعشق الركون والتعشيش في الأمكنة والأزمنة والأشخاص، إذا ما لمح ذرة استجابة. أطلق لاوند تنهيدة ختم بها شرود أفكاره، وقال في نفسه: «يبدو أن كل شخص منّا بحاجة إلى شخصٍ آخر، يزرع فيه بذار الفرح، ويسقيها، حتى تصبح شتلة يانعة. ولكن أضخم أشجار الفرح وأكثرها عمقاً في الجذور، وبظلالٍ وريفة، يمكن أن تطيح بها نسمة حزن واحدة». ثمّ غطّ في نومٍ عميق، ولم يوقظه والده للذهاب معه إلى الجامع، كالعادة.

في صباح اليوم التالي، دخلت الحماتان غرفة العروسين، بعد أن خرجا منها إلى الحمام. فوجدتا المنديل في موضعه. لكن رأتا شرشف الفراش ملطخاً بالقليل من الدم والكثير من المني. فتنفّستا الصعداء، وابتسمت أم العروس على أن ابنتها كانت عذراء. بينما

شعرت أم العريس بالفخر على أن ابنها شديد الفحولة. وصارتا تتبادلان نظرات الإعجاب والرضا.

استمرّت الأوضاع على هذه الحال لأسبوعين ولاوند ماكثٌ في البيت، متنقلاً بين غرفته والحمام والأكل. شعرَ بالملل وصار يطلب من أبيه العودة إلى العمل في الدكّان. وافق والدهُ على ذلك. كانت غزالة، طوال الأسبوع الأوّل، تخبر أمّها عن بعض ما يجري في غرفة النوم، ولو بخجل شديد، وتقشّف أكثر شدّة. حتى أنها أبلغت أمّها عن أمور لم تحكها لها، كالرعشة التي تأتي الفتاة أثناء ارتفاع درجة النشوة واللذة. فصارت الأمّ تسألها كيف؟ ومتى؟ وظهر أن الرعشة لم تنتبها طوال فترة زواجها وإنجابها كل أولئكَ الأطفال! تحدّثت أم غزالة عن ذلك لأم لاوند، وهل انتابتها حالات كالتي تحدّثت عنها ابنتها، فنفت ذلك أيضاً. فصارتا تندبان حظهما على أن زوجيهما لا يتعاملان معهما كشريكتين في الحياة والمتعة الجنسيّة. وانتقل هذا الكلام والعتاب إلى الزوجين والدَي لاوند وغزالة، وأنهما طوال فترة الزواج، لم يشعرا بما شعرت به غزالة من متعة ونشوة خلال أسبوعين. فنابهما التوبيخ والزجر بسبب الكلام والعتاب الذي قالتاه لزوجيهما، وأن البيوت أسرار. وما كان على غزالة أن تنقل أسرار بيتها إلى الآخرين. وأن الأُمَّين عليهما الخجل من زوجيهما، إذ كيف تطالبان بالمتعة والنشوة في هذه السن!؟ ولكن، شعر محمد أمين في قرارة نفسه بالفخر، على ما يمتلكه ابنه من فحولة ضاربة. ولكن الأُمّين، كلما عاشرهما زوجاهما، بقيتا تطالبانهما بما يمنحه لاوند لزوجته من نشوة ولذّة، ودائماً من دون طائل.

مع نهاية يونيو/ حزيران، بدأت غزالة تشكو من إرهاق وتعب، وآلام في الثدي. وحين سألتها أمّها عن دورتها الشهريّة، وهل أتت في موعدها، أجابت بالنفي. وأبدت استغرابها من تأخّرها لثلاثة أسابيع. فرحت الأمّ وأخبرت ابنتها أنها حامل. وقبل إخبار زوجها وأهله بذلك، يجب التأكد أكثر، وذلك بزيارة الولّادة مريم الفارقينيّة. فهذه «الداية» البالغة من العمر 56 سنة، مشهورة في منطقة «سور» في دياربكر على أن أغلب نساء المنطقة ولدن على يديها. فأعطتهم «الداية» البشارة على أنها حامل. وأنها ستضع مولودها في مطلع مارس/آذار أو منتصفه. بعد ذلك، نقلت غزالة البشارة إلى زوجها وحماتها، فعمّ الفرح والزغاريد بيت محمد أمين. ونقلت غزالة إلى زوجها بعض نصائح «الداية» مريم في هذه الفترة من الحمل، على أن تكون المعاشرة قليلة وخفيفة، ولا يكون الإدخال كاملاً. وهذا ما التزم به لاوند طوال فترة الحمل، خوفاً على زوجته والجنين.

مجدداً، عاودت ريحانة وساوسها السابقة، بخصوص لاوند وأنه ليس ابنهم الحقيقي. وستلاحق الشكوك طفله أيضاً. ثم عادت واستعاذت من شرّ وساوس إبليس، ولعنت عينيه، كما يفعل الكرد، حين يشتمونه. وقالت في نفسها: «ربّ ولدٍ لم تلده بطني. هو الآن ابني الذي أحبّه، وحلّ محلّ ابني الذي فقدته. لا تسمم عليّ فرحتي أيّها الشيطان اللعين».

أتت غزالة آلام المخاض منتصف ليلة السادس من مارس/آذار 1956، وقبيل أذان فجر يوم السابع، أطلق المولود صرخته بين يدي «الداية» مريم التي قالت: «ولد. إنه ولد». واستيقظ الجيران على

صوت الزغاريد المنطلقة من بيت محمد أمين. فاض الفرح مجدداً في هذا المنزل. حملت الجدّة حفيدها، مع التسبيح والبسملة، قبّلته، وسلّمته لجدّه. ففعل الشيء نفسه. ناوله لأبيه. انتاب لاوند شعور غريب، خليط من السعادة والألم والأمل في غدٍ أفضل. قال في نفسه: «مطلع ذاكرتي، كان الألم. حين فتحت عينيّ ورأيت أمامي وجه يون الكوريّة، التي كان يمكن أن تكون أمّ هذا الطفل. والآن أمّه غزالة. ذاكرتي كانت مثل ذاكرة هذا الطفل التي بدأت تتشكّل». حمل طفله واتجه نحو زوجته، وحَمَدَ اللّه على سلامتها، وهنأها على المولود. فسألته مبتسمة؛ «ماذا ستسمّيه؟». فاجأه السؤال. فاختيار الاسم محنة ومأزق. إذ إن الأب سيختار اسماً لابنه سيبقى يرافقه حتى الممات. لكنه استدرك وقال في نفسه: «لا. في كوريا كان اسمي دان. والآن في تركيا اسمي لاوند. وقبل فقداني الذاكرة، لا أعرف ماذا كان اسمي. سأختار له اسماً، ربما يكون مؤقتاً، كأسمائي المؤقّتة. الاسم ليس سجن صاحبه، محال الفكاك أو التحرر منه. إذا لم يعجبه الاسم، فليغيره هو». صمت برهةً ثم قال لزوجته: «بما أن اللّه هو من أعطاه لنا هديّةً من عنده، ما رأيك أن نسمّيه دان (Dan). وتعني بالكردية: العطاء». تفاجأتِ الأمّ بهذا الاسم الخفيف والقصير والجميل في اللفظ والمعنى، واستغربت أنه لم يطلق على الطفل أحد اسمَي والديهما؛ محمد أمين أو معصوم. وهي لم تكن تودّ أن يطلق عليه أحد هذين الاسمين لأنهما تقليديان ومتداولان كثيراً. كانت غزالة تريد أن يكون اسم ابنها مميّزاً ومختلفاً ونادراً. فجاء اقتراح زوجها على مقاس ما تريده.

استغربت ريحانة وزوجها من الاسم، ولكنهما استعذبا لفظه

واستلطفا معناه. ولكن ريحانة قالت: «سأطلقُ عليه اسماً آخر يشبهه في اللفظ، ولكن بمعنى مختلف. سأسمّيه جان (Jan). ويعني الألم». أحبَّ لاوند هذا الاسم كثيراً. وقال في نفسه: «هذا ألمي. ولادة الإنسان تبدأ مع الألم، وموته أيضاً ينتهي بالألم. وحياتنا كلها كانت آلام، لحظات الفرح فيها قليلة جداً». فَهِمَ محمد أمين تماماً مقصد زوجته. فهزّ رأسه. وهزّة الرأس تلك، كانت غامضة، تنطوي على معنيين؛ لم تعرف ريحانة أيهما المقصود: أهو موافق على الاسم؟ أم موافق على سبب اختيارها الاسم؟ كذلك غزالة لم تجد ما تعترض به على هذا الاختيار. واتفق الجميع على اسم جان (Jan).

مضت سنتان وجان يكبر في هذه العائلة المثاليّة. كذلك بدأت صحّة محمد أمين تعتلّ، وتظهر عليه أعراض المرض، وصار يعاني من ألم في الصدر والظهر. وأصبح إخوة لاوند يكتمون مشاعر الغيرة والحسد من شدّة اهتمام والده به دوناً عن كل إخوته. بخاصة بعد استعادته الذاكرة. أو ما اعتبروه استعادة للذاكرة. لأن لاوند صار يجيد التركية والكردية ويقرأ القرآن، وتعلّم فن التجارة، وإدارة مصالح والده. اشتدّ المرض على محمد أمين وأقعده الفراش. لم يشأ لاوند الإفصاح عن مضايقات إخوته له في العمل، لئلا يزيد من أعباء والده وآلامه. أبلغ أمّه بالأمر. لكنها ما كانت تقوى على فعل شيء. في شهر أغسطس/آب من 1959، بدأت أعراض الحمل تظهر مجدداً على غزالة. لكن عبء أعمال المنزل تقع عليها. خاصّة أن حماتها منشغلة بمرض زوجها. في ليلة 15 نوفمبر/تشرين الثاني 1959، توقّف قلب محمد أمين عن النبض. مات وترك لاوند في مواجهة عاصفة تهيّئ نفسها للإطاحة بحياتِهِ، وإعادة دورة آلامه إلى

سابق عهدها، في رحلة الاغتراب وعدم الانتماء، بعد أن كان يظنّ أنه طواها إلى الأبد. إذ تعرّضت حياته إلى انتكاسة عميقة، لم تكن في الحسبان مطلقاً، بعد أن بدأ الصراع على ميراث محمد أمين أصلان أوغلو. فاجتمع أولاد زوجتيه على شقيقهم لاوند. وأخبروه بأنهم كانوا يعرفون أنه ليس شقيقهم. ولكن، حرصاً على صحّة الدهم وحبّاً واحتراماً له، سكتوا على ذلك طوال هذه المدّة. ولكن أن يأتي الأمر إلى درجة أن ينازعهم على الإرث، فهذا ما لن يقبلوا به مطلقاً. وحاولت الأم ريحانة فعل شيء، لكن طوق الحصار على لاوند كان شديداً. وحين استفسر لاوند من أمّه عن حقيقة الأمر؟ أجابته بأنها ووالده محمد أمين كانا يعرفان أنه ليس ابنهما. ولكنهما تعاملا معه على أنه ابنهما ومن أفراد هذه العائلة، حفاظاً عليه، وتعويضاً عن ابنهما الذي فقدوه في حرب كوريا، وتقرّباً من مرضاة اللّه. وأنها لا تعرف من الذي سرّب لإخوته؛ أنه ليس لاوند الحقيقي!؟ ويبدو أن إخوته خامرهم الظنّ، فبدأوا يتواصلون مع الثكنة العسكريّة، وفاتحوا رئيس الثكنة بهواجسهم، فأشار عليهم بضرورة مراجعة مركز قيادة الجيش في أنقرة واسطنبول لمعرفة الحقيقة. فعلوا ذلك، وعرفوا أن المسؤولين الأتراك لم يجروا مقارنة بصمات هذا الشخص ببصمات شقيقهم حتّى يتأكدوا من حقيقة هويّته. وكي يتأكدوا من ذلك، يجب أن يأخذوا بصمته ويقارنوها ببصمة شقيقهم عند خبير البصمات. وفي حال كان هناك تطابق، فهذا يعني أنه شقيقهم. وفي حال عدم التطابق، فهذا يعني أنه شخص آخر. ففعلوا ذلك، من دون علم لاوند، وأخذوا بصماته الموجودة على أكواب الشاي في الدكّان، واكتشفوا الاختلاف. لم يفاتحوا

والدهم لأنه كان على فراش الموت. لكنهم ذكروا لأمهم معرفتهم الحقيقة.

أخبر لاوند أمّه وأخوته بأنه لا يريد شيئاً منهم. فقط يمهلونه حتى تضع غزالة مولودها، وسيغادر هذه البلاد إلى بلد آخر، بعيداً عنهم. وضعت غزالة طفلها في 18 أبريل/نيسان 1960، وأنجبت بنتاً، أطلق لاوند اسم أمه ريحانة عليها، تكريماً لحبّها وحنانها الذي منحته إيّاه.

وصل الخلاف الناشب بين أولاد محمد أمين إلى بيت غزالة وأمها وإخوتها. فصاروا يتساءلون عن هويّة ودين وأصل هذا الشخص الذي تزوّج ابنتهم على أنه لاوند محمد أمين أصلان أوغلو، ولكنه ليس هو! فاستشار والد غزالة رجل دين في الأمر، لإصدار فتوى تطليقها من لاوند. فقال الرجل:

- أليس مسلماً، ومواظباً على الصلاة، وطاعة ربه؟

- «بلى». أجاب والدها. واستدرك قائلاً: «لكننا لا نعرف دينه وأصله السابق!».

- وما شأنكم بدينه السابق!!؟ هو الآن مسلم. هل يتعامل مع ابنتكم بقسوة؟! هل يحرمها من شيء؟! هل فيه من أخلاقٍ وسلوكٍ ما لا ترضونه؟!

- لا. الشهادة للّه، يعامل زوجته أحسن معاملة. والناس راضية عنه. ووالده المرحوم محمد أمين كان راضياً عنه. ولكننا نجهل أصله وفصله ودينه!

انزعج الشيخ أكثر وقال:

- طالما هو هكذا، أنتم تظلمونه! ما شأنكم بأصله وفصله ودينه

السابق؟! هو الآن على دينكم، ويتكلّم بلسانكم. ولا يوجد أي شيء يخالف الشرع في سلوكه وأخلاقه. ثم إن الإنسان بدينه وأخلاقه وتعامله مع الناس، وليس بحسبه ونسبه. بأي حقّ تريدون ظلم الطفلين وحرمانهما من أبيهما؟!... هيا، اخرج من هنا. اخرج.

طرده الشيخ، بعد أن رأى فيه تعصّباً وجهالة. ومع ذلك، غلب الطابع القبلي والعائلي على الجانب الديني الشرعي الذي يبرّئ ساحة أسرة غزالة من زواجها.

فاتحها لاوند في الأمر، ومنحها مطلق الحريّة في العيش معه أو طلب الطلاق. فقالت له: «من أيّة ملّة أو دين أو قوميّة تكون، أنا أحبّك. وسأبقى أحبّك. أنت والد طفليَّ، وحبيبي إلى الأبد، حتّى الموت». حين سماعه هذا الكلام، اغرورقت عيناه بالدمع. وبعد أن خفف عنه البكاء موجة الحزن التي كابدها، قال لها:

- يجب أن نغادر هذه البلاد. انقطع خبزنا عن هذه الأرض.

- إلى أين؟

- أرض اللّه واسعة، ولن تضيق بنا، مثلما صارت تضيق بنا دياربكر. ما زلتُ بصحّتي وبإمكاني العمل في أي عمل، مهما كان قاسياً. يتحدّثون كثيراً عن العمال المهاجرين إلى ألمانيا وبلجيكا للعمل في الإنشاءات والبناء ومناجم الفحم. بإمكاننا أن نجرّب حظنا هناك. أعرف أشخاصاً ذهبوا كعمال ضيوف. وصاروا يرسلون الأموال لأهلهم، وتحسّنت أوضاعهم.

- أتريد لنا أن نغترب ونهاجر؟ ونبتعد عن هذا الوطن؟!

- الأرض التي ينعدم فيها الحبّ، وتعشش فيها الكراهية، لا يمكن العيش عليها. رأيتِ ما فعلهُ إخوتي أو من يفترض أنهم كانوا

إخوتي. ورأيت كيف صار والدك ينظر إليّ، ويريد تطليقكِ منّي! حتى لو وجدت عملاً هنا، ستبقى الأعين ونظرات الشك تلاحقني إلى الأبد. دعينا نجرّب حظنا بعيداً من هنا. أعرف مكتباً لتسفير العمال إلى بلجيكا وألمانيا، وسوف أراجعه، والخيرة في ما يختاره اللّه لنا.

أخبر لاوند إخوته بأنه تقدّم بطلب مرفق بالوثائق إلى مكتب تسفير العمال إلى ألمانيا وبلجيكا، وينتظر الردّ. وبعد الانقلاب العسكري على الرئيس التركي جلال بيار، ورئيس الوزراء عدنان مندريس في 27 مايو/أيّار 1960، ودخول البلاد نفق الفوضى والقلاقل، ازدادت حركة الهجرة والنزوح من البلاد باتجاه أوروبا. ساعد ذلك في تسريع إجراءات السفر. فأتت الموافقة على سفر لاوند أصلان أوغلو إلى بلجيكا للعمل في أحد مناجم الفحم في منطقة برينغين (Beringen) التابعة لمقاطعة ليمبورغ (Limburg).

حالُ لاوند كحالِ قبيلةٍ هائمةٍ في صحاري اليأس والألم واللانتماء، تسحبُ أوتاد مضاربها من رمال الأقدار المتحرّكة، وتطوي خيامها استعداداً لهجرة جديدة لا تنتهي. أمّا زوجته، فتشعر وكأنّها شجرةٌ مجبرةٌ على اقتلاع جذورها من البيئة التي عاشت فيها طفولتها وصباها، لتتجه كرهاً نحو غربةٍ مجهولة المصائر، ولا تعرف ما إذا كانت البيئة والتربة الجديدة ستوائمانها أم لا. حزنُ غزالة بلا قاعٍ أو حدود، ومع ذلك، حاولت التخفيف عن زوجها الغريب، على أنه ما زال أمامهما مستقبلٌ واعدٌ بغدٍ أفضل من اليوم. أمّا الأمّ ريحانة، فانفتحت جراحها من جديد، وتجدد حزنها وحدادها على ابنها لاوند، لكأنّه مات توّاً، ويشيّع إلى قبرهِ.

استقلّ لاوند وأسرته القطار نفسه الذي أتى به من اسطنبول إلى

دياربكر قبل ما يزيد على خمس سنوات. وصار يتذكّر رفيق رحلتهِ مظفر كورتاي الذي لم يفهم من كلامه حينئذ حرفاً واحداً. ولكنه الآن يفهم الكرديّة والتركيّة جيّداً، ويمكنه الاستماع والإنصات لكل أحاديث مظفّر المملّة. ما أحوج لاوند إلى مظفر الآن، كي يخفف عنه وطأة الزمن الواخزِ المرير في هذه الرحلة المؤلمة نحو المجهول. ولكن، أين هو؟! وكي يكسرَ الزمن بالكلام، صار لاوند يتحدّث لزوجته عن مظفر، وحكاياته التي لم يكن يفهمها. ثم انحرفت به الذكريات نحو كوريا، وبدئه الحديث عن اللحظة الأولى في عمرِ ذاكرته، حين فتح عينيه، فوجد وجه صديقته الكورية يون أمامه. ذلك أن غزالة لم تسأله أبداً عن ماضيه، حتى بعد معرفتها أنه ليس لاوند الحقيقي. لم تشأ فتق جراحه والنفخ في جمر آلامه. لكنه، ها هو الآن، يفتح لها دفتر ذاكرته القصيرة التي عمرها يقارب عقداً من الزمن فقط. القطار يأخذهما إلى اسطنبول، وهو يأخذ غزالة إلى المجهول، مروراً بذكريات كوريا المريرة.

كانت هناك حافلات خاصّة تأخذ المسافرين من محطة حيدر باشا إلى مطار أتاتورك. لكنهم باتوا ليلتهم في فندق صغير، قريب من المحطة، ثم عادوا في صبيحة اليوم التالي واستقلوا الحافلة إلى المطار. صور أتاتورك الكثيرة التي لفتت استغرابه حين وصل من كوريا إلى اسطنبول، أصبحت عادية بالنسبة إليه الآن، بعد أن عرف من هو مصطفى كمال باشا، الذي يتحكّم بالبلاد من قبره. وصلوا إلى المطار قبل إقلاع الطائرة بأربع ساعات. بعد انتهاء إجراءات التفتيش وفحص الجوازات وتأشيرات دخول بلجيكا، وتسليم الحقائب، اتجهوا إلى قاعة الانتظار، والقلق والترقّب والتوتّر يعصف

بهم في انتظار الطائرة التي ستأخذهم إلى بروكسل. كان في الصالة جمهرة من الناس، وحين نودي على المسافرين، اتجه هؤلاء نحو البوابة. فسألت غزالة: «لِمَ لا نذهب نحن أيضاً؟!» أجابها: «هذه ليست رحلتنا. إنهم ينادون على الرحلة المتّجهة إلى برلين، أظنّها في ألمانيا. لحظة، سأتأكد من ذلك». اقترب لاوند من أحد المسافرين وسأله هل تتجه هذه الرحلة إلى بلجيكا؟ أجابه الرجل بالنفي، وأنها تتجه نحو ألمانيا الشرقية، إلى برلين. عاد وأخبر زوجته بذلك. فقالت: «الحمد للّه، ليس لدينا في تركيا، تركيا الشرقية وتركيا الغربية. لدينا تركيا واحدة فقط. هل تعرف أين تقع هذه ألمانيا الشرقية؟!». أجابها مبتسماً: «أكيد، إنها تقع إلى جوار ألمانيا الغربية. ولكنني لا أعرف الاثنين معاً».

تلك كانت أوّل مرّة تخرج فيها غزالة من دياربكر. ذلك أنها لم تذهب إلى المدرسة، ولم تركب القطار، ولم تزر اسطنبول، ولم تركب طائرة. هذه التجارب المتلاحقة والمبهرة، ساهمت في تخفيف الحزن عنها، وألهتها بالمشاهد الغريبة التي تتلاحق أمام عينيها بسرعة.

لم يبقَ في الصالة سوى لاوند وزوجته وطفليه. وما لبث أن أتى مسافرون جدد. بدا من سحنات بعضهم، وكلامهم التركي الركيك أنهم أكراد. ولكن، تحاشى لاوند وزوجته الحديث معهم. بعد مضي ما يزيد على الساعتين، نودي على المسافرين المتجهين إلى بلجيكا على متن الخطوط الجوية التركيّة. لاوند حاملاً ابنه جان، وغزالة تحمل ريحانة، دخلا في طابور المنتظرين. ثم سارا خلف السائرين لحين خروجهما من البوابة، وركبا حافلة اتجهت نحو مدرج الطائرة.

كان شكلها وهديرها باعثاً على الرهبة والخوف ليس للطفلين وحسب، بل لغزالة أيضاً، وصارت تسأل نفسها: كيف لهذا الجسم الحديدي العملاق، وفي داخله كل هؤلاء الناس، أن يكون قادراً على الطيران؟! بكى الطفلان خوفاً من هدير محركات الطائرة، وانشغل لاوند وزوجته بإسكاتهما والبحث عن المقاعد. فدلّتهما المضيفة على مكان جلوسهما. رغم أن لاوند جرّب هذه الحالة، حالة رهبةِ ركوب الطائرة أوّل مرّة في كوريا، إلّا أنه كان أيضاً متوتّراً.

أقلعت الطائرة وبدأت تشقّ عباب السماء. بعد ساعتين ونيّف توقّفت في مطار ميونيخ، أيضاً لساعتين، للتزوّد بالوقود، وإنزال بعض الركّاب، وصعود ركّاب آخرين. لم يكن يدري لاوند سبب هذا التوقّف. ثم أقلعت الطائرة مجدداً. أيضاً في الجو، أثناء تحليق الطائرة، بدأ لاوند يسرد حكاية سفره مع الضابط التركي أوكتاي أوزتورك، على متن طائرة أمريكيّة من مطار «جيمبو» الكوري، غرب «سيول»، باتجاه مطار «كاي تاك» في هونغ كونغ. ومنه إلى مطار «بانكوك» في تايلاند. ثم نحو مطار دلهي في الهند. ومن هناك إلى مطار «مهرباد» في طهران. والمحطة الأخيرة كانت مطار أتاتورك في اسطنبول في 20 ديسمبر/كانون الأول 1953. وكيف بقي معلقاً في السماء لما يزيد على 15 ساعة. وصار يتحدّث عن التفاصيل التي جرت معه في هذه المطارات والأسلوب الفظّ والخشن الذي كان يتعامل به الضابط التركي معه، رغم أنه لم يكن يفهم اللغة التي يتحدّث بها معه. الآن، يتمنّى لاوند أن يلتقي بذلك الضابط، حتى يستمع له ويفهم ما كان يقوله له وقتذاك.

لم يكن يدري أن 17 سبتمبر/ أيلول 1961، اليوم الذي كانت فيه طائرته تحلّق في السماء مغادراً تركيا، هو نفسه اليوم الذي كانت المشنقة منصوبة لرئيس الوزراء التركي عدنان مندريس ووزيرين من وزرائه.

حطّت الطائرة في مطار بروكسل. وهنا، بدأت متاهة جديدة. فمن لا يجيد لغة بلدٍ غريب، لا فرق بينه وبين الأعمى والأصم والأبكم. اضطر لاوند إلى طلب مساعدة أحد المسافرين معه للوصول إلى العنوان المكتوب له: kastelstraat 25 منطقة برينغين التابعة لمقاطعة ليمبورغ ، حيث يوجد مكتب استقبال العمال. ولحسن حظه أنه كان ضمن إحدى المجموعات الأولى من العمال الأتراك التي تمّت الموافقة على دخولها بلجيكا بقصد العمل في مناجم الفحم في مقاطعة ليمبورغ، حتّى قبل التوقيع على اتفاقية استقبال العمّال الضيوف من تركيا إلى بلجيكا. اكتشف لاوند أن مجموعته مؤلفة من 30 شخصاً، ما خلق ارتياحاً واطمئناناً بأن هناك أناساً مثله، ربما يساعدون بعضهم بعضاً، ريثما تستقر الحال بهم في هذا المهجر الموحش.

ومع تجمهر المجموعة في مطار بروكسل، ظهر أن هناك موفداً من شركة الفحم والتعدين البلجيكيّة ينتظرهم، كي يقلّهم بحافلة كبيرة إلى محطة القطار «بروكسل-نورد»، ومنها على متن قطار متجه إلى منطقة برينغين في مقاطعة ليمبورغ. رجلٌ جسيم، بعضلاتٍ مفتولة، وشاربٍ مفتول أيضاً، وعينين زرقاوين صافيتين كعيني صقرٍ جائع يبحث عن فريسة، عرّف بنفسه على أنه يوهان فاندرموليمان. بدا الأمر أنه مرتّب ومنظّم. في حين أن لاوند كان متوجّساً وقلقاً من

كيفيّة الذهاب إلى مكان العمل، وهو لا يعرف لغة هذه البلاد التي لم يسمع بها في حياته؟! استلم الموفد يوهان جوازات سفرهم، وتفقّد أسماءهم بشكل مبدئي وقارنها مع اللائحة الموجودة لديه، وطلب منهم أن يتبعوه. ساعد يوهان في مهمّته مترجم ينقل الكلام من الهولنديّة إلى التركيّة. وصارت المجموعة تتبعُ هذا الشخص، كقطيعٍ مذعورٍ يتبع كلباً ضخماً إلى أن خرجوا من مبنى المطار باتجاه الحافلة التي أقلّتهم إلى المحطة. وهناك انتظروا نحو ساعة حتى وصل القطار. قطارٌ يختلف قليلاً عن الذي ركبوه في تركيا. وصل القطار بهم إلى منطقة هاسلت (Hasselt)، ومنها، اتجهوا شمالاً، نحو المدينة الصناعيّة «برينغين»، غرب ليمبورغ، ووصلوا مع حلول المساء. تمّ إسكانهم في سكن مؤقّت، عبارة عن مهجع كبير فيه الكثير من الأسرّة العسكرية ذات الطابقين. كان المكان قذراً وبارداً، وبإنارة خافتة. تفوح من الأسرّة والوسائد والبطانيات رائحة تعرّق واحتراق وعفونة. طلب منهم يوهان ألّا يقلقوا، وأن الأمر مؤقّت، وسيتم توزيعهم على مساكن العمّال، صباح الغد. نام لاوند مع طفله في الطابق الأعلى من السرير، بينما نامت غزالة وابنتها في السرير الأسفل. كانا متعبين من السفر. استيقظوا في الصباح الباكر على صوت الحافلات والضجيج الذي أحدثته. خرج لاوند ليرى ما يجري في الخارج، وإذا به يرى الكثير من الحافلات، يخرج منها عمّال بائسون بوجوه شاحبة وملامح قاسية، يتحرّكون بسرعة نحو مهاجع أخرى. ثم الوقوف في طابورٍ طويل أمام مدخل مبنى، ليتفقّد أحد الموظفين أسماءهم، ويأخذ تواقيعَ حضورهم دوامهم اليومي.

جاء يوهان وأمرهم بحمل أمتعتهم للذهاب إلى مطعم العمال

لتناول الفطور الذي كان كوب حليب وبيضة وقطعتي خبز والقليل من الزبدة والمربى لكل شخص. بعد تناول الفطور، تفقّدهم يوهان مرة أخرى. ثمّ قدّم إليهم المسؤول عن الموظفين، المهندس دومينيك فيسّرمان، الذي رحّب بهم كعمال ضيوف، سيعودون إلى بلادهم، ريثما تنتهي عقود عملهم. وذكر أن المحامي سيباشر العمل بخصوص متابعة الإجراءات القانونية بخصوص إقامات العمل. وصار يحدثهم عن الأجور والمعاشات والخدمات التي تقدمها الشركة لعمّالها على صعيد السكن والطبابة والنقل ومجانية استخدام الفحم للتدفئة، لأن الشقق الخاصة بهم مجهزة بمواقد خاصة تعمل بالفحم الحجري. وركّز على ضرورة الذهاب إلى المدرسة لتعلم اللغة الهولندية الفلامانكية. وأن الشركة خصصت مدارس لأطفالهم، وأن هناك دورات إلزامية خاصة بتعليم الكبار اللغة الهولندية، ينبغي الذهاب إليها في يومي عطلة نهاية الأسبوع.

بعد استلامه ثياب ومعدّات العمل، انتقل لاوند وعائلته إلى شقته ضمن المجمّع السكني المخصص للعمال الوافدين. شقق صغيرة مسبقة الصنع، عبارة عن غرفة وصالون ومطبخ وحمام، وشرفة صغيرة، في مبانٍ مؤلّفة من ثلاثة طوابق، مرصوفةٍ بعضها إلى بعض. ومع صبيحة اليوم التالي، صار لاوند ضمن طابور البؤساء الذي ينتظر أمام مدخل المبنى، حيث يتفقّد الموظّف أسماءهم وسجّل حضورهم. بعد اجتيازه البوّابة، سار في ممرٍّ يزيد طوله على 50 متراً، ينتهي بمصعد يقف أمامه موظّف، ينظّم استخدام العمّال للمصعد في النزول إلى الأسفل. فعل لاوند ما يفعله زملاؤه، يحملون مصابيحهم ويدخلون المصعد كمجموعات، كل مجموعة

مؤلّفة من ثمانية أشخاص، يغلق عليهم الموظّف باب المصعد، ويضغط على زر النزول. وينزل المصعد وينزل وينزل. . . وكلما ازداد النزول ازدادت العتمة، ومعها تفاقمت درجة الحرارة ورائحة الفحم الواخزة. بدأت نوبة من السعال والعطاس تنتاب لاوند والعمال الجدد. بينما الآخرون القدامى، يضحكون قائلين: «غداً، ستعتادون على هذه الحالة. كنّا مثلكم». لم يعرف لاوند أنه نزل إلى عمق 800 متر، في هذا النفق العمودي داخل الأرض، لدرجة خامره ظنّ بأنهم سيخرجون من الجهة الأخرى للأرض.

عمالٌ يحملون أدوات الحفر والتكسير. وآخرون يجمعون الفحم المقلوع ويضعونه في حوايات صغيرة، يجرّها عمّال آخرون نحو آلة دائريّة تدور، وتقلب الحاوية وتفرّغها على شريط معدني متحرّك طويل، ينقل الفحم ويلقي به في حاويات مماثلة صغيرة، يتم تجميعها في قطارٍ صغير يجرّ نحو عشرين عربة صغيرة. يُفرّغ الفحم في أماكن الفرز. سلسلة طويلة من المراحل تمرّ بها قطعة الفحم الحجري حتى تصل إلى الأسواق. عمّال في كل زاوية من زوايا المنجم تحت الأرض. فوانيس معلّقة بالأعناق، وبأحزمة الخصور، وفي الأيدي، وبالعربات. حركة شاقّة ومضنية، دائمة تحت الأرض، تتناوب عليها ورديّات العمال، أكثر من الحركة الموجودة فوق سطح الأرض.

يُقال: إن بعض البلجيك، أثناء الحربين العالميتين، كانوا يلوذون بالعمل في هذه المقابر في باطن الأرض، هرباً من التجنيد الإجباري وخوض الحروب، والعودة منها جثثاً هامدة، تهجع للنوم الأبدي في جوف قبور منفردة. فاحتمالات الموت في هذه المناجم كانت أقلّ بكثير من احتمالات الموت في المعارك. وما إن تنتهي الحرب،

حتّى ينسحب البلجيك من هذا العمل المميت، بحيث تضطر الشركات إلى تشغيل الأجانب.

أثناء احتلال الألمان لبلجيكا، وضع النازيون أيديهم على كل مناجم الفحم، وجلبوا آلاف الجنود الروس والبولونيين للعمل في مناجم ليمبورغ، كعمّال سخرة. كذلك معسكرات الاعتقال النازية في بلجيكا وألمانيا، كانت مصدراً من مصادر توريد العمّال للعمل في هذه المناجم. وبعد انتهاء الحرب الثانيّة، قررت الحكومة البلجيكيّة تشغيل 14000 من الجنود الألمان والمتعاونين معهم من البلجيك، كعمّال سخرة في هذه المناجم. سنة 1947، تم تسريح هؤلاء أيضاً، ولكن الكثير من الروس والألمان والبولونيين، فضّلوا البقاء في بلجيكا كعمّال في المناجم على العودة إلى ألمانيا وروسيا وبولونيا، خوفاً مما يمكن أن يلاقوه في بلادهم من أهوال وويلات! ولسدّ النقص الحاصل، بدأ البلجيك يفكّرون في استجلاب عمالة وافدة من شمال أفريقيا ومناطق أخرى. وكان الطليان أوّل العمال الوافدين حيث دفعت روما ما لا يقلّ عن 50 ألف شاب إيطالي نحو المناجم البلجيكيّة، لقاء الحصول على آلاف الأطنان من الفحم الحجري بسعرٍ رخيص. وفي ما بعد تمّ استجلاب المغاربة والأتراك.

هذا العالم السفلي، الذي لا يعرف عنه شيء مَن ينعمون بخيرات هذا العالم على سطح الأرض، يشبه إلى حدّ ما القصص التي كانت ترويها الجدّات عن الجحيم والعقوبات المطبّقة على الآثمين والخطّائين الأشرار بسبب عدم اتباعهم أوامر اللّه واجتناب نواهيه.

ولكن، ما من أحدٍ يسأل عن سيرة قطعة الفحم الحجري لحين وصولها إلى محطات توليد الطاقة الحرارية والطاقة الكهربائيّة وإلى

محارق القطارات البخارية، أو إلى المعامل، ليتم حرقها في ثوانٍ، وكم من مئات آلاف السنين استغرقته الطبيعة في عَصرٍ وتكبيد نفسها حتّى تنتج أو تخلق قطعة فحم حجري! مئات آلاف السنين من جهد الطبيعة يتم حرقه في لحظات.

هذا العالم السفلي، أو الحرب المندلعة تحت الأرض، كثيراً ما كان يشهد انهيارات وحرائق وانفجارات في الغازات الصادرة عن الفحم، صار لاوند جزءً منه، يقضي فيه كامل نهاره. لا يرى النور إلّا نادراً. تعوّدت رئتاه على طعم ونكهة ورائحة الغاز والأبخرة وغبار الفحم. يأتي إلى البيت، ويغتسل ويغيّر ثيابه، إلّا أن رائحة الفحم تبقى عالقة به وبأنفاسه. في البداية، كانت زوجته تتأفف منه، دون أن توحي بذلك. ولكن لا يوجد بديل آخر. شيئاً فشيئاً، اعتادت غزالة أيضاً على هذه الرائحة. بات لاوند يشعر بأنه قطعة فحم بشري، وليس حجري، تحترق من الداخل، دون أن يصدر منها دخان أو حرارة أو وهج. قطعة الفحم البشري هذه تحترق، وتجدد نفسها دائماً. كل التعبِ والعناءِ والإرهاقِ الذي كان يلاقيه في عملِهِ، لم يكن يساوي عُشرَ الألم والمعاناة التي يلاقيها في المدرسة وصعوبة تعلّمِهِ اللغة الهولنديّة في أيام العطلة المخصصة لذلك. فما عادت قابليّته على تعلّم اللغة كالسابق، حين تعلّم الكوريّة بسرعة، ثم تعلّم الكرديّة والتركيّة أيضاً بسرعة. الهولنديّة التي هي في الأصل، لغته الأمّ، ونسيها تماماً، ولا يعرف أنه نسيها، كان يجد صعوبة بالغة في تعلّمها، رغم أنه في مطلع العقد الرابع من عمره! كانت غزالة تحاول تبرير ذلك بسبب التعب والإجهاد الذي يلاقيه في العمل، وأنها تتعلّم الهولنديّة بسرعة كونها لا تعمل في المنجم. غزالة أيضاً، تعاني

الأمرّين من تعاسة أوضاعها. مشاعر النزوح والهجرة إلى أرضٍ غريبة، تضيّق عليها الخناق، وتكتم أنفاسها، ويجرفها حنينٌ إلى أهلها، إلى ديابكر، إلى كل حجر موجود في سور المدينة، إلى أزقّتها وبيوتها. وصارت تسأل نفسها؛ هل حقّاً زوجها، مجهولُ الهويّة، يستحقُّ كل هذه التضحية، بحيث تركت أهلها ووطنها لأجله؟! أثناء ذهاب لاوند للعمل، وذهاب الطفل جان للروضة والطفلة ريحانة للحضانة، كانت غزالة تلهي نفسها بتعلّم اللغة الهولنديّة حتّى في البيت، وهي التي لم تكن تعرف حرفاً باللغة التركيّة، وتتكلّمها بشكل جد ركيك. دروس تعلّم الهولنديّة لديها لم تكن في يومي العطلة، بل كانت أربعة أيام ضمن الأسبوع، باستثناء يوم الأربعاء، ثلاث ساعات في اليوم. وبعد مضي أشهر، صارت تقرأ وتكتب وتتكلّم بالهولنديّة، ولو على نحو بطيء، لأنها تتواصل مع قريناتها الكرديّات اللاتي أتين مع أزواجهن إلى ليمبورغ بقصد العمل. ومع ذلك كانت استجابتها لتعلّم الهولنديّة أضعاف ما كان لدى لاوند من استعداد. ومع تعلّم غزالة الهولنديّة، بدأت تخفّ وطأة الغربة عنها، وصارت تحاول تشجيع زوجها على العناد والإصرار في تعلّم اللغة. وهكذا، أهدت بلجيكا لغة جديدة إلى غزالة، وهي الأميّة في بلدها الأمّ. بينما لاوند يجد صعوبة بالغة في تعلّم اللغة. أحياناً كانت تنتابه موجات حزن شديد وبكاء يرثي فيها حاله، ويحنّ إلى الأيّام التي عاشها في كوريا وتركيا، بسبب سرعة اندماجه في هذين المجتمعين رغم صعوبة الظروف، لكنه يلاقي الآن عناءً شديداً في الاندماج ضمن المجتمع البلجيكي. ثم أي مجتمع هذا؟ فهو لم يخرج من برينغين؛ من البيت إلى المنجم ومن المنجم

إلى البيت. يدخل إلى جوف الأرض مع الصباح الباكر، والظلام ما زال مخيّماً، ويخرج منه في المساء. صار لاوند أشبه بحيوان أو كائن ليلي. مضت ستة أشهر. علاقته طيّبة جداً مع زملائه في العمل. صار يقوى على تركيب جمل بسيطة وركيكة، تخوّله إجراء محادثة بسيطة مع أصحاب المحال التجارية والحوانيت في المدينة، ومع الطبيب، ومع مسؤوليه في العمل. شهد لاوند مظاهر احتفال في مدينته الجديدة، لم يألفها في دياربكر. لكنه شاهد ما يشبهها في كوريا، وهي احتفال الانتقال من سنة 1961 إلى 1962. أجواء من الفرح والبهجة خيّمت على المدينة. دعاه زملاؤه للسهر في بار، وشربوا النبيذ، وأكل لحم الخنزير، واستلذ طعم هذا اللحم كثيراً. ولكن لاوند لم ينقطع عن الصلاة وقراءة القرآن. من دون أن يفهم معنى النصوص التي تحرّم شرب الخمور وأكل لحم الخنزير!

مع حلول الصيف، تحسّنت علاقة غزالة مع بلجيكا ومع اللغة الهولنديّة، في حين أن علاقة لاوند ما زالت متشنّجة وفاترة جداً، تتطوّر ببطء. يشعر بالغربة في هذا البلد، ويحنّ إلى دياربكر. في 15 يونيو/حزيران 1962، حدث انفجار في المنجم، نتيجة ضغط الغاز، على إثره حدث انهيار، راح ضحيّته 5 عمّال، وأصيب نحو 70 شخصاً بجراح متفاوتة، كان من بينهم لاوند، حيث نُقِل إلى المستشفى بعد إصابته بجراح متوسّطة. وفي مستشفى القديسة باربارا في مدينة «لاناكين» التابعة لليمبورغ. هناك حدث الانفجار الأكبر في حياة لاوند الذي أعاده إلى آلفونس دو سخيبّر.

استلم الممرض المناوب سيمون فان خوستلد ورديته مساء 16 يونيو/حزيران 1962، وبدأ جولة على المرضى، بخاصة ضحايا

المنجم، كي يغيّر ضمادات جراحهم، بعد تعقيمها. اقترب الممرض سيمون من المريض لاوند أصلان أوغلو الممدد على السرير رقم 2 في الغرفة رقم 124 الطابق الثاني في المستشفى، واطلع على أوراقه ونوع إصابته، وما ينبغي عليه فعله لأجل هذا المريض. كل الأمور كانت عاديّة وروتينيّة تماماً. وحين اقترب من المريض كي يستفسر عن حالهِ وهل هناك تحسّن، كما يفعل أي ممرض مع أي مريض، صُعِق سيمون وجحظت عيناه وصار كالمشدوه الأبله الذي لا يعرف، هل يضحك، أم يبكي، لهول ما رأت عيناه! صمت برهةً، دون أن يصدّق. شعر لاوند بالخوف والقلق من التصرّفات المريبة الصادرة من هذا الشخص المريب. صرخ سيمون:

- واو... واو... أوه، ربّاه! يا إلهي!... الرقيب آلفونس دو سخيبّر. ما الذي أتى بك من الموت إلى هنا؟! هذا مستحيل..!؟ حقّاً، مستحيل!؟ أنت آلفونس دو سخيبّر!؟ نعم، أنت هو!

ثم عاد للأوراق مرة أخرى، فوجد اسماً مختلفاً «لاوند أصلان أوغلو»، مواليد 21/ 3/ 1929. ثم عاد إلى كلامهِ: «غير معقول! مستحيل! أنت آلفونس! أنا أعرفك، تماماً كما أعرف نفسي». ثم خرج من الغرفة كي يذهب إلى غرفة الاستعلامات حتى يتأكد من هويّة المريض الموجود على السرير رقم 2 في الغرفة رقم 124. فعرف أنه عامل تركي يعمل في منجم «برينغين». ولكنه رفض ذلك، وقال: إنه بلجيكي، من أوستند، واسمه آلفونس دو سخيبّر. كان رقيباً في الجيش، مسؤولاً عن الاتصالات في الكتيبة البلجيكيّة التي ذهبت للمشاركة في الحرب الكوريّة. ما الذي جاء به إلى هنا، وبهذا الاسم؟!

عاد سيمون إلى الغرفة، وصار يحاول التحدّث مع المريض على أنه آلفونس، ولكن المريض لم يفهم كثيراً، لأن الممرض كان يتكلّم بدهشة وعصبيّة مشوبة بالمفاجأة والفرح أيضاً! طلب لاوند حضور مترجم حتى يفهم أكثر. في اليوم التالي، أتى المترجم، وصار ينقل كلام سيمون إلى آلفونس. فكرر أنه تركي، واسمه لاوند. ولا يعرف شيئاً عن آلفونس. ولكنه استدرك وقال:

- نعم. كنتُ جنديّاً وشاركتُ في الحرب الكوريّة، وفقدتُ الذاكرة هناك. ولكنني لا أعرف ما إذا كنتُ بلجيكيّاً أو ألمانيّاً أو إيطاليّاً أو أمريكيّاً؟ أنا أعرف أنني كنتُ أشبه جنديّاً تركيّاً اسمه لاوند محمد أمين أصلان أوغلو إلى حدّ كبير. وسافرت من كوريا إلى تركيا، وحللت مكان ذلك الجندي. وأصبحت فرداً من أفراد أسرته. وتزوّجت هناك، وصرت كرديّاً من تركيا!

ازدادت ثقة سيمون بنفسه وقال:

- صديقي آلفونس. أنا وأنت، والجندي إيريك دو روستوخن، والضابط مارتن فان ديلاريسيس، غادرنا أوستند معاً، على متن قطار إلى آنتويربن، ومنها على متن سفينة إلى ميناء بوسان في جنوب كوريا. نحن الأربعة كنّا من أوستند.

- أوستند؟ آنتويربن؟ ما هذه الأسماء؟ لا أعرفها!

- إنها أسماء مدن بلجيكيّة. أنا وأنت من أوستند.

- لا أذكر أي شيء.

- كنتُ في الكتيبة في سلك التمريض، ألا تذكر ذلك؟! صديقنا الجندي إيريك دو روستوخن كان من ضمن القتلى. وكذلك ظننا أنك

أيضاً من ضمنهم. بينما فقد الضابط مارتن فان ديلاريسيس ساقه اليمنى، إثرَ انفجار لغم به. بعد عودتنا، تركت الجيش. وكذلك غادرت أوستند إلى ليمبورغ، وسكنت في برينغين. والآن أنا هنا في هذا المستشفى منذ نحو ثماني سنوات.

أخرج سيمون صورة من جيبه ومدّها إلى آلفونس وقال له:

- انظر. هذه الصورة من مخلّفات الحرب الكوريّة، تجمعنا ونحن في خط المواجهة. الصورة التقطتها كاميرا حبيبة قلبك مارغريت الأمريكيّة. انظر. ماذا يوجد في يدك اليسرى؟ إنها الهارمونيكا التي كنت تعزف عليها لنا على متن السفينة وفي جبهات القتال أيضاً. انظر، دقق في الصورة.

كثرة المعلومات التي يقولها سيمون، كان وقعها على آلفونس غريباً ومفرحاً. ولكنه لا يذكر أيّ شيء مما يتحدّث عنه. وما لفت انتباهه أن صديقته يون الكورية أعطته الهارمونيكا، وأخذها معه إلى تركيا. وهي ما زالت موجودة لديه، ليس لأنه يجيد العزف عليها، بل لأنها ما تبقّى له من هويّته. وصار آلفونس يقول في نفسه، إنه رغم عدم تذكّره كل ما يسرده هذا الشخص، إلّا ان الصورة الموجودة في حوزته، والهارمونيكا، تؤكد كلامه على أنه آلفونس دو سخيبّر، وليس أي شخص آخر.

قال سيمون والفرح والسعادة تغمرانه وكأنّه عثر على كنز:

- آه لو تعرف أمّكَ أنكَ على قيد الحياة. ربما تموت من الجنون والفرح والسعادة. ولكن، دعني أؤكّد لك أنك آلفونس دو سخيبّر. سوف أتصل بالجيش، وأخبرهم بوجودك هنا، لاتخاذ كل الإجراءات التي من شأنها إعادتك إلى أسرتك وبيتك في أوستند.

- أمّي؟ أسرتي؟ بيتي؟ . . . في أوستند؟! قال آلفونس مستغرباً.

- نعم. نعم. هذا صحيح. أنا أعني ما أقوله. المهم أن تتماثل للشفاء.

في اليوم التالي أتت غزالة لزيارة آلفونس. فأخبرها بكل ما جرى معه يوم أمس. أخبرها أنه بلجيكي. وأنه من أوستند. ولديه أمّ وأهل وبيت هناك. . . ولكنه لا يتذكّر أيّ شيء عن ذلك. . . أيّ شيء!

ظنّت غزالة أنه يهلوس، وأن زوجها أصابه مسّ من الجنون. ولكن حين رأت صورته القديمة، ورأت الهارمونيكا بيده، بكت غزالة حزناً على حال زوجها، وفرحاً لمعرفة حقيقة هويّته. وشكرت اللّه على قضائه وقدره الذي أرجع هذا الإنسان إلى بلده. وأن هذه الحقيقة ستنقذه من عذاب العمل في المناجم، بعد أن كانت حياته قاب قوسين أو أدنى من الموت.

انتشر خبر أن لاوند أصلان أوغلو هو آلفونس دو سخيبّر في برينغين كالنار في الهشيم، وتغيّر تعامل المستشفى وتعامل المسؤولين في المنجم معه، وزاد الاهتمام به. هذا الأمر أشعر بقية العمال الأجانب بالفروق بين الأجنبي والبلجيكي. وكيف أن آلفونس حين كان لاوند أصلان أوغلو كان عاملاً عاديّاً، وبعد معرفة هويّته البلجيكيّة، أصبح يحظى باهتمام كبير! لكن آخرين قالوا: إن هناك جرحى بلجيك في حادثة المنجم، ولقد فاق الاهتمام بآلفونس الاهتمام بهؤلاء أيضاً، ليس لأنه بلجيكي، بل لغرابة قصته، وأنه جندي بلجيكي سابق، فقد الذاكرة في الحرب الكوريّة، وأعادته الأقدار إلى بلده من دون علمه.

كتبت الصحافة المحليّة في ليمبورغ عن حكاية آلفونس دو سخيبّر العائد من الموت بعد 10 سنوات من فقدانهِ ذاكرتهُ. جرى ذلك، بعد أن أكّدت السلطات العسكريّة أن لاوند هو آلفونس، بعد إجراء فحص البصمات وأخذ الصور والبيانات الشخصيّة. ولكن هذا الأمر، وهذه الفرحة، أدخلا السلطات في لغز آخر جديد؛ من هو الشخص المدفون في القبر المخصص لآلفونس دو سخيبّر في مقبرة أوستند؟! من هو هذا الجندي الذي دفن هناك على أنه آلفونس؟!

خرج من المستشفى، ولكنه لم يخرج من غيبوبة الذاكرة القابضة على حياته، ودخل في محنة أخرى. محنة مواجهة واقع جديد يُلزِمه على أنه بلجيكي، بالرغم من أنه لا يمتلك أي شعور بالانتماء إلى هذا البلد. يؤكّدون له أنه عاش عقدين من عمره هنا، على هذه الأرض، وتحت هذه السماء، وأن لغته كانت الهولنديّة - الفلامانكيّة. لكن الإحساس بالانتماء إلى هذا المكان، معدوم تماماً قياساً بمشاعر الانتماء التي يكنّها لكوريا، وبدرجة أقوى لتركيا! ولكن، ما نفع الانتماء البيولوجي وروابط الدم، مع انعدام الذاكرة تماماً؟!

يقولون له: إنك ابن هنا. ولكن لا يوجد في ذاكرته ومشاعره ما يؤكّد ذلك. بل إن تفكيره ومشاعرهُ مرتبطة بهناك البعيد البعيد، أكثر من هنا؛ بلجيكا! صار يشعرُ بأنه ربما أخطأ بالتوجّه إلى بلجيكا. وكان الأجدى به التوجّه إلى ألمانيا. ولكن، ليس هو من اختار مكان العمل. بل شركة تسفير العمال الضيوف إلى بلجيكا وألمانيا. وربما الأقدار التي أخذتهُ من وطنه جنديّاً منتمياً، هي نفسها التي أعادته إلى وطنه، نازحاً ومهاجراً غريباً، لا يشعر بأدنى درجات الانتماء إلى

أصله وبلده. حالة اغتراب نفسي وعقلي، يعجز الكلام عن التعبير عنها. ومع ذلك، زوجته سعيدة جدّاً من أجله، بهذه النهاية.

لم يخبر أحد أمّه المسنّة التي تعيش وحدها في منزلها، بعد زواج ابنتيها، بعودة آلفونس. تواصلت السلطات مع الشقيقتين: آنماري وشانا دو سخيبّر لإخبارهما بعودة شقيقهما من الموت. وأنه حدث هناك خطأ ما، في موضوع الشخص المدفون في القبر على أنه آلفونس دو سخيبّر. وأن السلطات تأكّدت من حقيقة أنه آلفونس. ولكنه فاقد الذاكرة تماماً، ومتزوّج ولديه ولد وبنت، ويحمل هويّة تركيّة. وطلبت السلطات من الشقيقتين مساعدتهما في التمهيد لإخبار الأمّ بعودة ابنها آلفونس. كانت صدمة الفرحة والمفاجأة شديدة على الشقيقتين أيضاً. لكنهما تقبّلتا الأمر. وذهبتا إلى زيارته في برينغين، وتأكدتا أنه هو؛ آلفونس.

كان لقاؤهما مع شقيقهما العائد من الموت، مؤثّراً ومؤلماً ومفرحاً في آن. لم تصدقا ما يجري أمامهما. فرحتهما برؤية طفلي شقيقهما لا توصف. ولكن آلفونس، لم تنتَبْهُ أيٌّ من مشاعر الأخوة تجاه هاتين السيّدتين، على الإطلاق. واحتراماً لمشاعرهما، حاول تصنّع الاستجابة معهما. ولكن مشاعره كانت محايدة تماماً. وفي طريق العودة من ليمبورغ إلى أوستند، صارت الشقيقتان تفكّران في طريقة التمهيد لإخبار أمّهما بالأمر. خطرت في بالهما فكرة سخيفة بأن تقصّا عليها رؤية حلم مشترك يعود فيه آلفونس للبيت بساق مبتورة، كمدخل للحديث مع الأمّ. وقررتا زيارةَ أمهما في اليوم التالي، للغرض نفسه.

استغربتِ الأمّ زيارتهما لها، رغم أنها لم تكن في عطلة نهاية

الأسبوع. وبعد شرب القهوة والاطمئنان عليها، بدأت آنماري بالحديث:

- أمّي، منذ عدّة أيّامٍ، يراودني حلم غريب، يتكرر.

- ما هو؟!

- أرى مناماً يعود فيه آلفونس للبيت. لكنه بساق واحدة. ويقول: إنه فقد ساقه في الحرب، وإنه لم يمت. هل لديكِ تفسيرٌ لذلك؟!

- أوه، يا ابنتي العزيزة، إنه مجرّد حلم.

- ولكنه يتكرر! أجابت، متصنّعة الدهشة والاستغراب.

- لا تفسير لدي، سوى أنك ربما اشتقت له.

- أمّي، تصوّري لو تحوّل هذا الحلم إلى حقيقة. وعاد آلفونس إلينا، على هذه الهيئة، مبتور الساق. هل ستقبلين ذلك؟!

- ما هذا السؤال الغريب والسخيف؟! كيف يمكنه العودة من القبر؟! هل جننتِ؟! هل تهذين؟! قالتها الأمّ، وهي تمسح دمعة نزلت من عينها.

- أنا أقول: تصوّري، افترضي. وإرادة الربّ فوق كل شيء. وهو الذي أحيا الموتى، وأعاد البصر إلى العميان. أليس كذلك؟!

- نعم، صحيح، إرادة الربّ فوق كل شيء. ولكن؟!

لمست شانا مرونة لدى والدتها. فقالت هي أيضاً:

- بصراحة يا أمّي، أنا أيضاً كنتُ أراه في الحلم عائداً، ولكن مبتور اليد. وكنت أخشى من قول ذلك لك، خوفاً من أفتح جراحك، وأجدد حزنكِ عليهِ. ولكن، أليس غريباً أن نراه أنا وآنماري في الحلم؟!

- الغريب ألّا أراه أنا في الحلم! أنا أمّه وليس أنتما!

قاطعتها آنماري بالقول:

- لكنك لم تجيبي عن سؤالي؛ إذا عاد آلفونس على هذه الهيئة، كيف سيكون شعورك؟!

- يا لك من سخيفة! لو عاد آلفونس مبتور الساق أو اليد أو أعمى أو مقعد...، فهو ابني، وعيني، وقلبي الذي ينبض. وهل تتوقّعين منّي أن أقول له: عد من حيث أتيت! وتعال بكامل صحّتك، وبكامل جسدك! ما هذا الهراء!؟

حبست آنماري أنفاسها، وصمتت لبرهة، ثم باحت بما تكتمه:

- أمّي، آلفونس حيّ. آلفونس لم يمت. والشخص الذي دفن في القبر، قبل عشر سنوات، لم يكن هو. آلفونس حيّ وسيعود إلينا، وبجسدٍ سليم. ولكنه فاقد الذاكرة.

انتابت الأم نوبة من الخرس والدهشة، وصارت تبحث عن كلمات تسعفها في التعبير عن مشاعرها المختلطة، بين الرفض والاستهجان والسخرية وبصيص من الأمل. وقالت:

- «هذا ليس وقت المزاح. ثم إن هذه أمورٌ لا مزاح فيها». قالتها في تأتأة وارتباك.

- أنا أعني ما أقوله. وسيكون آلفونس هنا، يوم السبت القادم، ولن يغادرك إلى الأبد، وسيملأ عليك هذا البيت مع زوجته وطفلهِ وطفلتهِ.

- أقول لك: كفّي عن المزاح وعن هذا الهراء. لم تعد لدي طاقة على التحمّل.

وبدأت آنماري تقصّ عليها حكاية آلفونس واكتشاف الفتاة الكوريّة له، ثم انتقاله إلى تركيا، وزواجه هناك. وثم عودته إلى بلجيكا كمهاجر وعامل في المناجم... إلى لحظة لقائهما به وزوجته وابنه وابنته. ومع حفلة البكاء والدمع، وتجدد الأمل في لقاء ابنها، صارت الأمّ جاهزة لتقبّل الأمر، ولن يكون اللقاء بينهما بتلك المفاجأة الصادمة التي لا تُحمد عقباها على سيّدة مسنّة عجوز.

نجحت الشقيقتان في التمهيد لحدث الاستقبال. ولكنهما أوقدتا في قلب أمهما جمر الانتظار أيضاً. باتتا ليلتهما مع الأمّ، ثم عادت كل منهما إلى بيتها وأسرتها في أوستند. وذكرتا أنهما ستكونان مع زوجيهما وأطفالهما يوم السبت هنا، لاستقبال آلفونس وأسرته.

لوعة الانتظار جعلت أيّام الأربعاء، الخميس والجمعة، تمرّ على الأمّ كأنها ثلاث سنوات. كانت تشعر بأنها تعيش حلماً جميلاً، تخشى الاستيقاظ منه. تعيش متعة وألم الانتظار كأنّها تسير حافية القدمين على طريقٍ مفروشٍ بالجمر والزجاج المتكسّر والملح، وأمل اللقاء بابنها الميّت - الحيّ، لا يفهِ حقّه أي تعبيرٍ أو كلام.

الساعة الثانية عشرة من ظهر يوم السبت 1 يوليو/ تمّوز 1962. أقرب كنيسة إلى منزل والدة آلفونس تبعد عنه مسافة 20 دقيقة سيراً على الأقدام. لكن الأمّ كانت تشعر بأن صوت ناقوس الكنيسة يرنّ ويطنّ في أذنيها وفي قلبها وروحها. نهارٌ من أجمل ما يمكن أن يكون؛ بسماءٍ رائقة، صافيّة، شديدة الزرقة، تتوسّطها شمسٌ تفيضُ حبّاً ونوراً. نوارس تحلّق، أصواتها أقرب إلى الزقزقة منها إلى الزعيق، بخلاف العادة. عوائلُ وشبابٌ وصبايا وأطفال يمرّون من الشارع متجهين إلى الشاطئ، لأنه يومٌ مثالي للسباحة والتمرّغ برمال

بحر الشمال في هذا النهار الصيفي الحارّ. تنظرُ الأمّ إلى ساعة يدها، وليطمئنّ قلبها أكثر، تعود إلى الداخل وتنظر إلى ساعة الحائط التي ترنّ مع رنين ناقوس الكنيسة. «الساعة الثانية عشرة، وكان من المتوقّع أن يصل إلى البيت في الحادية عشرة والنصف» تتحدّث الأمّ مع نفسها! وهي محقّة، ذلك أن أقرب مسار للرحلة من برينغين إلى أوستند، هو الاتجاه بالحافلة إلى محطة هاسلت، ومنها إلى لوفان، فبروكسل، ثم أوستند، مروراً بغينت وبروج. يعني من شرق بلجيكا إلى غربها. عادت الأمّ للوقوف أمام باب المنزل، وآنماري وشانا وزوجاهما وأطفالهما يتابعان حركة الأمّ ولهفتها. فجأة توقفت سيارة أجرة أمام المنزل، وخرج منها آلفونس وزوجته وطفلاه. قفزت إلى ذهن آلفونس مظاهر الاحتفال التي استقبل بها والده التركي وصوله إلى دياربكر. هنا، لا توجد سوى مجموعة من الأشخاص؛ سيدة عجوز، تزيد سنّها على الستين، وشقيقتيه وزوجيهما وأطفالهما. ركضت الأمّ باتجاهه، وعانقته وهي تقبّله بحرارة ودفء الفراق والاشتياق لشخصٍ عاد من المجهول، من الغيهب، من الموت. تقبّله وتبكي، ثم تنظر إليه، ولا تصدّق ما تراه عيناها. بادلها آلفونس العناق، احتراماً لمشاعرها، ولكنه لم يشعر بأنه يعانق أمّه. لم تنتَبْهُ مشاعرة البنوّة على أن هذه السيّدة المسنّة هي أمّه وهو ابنها الوحيد الذي فارقها قبل ما يزيد على عقدٍ ونيّف، وتم تصنيفه في عداد القتلى البلجيك في الحرب الكوريّة. وحين ناداها آلفونس «ماما»، كان تكريماً لها ولمشاعرها. وقال في نفسه إنه سيعتاد على هذه الحياة الجديدة على أنها حياته، مثلما حصل معه في كوريا وتركيا. وتمنّى في قرارة نفسه أن تكون هذه المحطة الأخيرة في حياته، ولا يكتشف

في ما بعد أنه ليس بلجيكيّاً أيضاً، وليس ابن هذه المرأة الحنون، وألّا تظهر مفاجأة أخرى في حياته تلقي به في مكان آخر، بلدٍ آخر، وأسرة أخرى، تقول إنها أسرته وأهله.

أمّا غزالة فكانت في غاية السعادة لهذه الخاتمة، وهي ترى التئام شمل زوجها وأسرته. وأثناء حديثها مع حماتها وشقيقتي زوجها، كانت لغتها الهولنديّة أفضل بكثير من لغة زوجها. وبقيت تناديه لاوند. شعرت بأن اسم آلفونس غريب وثقيل وغير مريح لها، اعتماداً على لغتها الأمّ الكرديّة، ولغتها التركيّة المكتسبة. أصلاً آلفونس نفسه، لم يكن يحبذ هذا الاسم، وطلب من أمّه وشقيقتيه أن ينادينه بلاوند. ونزولاً عند رغبته، حاولت الأختان التقيّد بالاسم الكردي، لكن الأمّ بقيت تناديه باسمه الحقيقي.

تحسّنت لغة آلفونس الهولنديّة، واتسعت دائرة علاقاته مع المحيطين به. ولكن علاقاته مع الأتراك والأكراد العاملين في مناجم الفحم لم تنقطع، وبقي يزورهم ويزورونه. إذ كان يجد نفسه مرتاحاً ومنسجماً معهم أكثر من تواصله مع زوجي أختيه. ويجد نفسه منتمياً إلى الشرق أكثر منه إلى الغرب. يجد نفسه لاوند أكثر من كونه آلفونس، رغم أن كل المعطيات والحقائق والوثائق أكّدت أنه آلفونس وليس لاوند. لكن مشاعره كانت مناقضة لكل هذه الوثائق.

أحيل على التقاعد المبكّر، بعد تسوية أموره القانونيّة، بحكم أنه كان رقيباً في الجيش البلجيكي. وتم استخراج هوية جديدة له. بعد مضي ثلاث سنوات له في أوستند، طلب من غزالة السفر إلى تركيا وزيارة أمّه التركيّة ريحانة كي تطمئنّ على أحواله، لكن غزالة كانت تمانع، ولا تريد العودة إلى هناك. تراجع لديها الحنين للوطن

والعائلة، وصارت تشعر بالانتماء إلى هذه البلاد، التي منحتها هامشاً كبيراً للحريّة؛ حريّة التعليم والعمل والكلام والقرار. بخلاف آلفونس الذي كان يعاني من حالة اغتراب دائمة، خفّت وطأتها، لكنها لم تنعدم. سنة 1965، عادا إلى تركيا. دخوله بيت أمّه ريحانة، كان كدخول يوسف على يعقوب، نتيجة الفرح الذي خلقته هذه الزيارة لها. كانت على فراش المرض، وتراجع اهتمام أولادها بها، في حين أن هذا الغريب، الذي عاش بضع سنوات في منزلها على انه ابنها لاوند، يحبّها ويشعر بأنه ابنها، أكثر من أبنائها الآخرين الذين حملتهم تسعة أشهر في بطنها.

أمضى آلفونس وزوجته ثلاثة أسابيع في دياربكر. وكانت غزالة تريد أن تغادر بعد مرور الأسبوع الأول من الزيارة، نتيجة الأسئلة والضغوط الكثيرة والاستفزازات التي كانت تتعرّض لها من قبل إخوتها وأخواتها ووالديها حول دين زوجها. وهل ما زال مسلماً؟ هل يشرب الخمر؟ هل يأكل لحم الخنزير؟ هل ما زال يصلي؟ أم ترك الصلاة؟! كيف تتعامل أمه الحقيقيّة معها ومع أولادها؟ هل تعاملهم على أنهم مسلمون أم مسيحيون؟! هل تأخذهم إلى الكنيسة؟!

بعد عودته إلى بلجيكا بسنة ونصف، ماتت أمّه ريحانة عن عمر ناهز الخامسة والستين. سمع الخبر أثناء اتصال تلفوني أجرته غزالة مع أسرتها. دخل في نوبة حزن واكتئاب شديدين، خفف حنان أمّه البلجيكيّة حزنهُ على أمه الكرديّة. أحياناً، كانت آنليز تشعرُ بالغيرة من أمّه الكرديّة. وأحياناً أخرى، تعجب بهذا العمق الإنساني والوفاء الذي لدى ابنها آلفونس، وأنه لم ينسَ الجميل الذي صنعته فيه تلك المرأة الكرديّة.

بدأ آلفونس يميل إلى العزلة والخروج من المنزل ومراجعة أوراق الذات وتقليب دفاتر الماضي. ولكن أي ماضٍ؟! فالماضي الذي يمتلكه يبدأ بلحظة فتحه عينيه على وجه يون الكورية. وأمّا الماضي الذي نقل إليه من خلال الأحاديث، يعتبره ماضياً مكتسباً، لا يتذكّره، ولا يعتبر أنه عاشهُ.

سنة 1974 ماتت أمّه آنليز. كذلك حزن عليها كثيراً، ولكن لم يكن بتلك الشدّة التي حَزِنَ فيها على موت أمّه ريحانة في دياربكر. انتابته رغبة السفر إلى كوريا وزيارة قبر يون، والاستفسار عن مصير العجوز الياباني هينرو زاماكي وزوجته الكوريّة تشوي زون هونغ. وصار يقول في نفسه «إنهما بالتأكيد فارقا الحياة الآن».

ماتت والدتهُ، بعد أن عاشت أجمل سنوات حياتها بعودة ولدها ومعه زوجته وطفليه. رحل عنها واحداً، وعاد إليها ثلاثة. دُفِنَتِ الأمّ في مقبرة أوستند الكائنة في شارع (Stuiverstraat)، إلى جانب زوجها، وذلك الجندي المجهول الذي دفن على أنه آلفونس. ليس بعيداً عن قبر العائلة، هناك المقبرة العسكريّة الملحقة بمقبرة أوستند، حيث يرقد جنود ألمان وإنكليز وبلجيك ممن قتلوا في الحربين الأولى والثانيّة. في كلّ زيارةٍ لقبر والديه، الذي هو قبرهُ أيضاً، وكُتب على صدر رخامه: الرقيب آلفونس دو سخيبّر، تولّد 21/ 3/ 1929، فقد حياته في 12/ 10/ 1951 في الحرب الكوريّة. كان آلفونس يزور قبور العسكريين أيضاً، ويتجوّل بين أضرحتهم ويقرأ أسماءهم وتواريخ ميلادهم ومقتلهم! ذلك أن والدته رفضت دفن الجندي الذي اعتبروه آلفونس، في المقبرة العسكريّة، وأصرّت أن يدفنَ إلى جانب والدِهِ. والآن، يجتمع في هذا القبر رفاة والديهِ ورفاة الجندي المجهول أيضاً!

بعد مضي 11 عاماً على وفاة والدته البلجيكيّة، ذات يوم، وأثناء زيارته قبر والديه، مرّ بالمقبرة العسكريّة وألقى نظرة بانورامية عليها، ثم قال في نفسه:

«ها هنا يرقد الجميع بسلام، كل المتقاتلين في الحربين العالميتين؛ ألمان، إنكليز، فرنسيون، بلجيك، كنديون، هولنديون. . . ، بعد أن أبادوا بعضهم بعضاً. وعلى بعد أمتار، يرقد جندي مجهول في قبر عائلتي على أنه أنا.

تلك الحرب البعيدة أخذت منّي كل شيء، وأبقتني على قيد الحياة. ويا ليتني فقدتها هناك، ولم أعشْ كل هذه السنوت في حرب استعادة الذاكرة. حرب ما زلتُ أخوضها، وأُهزَمُ فيها يوميّاً، ولكنني أموت، ولا أموت. أريد العيش في سلام، كهؤلاء القتلى، وهؤلاء الموتى. ولكن الأقدار تقحمني في حرب الذاكرة. ما أخذته منّي الحرب، لن يعيده السلامُ إليّ. بل يعجز السلام عن إعادتهِ إليّ. أنا محرومٌ من العيشِ بسلام أو الموتِ بسلام. ولا أعرف سبب ذلك. أهو عقابٌ إلهي؟! لكن، على ماذا؟! ما الذي اقترفته حتى يعاقبني اللّه عليه طوال حياتي؟! كل المحيطين بي يصرّون على أنني بلجيكي. ولكنني فقدت هذا الانتماء، ولا يمكنني افتعال وتصنّع أنني بلجيكي. ومع ذلك، أنا مُجبرٌ على أن أجاري وأساير كل هؤلاء، وأمثّل أمامهم دور آلفونس دو سخيبّر البلجيكي! هل لأنهم يحبّون أن أكذب عليهم؟! هل يريدون تعويض شيءٍ فقدوه؟! ربما هم صادقون. وبل هم صادقون فعلاً في تعاملهم معي. ربما أنا الذي لا يريد أن يكون ما يريدونه لي أن أكونه!».

توقّف آلفونس عن التداعي والمنولوج الداخلي لبرهة، وبخطواتٍ

وئيدةٍ عاد باتجاه قبرِ العائلة. امتلكتهُ لحظة انقطاع عن العالم، وكأنّه على خشبة مسرح، وبقعةُ ضوء مسلّطةٌ عليه وعلى ضريحه، ومن حوله ظلامٌ دامس. وصار يمشي جيئةً وذهاباً أمام الضريح ويتحدّث إليه:

«أيّها النائمُ هنا، في قبري، إلى جوار والديَّ، على أنكَ أنا. هل أنتَ أنا؟! لا، لستَ أنا. فمن أنتَ؟! وما الذي أتى بك إلى هنا؟! وكيف؟! أرجوك، أتوسّلُ إليكَ، انهض، وخلّصني مما أنا فيه. ربما وحدكَ القادرُ على فعل ذلك. طوال هذه السنوات من أكتوبر/تشرين الأول 1951 ولغاية ديسمبر/كانون الأول 1985، وأنت هنا، نائمٌ مرتاح، وأنا أعيشُ اغتراباتٍ تنهشُ بعضها بعضاً، أعيشُ نزوحاً وهجراتٍ لا نهاية لها. حان الوقت لأن تنهض من قبري، حتى أعودَ إليهِ، وارتاح من هذه الدنيا، من هذه الحياة، إلى الأبد. 34 سنة، وأنت نائمٌ هنا بالنيابة عنّي. 34 سنة وأنا أتعذّبُ ربما بالنيابة عنكَ، أو بالنيابة عن أشخاصٍ آخرينَ لا أعرفهم، ولم ألتقِ بهم في حياتي! يجب أن تنهض وتخبرني الحقيقة. يجب أن تنهضَ وتعودَ من حيث أتيت. انهضْ. دعنا نتحدّث. دعنا نتعارف. دعنا نتبادل الأدوار، حتّى تجرّب ما عانيته وأعانيه. أنت ترفض النهوض والخروج إلى حيث أنا، لأنك تعرف حقيقة مأساتي، وتخشى على السلام الذي تعيشه من الآلام والأحزان التي أعيشها. هكذا إذن! لا تريدُ النهوض والخروج من قبري. لا تريد إنهاء احتلالك قبري. سأحرر القبرَ منك. وأحررني منك. وأحرر الحياة منّي ومنكَ».

انتابته حالة من الهستيريا، وبدأ يهجم على الضريح، ويركلهُ، ويضربهُ باللكمات حتى نزّ الدمّ من يديه. فقد السيطرة على نفسه

تماماً. من شدّة الغضب والارتباك، التوتْ قدمه اليمنى، ما جعله يفقد توازنه، فسقط على الضريح، وارتطم رأسه بحافة القبر الحادّة. هذه الصدمة أحدثت جرحاً عميقاً في رأسه وكسراً في الجمجمة، ما أدّى إلى حدوث نزيف. وكلما ازداد خروج الدم من جسده، كان يشعر بالراحة والمتعة، لكأنّ روحاً شريرةً تسكنه، وها هو يتحرر منها الآن! لكأنّ الدم الذي يجري في عروقهِ فاسدٌ، وها هو ينزف، حتى يرتاح إلى الأبد. وقبل إطلاقه الشهقة الأخيرة، استعادَ ذاكرتهُ التي مرّت من أمام عينيه كشريط سينمائي سريع. استعاد لحظات الطفولة، وأيام الشباب، ولحظات خروجه من البيت والاتجاه نحو محطة القطار في أوستند. تذكّر مقولة ذلك الرجل العجوز، حين خاطبهم ساخطاً غاضباً: «إلى أين أنتم ذاهبون أيّها الحمقى». تذكر لحظة الانفجار العظيم، وسقوطه على الأرض، وانغراس يديه في دماغ جندي مقتول إلى جواره في تلك العتمة القاتلة. تذكّر هروبه المجنون من ساحة المعركة على غير هدى، وارتطامه بالشجرة. تذكّر لحظة فتحه عينيه على وجه يون الكوريّة... وهكذا، استدرك كامل حكايته، وكامل ذاكرته. وتأكّد له أنه آلفونس دو سخيبّر. تأكّد له أنه لم يعش آلفونس دو سخيبّر، لكنه مات على أنه الرقيب البلجيكي الذي عذّبته الحياة والحروب وأخذت منه الكثير، وكافأهُ الموتُ بأن أعاد إليهِ كل شيء، في اللحظة الأخيرة.

كان ذلك نهار يوم 17 ديسمبر/ كانون الأول 1985، في اليوم نفسه الذي غادر فيه آلفونس أوستند للحاق بالكتيبة البلجيكيّة التي شاركت في الحرب الكوريّة.

لم يترك آلفونس أيّة رسالة. لكنه طلب من ابنه يان (Jan) ومن

زوجته غزالة أن يتم دفنه في القبر نفسه الذي دُفِنَ فيه والداه والشخص المجهول الهويّة، على أنه هو. وبالفعل، تم فتح القبر، وتجميع عظام الجندي المجهول في صندوق. ثم وضع جثمان آلفونس إلى جانبه. وتمّ حفر بيانات أخرى على صدر رخامة القبر، ذُكر فيها: آلفونس دو سخيبّر. مواليد 31/ 3/ 1929. وفاة 17/ 12/ 1985. أوستند. فصار الضريح يضمُّ شخصين، بنفس الاسم، ونفس المواليد، ولكن بتاريخَي وفاة مختلفَين.

كان يان دو سخيبّر يتردد على تركيا ودياربكر، لأسباب كثيرة، منها أن نصفه كرديّ، ويجيد الكرديّة والتركيّة، وله علاقات كثيرة مع أكراد وأتراك. وحافظ على علاقة معيّنة مع أخواله ومع أعمامه المفترضين من أبناء محمد أمين أصلان أوغلو. سنة 2005، برق في ذهنه سؤال معرفة حقيقة الجندي المجهول الذي دفن في قبر والده، على أنه والدهُ. ذلك أن جدته آنليز وعمّتيه قلن: إن الجثّة كانت مشوّهة ومحترقة، ولم يكن بالإمكان التعرّف عليها، ودُفِنَت على أنها لآلفونس. وخامرَ يان ظنٌّ أنه ربما يكون ذلك الجندي المجهول، هو نفسهُ لاوند أصلان أوغلو. فتقدّم بطلب إلى المحكمة لفحص البصمة الوراثيّة (DNA)، بأخذ عيّنة من عظام ذلك الجندي، ومقارنتها بالبصمة الوراثيّة لأبناء محمد أمين أصلان أوغلو في دياربكر، بعد أن ذكر لهم تفاصيل الحكاية، وأنه ربما تكون الرفاة لابنهم! وكانت النتيجة مخيّبة للآمال. إذ لم يكن هناك تطابق، وبقيت هويّة ذلك الجندي مجهولة.

موتى يعيشون أكثر منّا

بعد مرور 25 سنة على كتابتِهِ روايتهُ الأولى، صدر عمله الروائي الثاني بعنوان «**موتى يعيشون أكثر مما ينبغي**» في نوفمبر/تشرين الثاني 2013. كانت الرواية طويلة، وأخذت 415 صفحة من الحجم المتوسّط. وقّع يان دو سخيبّر روايته هذه في معرض الكتاب السنوي الذي يقام في مدينة آنتويربن البلجيكيّة منذ 1931. هذه الرواية أيضاً فيها جانب من سيرة يان نفسه، ولكن الشخصيّة الأساسيّة فيها هو صديق سابق له؛ شاعر كردي من تركيا، تعرّف يان عليه سنة 1990 في لبنان. وانقطعت العلاقة بينهما لما يزيد على العقد. ثم عادت، بطريقة مفاجئة وغريبة. وما لبثت أن انقطعت مرّة أخرى بداية 2013، أيضاً بطريقة مفاجئة وغريبة. ونهاية هذه العلاقة، كانت نهاية الرواية أيضاً.

فكرة هذه الرواية قديمة تعود إلى سنة 1990، لكن يان تجاهلها وقتذاك. ثم عادت فكرتها تراودهُ سنة 2003، وشرع بكتابتها سنة 2010، وظهرت للنور سنة 2013، وأخذت كتابتها من عمرهِ ثلاث سنوات تقريباً. ورغم أنها طويلة ومملّة، بعض الشيء، بعكس روايته الأولى التي لم تزد صفحاتها على 212 من الحجم المتوسّط، إلّا

أنها حققت نجاحاً ورواجاً، لم تضع يان دو سخيبّر ضمن دائرة الضوء كروائي بلجيكي قوي ومحترف، رغم قلّة رواياته، وحسب، بل كانت سبباً في إحياء روايته الأولى، المنشورة سنة 1988، وبعثتها من الموت. إنهُ لأمرٌ غريبٌ حقّاً؛ أن تنجح رواية طويلة مملة، صدرت سنة 2013، وتساهم في إحياء رواية متوسّطة الحجم، صدرت قبل 25 سنة، للكاتب نفسه؟! والأكثر غرابة من ذلك، تحوّل الرواية القديمة إلى فيلم سينمائي طويل، أحدث ضجّةً وجدلاً في الأوساط السينمائيّة البلجيكيّة. كما زاد عدد طبعات الرواية القديمة على عدد طبعات روايته الجديدة! كل هذا شجّع يان على كتابة عمل روائي ثالث، حاول فيه أن يكون مختلفاً تماماً عن عمليه السابقين.

هذه المعلومات التمهيديّة، قرأها المحقق إيريك فان مارتن، قبل بدئه قراءةَ «**موتى يعيشون أكثر مما ينبغي**»، في إطار عمليّة التحقيق التي يقودها بحثاً عن حلّ لغز اختفاء كاتبها.

* * *

أثناءَ ركنها سيّارتها السبعينيّة إلى جانب مكتبةٍ لم ينتهِ بناؤها بعد، ركنتِ العمّال الذين يعملون في البناء إلى جانب ظلّها الممدد على الرصيف الذي يكتنفه الغبار. الصيفُ يتضوّرُ من الخواء المكتظّ بهموم وأسئلة المكان. بينما الشارعُ ملتهٍ بفهمِ وتفسير رائحة تعرّقها اللاهب والمثيرِ للشهوة. عملٌ شاقٌ لا يرحم، وصيفٌ شرسٌ لا يرحم، وكذلك رائحة تعرّقها ممزوجةً بعطرها الفرنسي، الذي لا يرحم. عاملُ بناءٍ واقفٌ على الرصيف ذاته، أمعنَ النظر في جسدها الثلاثيني المتواضع، ونكّلت نظراته بتفاصيلِها. كل شيءٍ فيها متوسّط، لا مبالغات فيه. إذا حذفنا طول كعب الحذاء، تصبح القامة

165 سنتيمتراً. وجهٌ متوسّط الابيضاض والاستدارة، عينان بنّيتان متوسطتا الحجم، يعلوهما حاجبان متوسّطا التقوّس. كذلك الفم والأنف. عنقٌ متوسّط الطول. نهدان متوسطا الحجم. الورك، متوسّط العرض، تكويرة الردفين والنهدين وارتعاشتها أثناء المشي، أيضاً متوسّطة الارتجاج. ما من شيءٍ يقفز على شيء في نسبة الزيادة أو النقصان. القميصُ أبيضُ معتدلٌ في شفافيّته وابيضاضه، وفتحة الصدر بالكاد يظهر منها الخط الفاصل بين تفاحتيها. التنورة خمريةٌ متوسّطةُ الطول، بحيث لا تظهر الركبتان إلّا أثناء الجلوس. ورغم طغيان كل هذا الاعتدال الرهيب، إلّا أن أنظار العمال كانت مترعة بالافتتان والشهوانيّة تجاهها. همسَ العامل الواقف على الرصيف قائلاً: «ما حاجة هذه البلاد الفقيرة بالمكتبات؟!. نحن بحاجة إلى معامل ومصانع ومطاعم وفنادق. . .، تديرها حسناوات كهذه، تمتلك كل هذه الدوائر والاستدارات والتكوّرات والمضائق والخلجان المتناسقة والمكتنزة».

بدا عليها الاستعجال، ولكنها لم تكن مسرعة تماماً. شعرت بأن ثمّة نظرات تلاحقها، لكنها مشغولة بشيء أكثر أهميّة حتّى من هذه المكتبة التي يتم بناؤها، وسيطلق عليها اسم جدها؛ فرناندو لويس دي ميندوزا، الشاعر الكولومبي الذي كان صديقاً للشاعرين الإسبانيين فريدريكو غارثيا لوركا ورافائيل ألبرتي ميرييو، وقتل هو أيضاً في الحرب الأهليّة الاسبانيّة من قبل أتباع فرانكو، بعد مقتل لوركا بثلاثة أعوام، لأنه كان من ضمن المتطوّعين الآتين من أمريكا اللاتينيّة لدعم الجمهوريين في كفاحهم ضد نظام فرانكو. ولكنه بقي شاعراً ومناضلاً مجهولاً في كولومبيا، ولم يتحدّث عنه أيٌّ من أدباء

وكتّاب بلاده المشهورين. كذلك تجاهله الإسبان، ولم يأتِ على ذكره أحد، حتى ألبرتي، لسبب غامض، رغم أن دي ميندوزا كان الشاعر الأمريكي - اللاتيني الوحيد الذي سافر إلى بلادٍ كانت تحتلّ بلاده كولومبيا، كي يتضامن مع ثوّارها ضد طغاتها. ومع ذلك، كانت هناك حالة تواطؤ جماعيّة غريبة ومريبة على دي ميندوزا! وظهرت قصته إلى النور بعد أن أثارتها حفيدته الصحافية لاورا خوان فرناندو دي ميندوزا سنة 2000، بعد مضي 61 سنة على مقتله. وذلك أثناء عملها في السفارة الكولومبيّة في مدريد بين عامي 1999 و2000. فقررت بلدية بوغوتا تكريمه وإطلاق اسمه على شارع وعلى مكتبة عامّة، هي التي يتمّ بناؤها الآن. وسيتم الاحتفال به وإعادة طباعة أعماله، في هذه المكتبة التي من المفترض أن ينتهي العمل فيها وافتتاحها في الخامس من يناير/كانون الثاني المقبل، إحياءً لذكرى ميلاد هذا الشاعر الكولومبي الشهيد في إسبانيا، والمولود سنة 1895.

سيّارتها الزرقاء القديمة، من نوع «فورد موستانغ» موديل 1970، ببابين، وسقفها المنحني حتى مؤخرتها، يُقال أنه تمّ إنتاج 499 وحدة منها فقط، سنة 1970. وهي من ضمن الأشياء التي ورثتها لاورا عن أبيها؛ خوان فرناندو دي ميندوزا، اليساري الكولومبي المتقاعد، المولود سنة 1937، والذي اغتالته عصابات الجريمة سنة 1997. لاورا المولودة سنة 1971، ليست متأكّدةً تماماً أنها أصغر أبناء والدها. لأنه ما عاد بالإمكان إحصاء أولادِ الشرعيين وغير الشرعيين. إذ تجاوز عددهم اثني عشر، وهي الثالثة عشرة بينهم، باعتبارها الابنة الشرعية من زوجته باولا مورينو سانشيز. هذه كانت

زوجته الثالثة، ومن المفترض أنها آخر زيجاته الشرعيّة. وبسبب كثرة الأبناء والبنات الورثة، اكتفت لاورا بالحصول على سيارة الفورد الزرقاء، وتنازلت عن حقها في باقي الممتلكات من العقارات والأراضي.

جدّها الشاعر ووالدها السياسي ينحدران من أسرة إقطاعيّة غنيّة. وكان من الطبيعي أن يمتلك والدها سيارة من هذا النوع وقتذاك، في بلد مثل كولومبيا. وما لم يكن طبيعيّاً أن يكون خوان فرناندو دي ميندوزا، سليل العائلة الغنيّة، يساريّاً ومنتمياً إلى منظمة القوات الثوريّة الكولومبيّة (فارك)، ثم منشقّاً عنها!

التحقيقات حول مقتله، وصلت إلى طريق مسدود، بعد مقتل قاضي التحقيق في هذه الجريمة أيضاً. وما هو معروف عن والدها أنه كان كاتباً سياسيّاً مرموقاً، ينتقد الحكومة، وينتقد منظمة (فارك) وينتقد عصابات المافيا والجريمة المنظّمة، ويحاول تسليط الضوء على العلاقات والمصالح المتشابكة بين هذه العصابات والسلطة والمعارضة، ويكشف العالم الخفي أو الدولة الخفية، التي تجمع مصالح النظام والمعارضة والعصابات. ليخلص إلى نتيجة أن كولومبيا هي نموذج مصغّر لهذا العالم، رغم ما فيه من قوانين ومُثُل وشرائع، لكنه محض غابة، تحكمها عصابات السياسة والمال، والمنظمات المتمترسة خلف الأيديولوجيّات الخلاصيّة. وأن هذه العصابات المؤدلجة، شأنها شأن عصابات المافيا والجريمة المنظّمة، وبل ربما هذه أفضل من تلك، لأنها لا تبيع الأوهام للناس، بل تبيع المخدرات، وتقول عن بضاعتها إنها مخدرات، ولا تجمّلها باليوتوبيا وسحر وبريق الشعارات الخادعة للناس.

ومَن يدفع ضرائب الحروب والصراعات بين هذه العصابات السياسيّة والأيديولوجيّة وأرباب الجريمة، هم الجهلة أو البسطاء والفقراء، أو السذّج وأصحاب الأحلام الورديّة من الثوّار والشعراء.

هذه الأفكار والآراء التي كان يثيرها خوان فرناندو دي ميندوزا في مقالاته، أكسبته عداء النظام الحاكم و(فارك) والمافيا الكولومبيّة وتجّار المخدرات، على حدّ سواء. وهكذا، ورثت لاورا حبّ الشعر عن جدها، ولكنها لا تكتبه، وتكتفي بترجمته إلى الإسبانيّة. وورثت من أبيها سيّارة الفورد الزرقاء تلك، وابتعدت تماماً عن عالم السياسة وسمومها في كولومبيا، رغم عملها الصحافي الذي أدخلها السلك الدبلوماسي كموظّفة ضمن السفارة الكولومبيّة بمدريد، ثم انتقالها للعمل كملحقة ثقافيّة في القنصليّة الكولومبيّة باسطنبول. وفي كل فترات التنقل من بوغوتا إلى مدريد ثم اسطنبول، كانت تأخذ معها سيّارتها الزرقاء، رغم كلفة شحنها على متن السفن والبواخر، لأنها كانت تخشى عليها في بلدها، ولا تخشى عليها في إسبانيا وتركيا. سيّارتها صارت أشبه ببيتها المتنقّل معها. وأَحَبُّ إلى قلبها السفر على متن البواخر من السفر بالطائرات. إذ تشعرُ بمتعة لا يمكن تصوّرها، رغم طول المسافة من اسطنبول إلى إيطاليا ومنها إلى ميناء قرطاجنة على ساحل الكاريبي، مروراً بإسبانيا. الآن، تقضي لاورا عطلة الصيف في بوغوتا. لكنها منهمكة في أمرٍ يشغلها كثيراً.

آلام مقتل والدها عزّزت لديها شغف القراءة. والغريب فيها أنها ابتعدت عن قراءة أدب أمريكا اللاتينيّة، وأدباء كولومبيا على وجه الخصوص. إذ كانت تقول في نفسها إن الواقع الكارثي والمرير الذي تعيشه هذه البلاد، لا يحتاج إلى «واقعيّة اشتراكيّة» كانت تصفها

بالكاثوليكيّة الستالينيّة في الأدب، تسعى إلى نمذجة الأشياء وتأبيد الشعارات وتحويل الأدب إلى خرقة حمراء، وتحويل المجتمعات والشعوب إلى ثيران تلاحق هذه الخرقة. برأيها، أدب كهذا لن يكون مرآةً تعكس واقع بلدان أمريكا اللاتينيّة. كذلك كانت تعتقد أن واقع هذه البلدان والمجتمعات لا يحتاج إلى «واقعيّة سحريّة» موغلة في التوريات والأسطرة والفانتازيا، تستبطن أكثر مما تفصح، وتموّه أكثر ما ينبغي عليها أن توضّح. كانت تقول في نفسها: «كولومبيا بلدي، وأعرفه. ولا أحتاج إلى شخص آخر، حتّى ولو كان كولومبيّاً، أن يطلعني على واقع بلدي عبر الأدب. هذه الواقعيّة المريرة الكارثيّة التي يعيشها الناس هنا، قدّموها للعالم على أنها واقعيّة سحريّة!؟».

بعزوفها عن الأدب الكولومبي وأدب أمريكا اللاتينيّة، ربما أرادت الابتعاد عن عالم تعيشه، وليست بحاجة إلى قراءته في الرواية والشعر. ونما لديها شعور مفاده أنها لا تريد إعادة اكتشاف بلادها عبر الأدب. وأن الواقعيّة السحريّة التي يتحدّثون عنها، ربما تنفع أشخاصاً غرباء عن امريكا اللاتينيّة في معرفة واكتشاف هذه البلدان وآدابها، ليس بأعين آلام ومآسي هذا الواقع، بل بأعين من يمارس قراءة سياحيّة أدبيّة في عوالم أمريكا اللاتينيّة. وربما هناك سبب آخر غامض جعلها تهجر قراءة أدب بلادها، وتريد قراءة آداب بلادٍ وشعوب بعيدة عنها.

أرادت الهرب إلى البعيد، ولفتت انتباهها تركيا، فقرأت كل ما وقع تحت يديها من قصائد ناظم حكمت، وأورهان كمال، وروايات ياشار كمال وأورهان باموك المترجمة إلى الإسبانيّة. وما لم تجده مترجماً إلى الإسبانيّة، قرأته مترجماً إلى الإنكليزيّة. وقرأت لأليف

شفق، والتقت بها، ولكنها لم تعجب بما تكتبه. هذا الولع والافتتان بالأدب التركي، دفعاها لتعلّم اللغة التركيّة، وهي لمّا تزل في بوغوتا. تواجدها في تركيا زاد من مهاراتها اللغويّة التركيّة، بخاصّة حين بدأت ترجمة قصائد شاعر كردي من تركيا يدعى أوميد سَرخَتي (Omîd Serkhetî). حيث ترجمت له حتى الآن ما يزيد على 60 قصيدة. هذا الشخص يكتب بلغته الأمّ الكرديّة ويكتب بلغة النظام الذي يضطهده ويضطهد شعبه، ويبدع بها وفيها.

يقول عنه بعض نقّاده وقرّائه: إن كتابته بلغته الأمّ وباللغة المكتسبة، هي بنفس المستوى والقوّة والعمق. واكتشفت لاورا ذلك، بعد سعيها نحو تعلم اللغة الكرديّة أيضاً، ومشاركتها في دورات تعليم اللغة الكرديّة التي كان ينظّمها المعهد الكردي في اسطنبول. وهكذا صارت تتقن التركيّة والكرديّة. وإذا كان إتقان التركيّة يعود الفضل فيه إلى ناظم حكمت وياشار كمال وأورهان باموك وأحمد عارف، فإن تعلّمها الكرديّة يعود الفضل فيه إلى أوميد سَرخَتي الذي أصبح حبيبها وعشيقها، من خلال ترجمتها لقصائده، من دون علم صاحب القصائد بذلك! هكذا، عشقت امرأة كولومبيّة رجلاً كرديّاً غريباً من تركيا، قبل أن تلتقيه. عشقته من خلال ولعها بنصوصه الشعريّة التي تفيض ألماً وحزناً وكآبة، ورغبة جارفة في الانتحار، والعجز عن تنفيذ ذلك.

سنة كاملة، ولاورا تترجم قصائد أوميد، وفي كل قصيدة تقرأها وتترجمها، تزداد حبّاً له، دون أن تلتقيه، فتقتلها لوعة وشغف اللقاء بهِ. أوّل قصيدة قرأتها له كانت بمحض الصدفة، في أغسطس/آب 2001، أثناء تصفّحها أحد المواقع الإلكترونيّة الأدبيّة التركيّة.

وقتذاك، كانت تتعلّم التركيّة، وتقرأ كل ما يقع بين يديها من نصوص. تاريخ كتابة القصيدة كان قديماً. ذلك أن أوميد اعتاد أن يذيّل قصائده بتواريخ وأمكنة ولادتها. هذه القصيدة التي هزّت لاورا من الأعماق وبمثابة الصاعقة التي ضربت قلبها، كانت بعنوان «فحم حجري».

كنتُ حكايةَ عشقٍ، تفحّمت من الطعن والسرد.
دوّنتها شجرةُ جوزٍ عتيقة.
دوّنتها بدمع العابرينَ بها، الآتينَ من الحروب العمياء.
دوّنتها بدم العابرين بها، الذاهبين إلى المقابر.
شجرةُ جوزٍ هرمةٍ، أنجبت سبع سماواتٍ من الحزن...
وسبع أراضٍ من الألم...
وسبعة بحارٍ من انتظار العاشقات عودة عشّاقهنَّ من الموت...
وسبعة أوطانٍ مهاجرةٍ بعيداً عن شعوبها التي تأكلُ بعضها بعضاً.

* * *

كنتُ حكاية عشقٍ، تفحّمت من السرد والطعن.
دوّنتها شجرةُ جوزٍ عتيقةٍ ويتيمة.
عن غابةٍ عشقت نهراً ضريراً.
ونهرٍ عشقَ وادياً مليئاً بالغزلان.
وغزلانٍ حُبلى بغيومٍ كثيفة.
وغيومٍ عشقت غابةً انتحرت احتجاجاً على هبوبِ الحرب.

* * *

كنتُ حكايةَ عشقٍ، تفحّمت من الطعن والسرد.
كتبتها شجرةُ جوزٍ عتيقة.
ودفنتها تحت كبد الفجر.
ودفنت كبدَ الفجرِ تحت أنقاضِ الأزمنة.
ودفنتِ الأزمنة تحت ألسنةِ المجهول.
كي أتحوّل بعد مئة ألف عام...
إلى فحم حجري.
يستخرجهُ شاعرٌ مجهول من منجم الأكاذيب والأوهام...
أثناءَ بحثه عن حقيقةٍ يتيمةٍ تائهة.

مكتبة
t.me/t_pdf

23/ 10/ 1997

زاب - كردستان الجنوبيّة.

هذه القصيدة كتبها حين كان مقاتلاً، في منطقة زاب بكردستان العراق، حيث معسكرات حزب ثوري كردي. كتبها، بعد أن شهد محاكمة وتصفية مقاتلة كرديّة، من كرد سوريا، اسمها بنفش (Banafsh)، اتهمها الحزب بأنها جاسوسة لأمريكا وإسرائيل وللنظام السوري على حدّ سواء، وتريد شقّ صفوف الحزب، وتشكّل تكتلات مناطقيّة! أجرى الحزب لها محاكمة ثوريّة - صوريّة، وحكم عليها بالإعدام، ونفّذه. هذه الفتاة التي انتسبت إلى الحزب جرياً وراء شعارات التحرر من المجتمع الذكوري، وتحرير كردستان، تمَّت تصفيتها بتهم متناقضة وغريبة. كان أوميد يشعر أنه بصمته وخوفه وجبنه، وعدم الإفصاح عن رفضه هذه المهزلة التي أطلقوا عليها اسم

المحكمة الثوريّة، أنه ضالع في قتل هذه الفتاة. فكتب تلك القصيدة، متدثّراً في التورية، لئلا يشتبه به أحد على أنه مارق أو ينتقد أو يومئ إلى مساوئ الحزب والثورة، لكن تلك القصيدة فشلت في فكّ عقدة الذنب لديه، حتى بعد تركه الحزب. الكثير من رفاقه المقاتلين كانوا يتّهمونه بأنه يفتعل ويتصنّع دور المثقف والشاعر، تهرّباً من الأعمال الحزبيّة اللوجستيّة والمهام القتاليّة ضدّ الجيش التركي. بدليل أن قصائده خالية من ذكر اسم القائد أو اسم الحزب أو أسماء الشهداء، ولا تحضّ على الانضمام للحزب والثورة! وبالتالي وجوده في الحزب كعدمه. بل إن البعض كان يروّج أنه عالة على الثورة، ويجب محاكمته. كل هذه الإهانات كانت تكال له في الاجتماعات وجلسات النقد الذاتي. ولا يعرف، كيف نجا خلال تلك الفترة، ولم تتم محاكمته وتصفيته، لكثرة التقارير الكيديّة التي كانت تُكتبُ ضدهُ.

عنوان تلك القصيدة أصبح عنوان كتاب شعري ترجمته لاورا من التركيّة إلى الإسبانيّة، ضمّ 25 قصيدة متفاوتة الحجم. وصدر هذا الكتاب الشعري عن دار «سيمون بوليفار» للطباعة والنشر في بوغوتا. وصدرت منه حتّى الآن أربع طبعات، ولاقى رواجاً كبيراً.

ها هي لاورا الآن، بعد أن ركنت سيّارتها الزرقاء، دخلت مبنى دار «سيمون بوليفار» كي تسلّم مديرها البروفة الأخيرة لكتاب شعري جديد مترجم لهذا الشاعر الكردي التركي؛ أوميد سَرخَتي، من الكرديّة إلى الإسبانيّة، بعنوان «الوطن - الهذيان». وهو عنوان قصيدة له كتبها في نفس يوم كتابة قصيدته «فحم حجري» ولكن في سنة مختلفة؛ 23/ 10/ 2000.

الوطن - الهذيان

تحمَّلني قليلاً.
سيجارتي على وشك الانتهاء.
وصدري يوشك إتمام اهترائه.
من حقّك التذمّر...
وغرسُ منجلكَ في كبدي.
وإنْ شئت، من حقّكَ التنكيلُ بجثّتي، أو تركها للكلاب.
فقط، تحمَّلني قليلاً.

* * *

ما من أحدٍ أعاتبهُ... مااااا من أحد.
أيّامُ الأسبوعِ قتلت شهورها والفصول... وغادرت.
محطات القطار والترام والباص، قتلت المسافرين والمنتظرين... وغادرت.
قصائدي التي كتبتها، طعنتني وغدرت بي... ورحلت.
المدينة، قتلت كل أحيائها، شوارعها، حدائقها، معالمها... وغادرت.
رفاقُ السلاح...
رفاقُ الكلمة...
رفاقُ الحانات، البارات، الكرخانات... قتلوا بعضهم في حرب أهليّة... وغادروا.

ما من أحدٍ، ما من شيءٍ تبقّى لي، أعاتبهُ ويعاتبني.
وحدكَ المتبقّي، فتحمّلني قليلاً، قبل أن أغادركَ.

* * *

قريباً، سأنتهي من تمسيد حبلِ مشنقتي.
أمسّدهُ من أحلامِ الثوّارِ ووبرِ الغزلان اللاتي مرّت بي.
سيمنحكَ ذلك الفرصةَ لتشمتَ بي أكثر.
سأجعل من كتبي، كرسي الإعدام الذي أقف عليه.
وستلفُّ الحبلَ الذي مسّدتُهُ حول عنقي.
وستركلُ الكرسيَ، وأبقى معلّقاً، أرتعش من صقيعِ الهزيمةِ المستعر.
وسترتاحُ منّي إلى الأبد.
فقط، اصبرْ، وتحمّلني قليلاً...
أيّها الوطن - الهذيان، والهذيان - الوطن.

23/ 10/ 2000

اسطنبول

* * *

أوميد سَرخَتي هو الاسم الحركي لهذا الشاعر. واسمه الحقيقي هو أوغور كورقماز، ولد في مدينة فارقين التاريخيّة التابعة لمحافظة دياربكر سنة 1962 بعد ولادة أربع بنات. كان والده حداداً، يريد تسميته أوميد، ويعني الأمل باللغة الكرديّة، لكن السلطات التركيّة تمنع تسجيل المواليد بأسماء كرديّة. لم يكمل أوغور تعليمه

الجامعي، حيث كان طالباً سنة ثالثة في كليّة الطبّ بجامعة دجلة، حين التحق بحزب العمال الكردستاني (PKK) في أبريل/ نيسان 1990، تحت تأثير إضرام فتاة كرديّة تصغره بثلاث سنوات، النار بجسدها، اسمها زكية آلكان، احتجاجاً على القمع والاضطهاد اللذين يعانيهما الكرد في تركيا. زكية وأوغور كانا في الجامعة نفسها، وفي الكليّة نفسها، وفي الخليّة الحزبيّة الطلابيّة اليساريّة نفسها. ورغم أن أوغور كان يكبرها سنّاً، وأكثر منها ثقافةً ووعياً، إلّا أنه كان منجذباً لها، ومفتوناً بها. وما زاد من احتراقه في حبّه لها أنهُ من طرف واحد، وأن زكية لم تكن تبادله أيّة مشاعر. بل وكانت تتجاهله في أوقات كثيرة، وتجري وراء أحلامها الثوريّة، كطفلة تركض وراء فراشة ملوّنة.

في بداية علاقته مع الشعر، أثناء الحياة الجامعيّة، كان أوغور يزاول التورية في القصائد التي يكتبها، إذ يغازل حبيبةً، يعتبرها كردستان، تفادياً لغضب رفاقه الحزبيين، ولئلا يحرج زكية أمام الرفاق أيضاً، إلّا أنه كان يعنيها هي، في غزله. ولم يكن تغزّله بالوطن والحريّة والثورة، إلّا تغزّلاً بها وحدها. لكنها فاجأته وصدمته، وقتلته، حين استيقظ أوغور صبيحة يوم 21 مارس/ آذار 1990 بخبر إضرام زكية النار بجسدها، فوق السور التاريخي لمدينة دياربكر. تركت زكية رسالة فيها الكثير من الشعارات والكلام السياسي والأيديولوجي الذي دفعها لقتل نفسها. هذه الحادثة خلقت جرحاً أبديّاً عميقاً في شخصيّة أوغور، لا يريد أن يندمل. فقرر الالتحاق بالحزب الكردستاني، كي يقاتل الجنود الأتراك ويحقق جزءً من الأحلام التي قتلت حبيبته نفسها في سبيل تحقيقها. زكية لاحقت

فراشة أحلامها، فأضرمت النار بجسدها. وأوغور لاحق طيف زكية، وحبّه الذي لم يجرؤ حتّى على مصارحتها به. وبدت حاله كحال من يريد معاقبة نفسه على جبنه. تشكّل لديه هاجس أنه لو فاتحها بحبّه، لربما ما أقدمت على إحراق نفسها. ولكن الفتاة كانت مدجّجة بالأيديولوجيا، ومسلوبة العقل والإرادة، وترى العالم والحياة والوطن من خلال ثقب إبرة الحزب والأيديولوجيا.

بعد تقديمه طلب انتسابه الشفهي والكتابي، سارع الحزب، وعبر قنواته، إلى توصيله لمعسكره الموجود في سهل البقاع اللبناني. وهناك أطلق أوغور كورقماز على نفسه الاسم الحركي «أوميد» الذي كان والده يريد إطلاقه عليه. ولأنه كان هناك عنصر آخر اسمه أوميد من مدينة ديريك الكردية في سوريا، قرر أوميد إلحاق لقب «سَرخَتي» باسمه، ويقصد به كردستان تركيا التي يفصلها خط الحدود عن كردستان سوريا والعراق، بهدف التمييز بين أوميد التركي وأوميد السوري. وفي معسكر البقاع أيضاً، تعرّف أوميد على يان دو سخيبّر، الكاتب البلجيكي المتعاطف مع الأكراد ومع قضية حزب العمال الكردستاني وكفاحه ضد تركيا. ذلك أن يان أو جان، كما كان الكرد ينادونه، بعد عودة والده إلى بلجيكا، لم يقطع علاقته وزياراته للمكان الذي ولد فيه؛ دياربكر. وحافظ على لغته الأمّ الكرديّة. وتشرّب المشاعر الكرديّة من أمّهِ الدياربكريّة. هذه الأجواء والأسباب وكذلك ميوله اليساريّة، دفعته للتعاطف مع كرد تركيا. كان يان موجوداً في لبنان وقتذاك، كي يؤلّف رواية داعمة للثورة الكرديّة في كردستان تركيا، وبقي في بيروت ستة أشهر، يتردد على معسكر الحزب، ويلتقي بزعيمه، ويلتقي بالمقاتلين. ولكن لقاءه بأحد

المنشقين الهاربين من الحزب، واختباءه في شقته، لحين تأمين هروبه إلى أوروبا، وكلام ذلك المنشق عن الحياة الحقيقيّة الخفيّة داخل الحزب، قلب كيان وموقف يان دو سخيبّر رأساً على عقب، وغيّر موقفه من العمال الكردستاني مئة وثمانين درجة. أصيب يان بصدمة عظيمة حين تعرّف على الجانب الخفيّ وقصص الفظائع والتصفيات التي جرت وتجري داخل الحزب. فعاد إلى بلجيكا، خائباً ومتكدّراً مهموماً. لم يدخل في معارك وانتقادات مع الحزب، وازدادت لديه الرغبة في الاستماع للرواية المناقضة للرواية الرسمية الصادرة عن الحزب. وبدأ يعيد النظر في التاريخ المنقول له عن الحزب وأمجاده وبطولاته وأساطيره. وبقي محتفظاً بذاكرة قويّة وبأسماء من التقى بهم في معسكر البقاع اللبناني، ومن بينهم أوميد سَرخَتي.

بعد مضي ما يزيد على 10 سنوات، وتحديداً سنة 2003، وقع بين يدي يان ديوان «فحم حجري» للشاعر الكردي أوميد سَرخَتي، مترجماً من الإسبانيّة إلى الفرنسيّة. فوراً عرف صاحبه، بخاصّة أن الكتاب مذكورة فيه نبذة عن الشاعر، بالإضافة إلى وجود صورته على الغلاف. كان الكتاب مفاجأة كبيرة ومدهشة ليان الذي بدأ البحث عن المترجمة الإسبانية لاورا دي ميندوزا، كي يأخذ منها معلومات عن رفيقه القديم أوميد. لكنها فاجأته أكثر بقولها إنها قطعت علاقتها به، بعد أن أنجبت منه طفلاً.

حكاية لاورا مع أوميد، وكيف أحبّتهُ من قراءة وترجمة قصائده، وكيف تعرّفت عليه، وكيف ساهمت في شهرته، ثم كيف افترقت عنه، والأسباب التي دفعتها لاتخاذ هذا القرار المصيري، كل ذلك، ساهم في بروق الفكرة القديمة حول كتابة رواية تتناول تجربة الكرد

وكفاحهم ضد تركيا، في ذهن يان، وقرر إحياءها وتطويرها لتكون رواية عن ضحايا الحرب الكردية - التركية. وكيف أن لاورا الكولومبيّة وطفلها أصبحا من ضحايا هذه الحرب، بعد أن كان وما زال أوميد سرختي من أوائل ضحاياها. والفكرة الرئيسيّة في روايته التي سيشتغل عليها، أن ثمة حروباً لا نخوضها، لكننا نصبح في عداد ضحاياها. أنجز هذا العمل في أكتوبر/تشرين الأول 2013، وصدر عن دار «دو ميوين» (De meeuwen) في مدينة آنتويربن، في العام نفسه.

سافر يان إلى تركيا والتقى بالاثنين، بـ لاورا وأوميد. واكتفى فقط بالاستماع لهما، ولم يشأ التأثير على خياراتهما وقرارهما بالانفصال. لكنه استمع وحسب. وفي ما بعد، فرّغ كل تلك النقاشات على صفحات روايته.

تواعدت لاورا ويان على اللقاء في أحد المقاهي القريبة من مقرّ القنصليّة الكولومبيّة الكائن في شارع «علي كايا» بحي «لافنيت» الاسطنبولي. ولم تحبّذ أن يكون اللقاء في أحد مقاهي شارع الاستقلال، لأن أغلب زوايا هذا الشارع ومقاهيه ومطاعمه وباراته تذكّرها بأوميد. وهي الآن، تحاول أن تنساه، ربما كي تتحرر منه ومن حبّها له. كانا يتراسلان ويتحدّثان بالإنكليزيّة، رغم أن يان ولاورا كانا يتقنان الكرديّة والتركيّة. وأثناء اللقاء، أكملا الحديث حول تجربتها معه أيضاً بالإنكليزيّة.

- دعيني أحدّثكِ أوّلاً عن علاقتي معه ومعرفتي به. إذ لم ألتقِ به منذ 13 سنة تقريباً. كان لقاؤنا الأوّل سنة 1990، في معسكرات (PKK) بسهل البقاع اللبناني. قيل إنه يكتب الشعر، وإنه ترك

الجامعة ومختبرات الطبّ، واتجه للنضال والقتال لأجل حقوق شعبه. قلتُ في نفسي، وقتذاك، إنه «نسخة مختلفة من آرنيستو تشي غيفارا الذي ترك الطبّ وانخرط في العمل الثوري في سبيل قضايا وحرية وحقوق الشعوب المضطهدة». لمحتُ في عينيه السوداوين بريقاً قادحاً. لكن صوته كان مترعاً بقلقٍ غريب وملتبس. كان كتلة من الحماسة والتوثّب والتوقّد، والقلق أيضاً. قال لي إن والدَيه لا يعرفان التكلّمَ كلمةً واحدةً بالتركيّة. ورغم أنني أخبرته أن بإمكانه التكلّم بالكرديّة، فأنا أجيدها، وهي لغتي الأمّ، لكنه كان ينزلق للكلام بالتركيّة، لأن الجوّ والمناخ العام في الحزب يرجّح الكلام بالتركيّة، رغم أن اسمه حزب العمال الكردستاني! لم أكترث للأمر، وتركته على حريّته في الكلام. بدا لي شابّاً حالماً، وسط موجتين متعاكستين من الأحلام؛ أحلام الشاعر، وأحلام الثوري. ولكن في قصائده المترجمة إلى الفرنسية، نقلاً عن ترجمتكِ الإسبانيّة، وعودتي إلى النصوص الأصليّة بالكرديّة والتركيّة، اكتشفت انهياراً مريعاً، ورماداً واحتراقاً داخليّاً هائلاً، يكابده هذا الثوري السابق. وأنه محضُ ميّت يعيش، لا أكثر.

أنهى يان استهلاله في الحديث، مفسحاً المجال أمام لاورا في الكلام، التي كانت ممعنة في الإنصات، لدرجة أن المرء كان يظنّ أنه غالبها الشرود. ولكن لم يخلُ إنصاتها المركّز من لحظات شرود، كانت تسترقها من الاستماع إلى كلام يان، وتعيدها إلى بدايات علاقاتها مع أوميد. أطلقت تنهيدةً، وحاولت استجماع نفسها وأفكارها، وباشرت الحديث:

- شيءٌ غامض شدّني إليه، حين قرأت أوّل قصيدة له. ربما

عزوفي عن قراءة الأدب الكولومبي خصوصاً والأمريكي اللاتيني أو الأمريكي الشمالي، أو حتّى الأوروبي، وشغفي بالأدب الشرقي، وخاصّةً التركي، وقراءاتي لنصوص ناظم حكمت وأحمد عارف، وروايات ياشار كمال وأورهان باموك وآخرين، مهَّد الطريقَ أمامي للتورّط في علاقتي معه، والانغماسَ في قصائده. لا أعرف لماذا انتابني شعور بأن القصائد التي كتبها أوميد، كان سيكتبها جدّي فرناندو دي ميندوزا الذي قتل في الحرب الإسبانيّة؟! عشقتُ حزنه. عشقت ألمه.

- ألا يُعتبر ذلك ساديّة؟! قاطعها يان، حين توقّفت عن الاسترسال في الكلام.

- لا، أبداً. لأنني لم أكن أعذّبه، أو لم أكن السبب في حزنه وألمه. ومن خلال معاناته وحزنه وآلامه التي كان يعبّر عنها في قصائده، أحببته. كنت أتساءل عن الطاقة الإبداعيّة التي يمتلكها وتمكّنه من تحويل الحزن والألم والخيبة إلى قيمة جماليّة.

- هذه أوّل مرّة في حياتي، أصادف شخصاً يعشقُ حزن الآخرين! ومن خلال حبّه لحزن الآخرين، يحبّهم أيضاً!؟ غريب!!؟

- ربما. ربما يكون الأمر غريباً بالنسبة إليك أو إلى غيرك. ولكن هذا ما جرى. أو ربما لم أكن موفّقة في التعبير. أنا عشقت شعريّته في التعبير عن حزنه. شعرت بسموّ الحزن والألم اللذين تنضح بهما نصوصه. كان يفلسف الحالات الإنسانيّة، حالات الانكسار والندم، ويعيد صوغها بطريقة لافتة ومبهرة.

- مثلاً؟ هل يمكن أن تعطي مثالاً على ذلك؟!

- مثلاً كان يقول: «ما من شاعرٍ، من دون ندم. وما من ندمٍ، من دون شاعر. الشعر في أحد أوجهه، ندم. والندم في أحد تعبيراته، شِعر. الندمُ ثلاث؛ بصيرةٌ آثرت الصمت، في وقتٍ استوجب النطق. بصيرةٌ آثرت النطق، وفي وقتٍ استوجب الصمت. وبصيرةٌ عاجزةٌ عن الاثنين معاً. أحياناً، الندم هو لسان حال الشاعر. وأحياناً الشعر هو أحد ألسنة حال الندم. الحياة في الكثير من تفاصيلها، هي سفر لا ينتهي من الندم. ولأن الشعر أحد أشكال التعبير عن الحياة، فهو تعبير عن الندم أيضاً. والندم ندمان؛ ندم منتج، وندم معطّل ومعرقل». ويبدو أن ندمَ أوميد كان منتجاً لنصوص شعريّة قويّة، على سوداويّتها ويأسها من الحياة. عباراته تلك، بقيت عالقة في ذهني، وستبقى محفورة فيه إلى الأبد.

- واو... كلامه عميق. ولا ينطق به إلّا مَن كانت له تجربة طويلة وعريضة في الحياة والكتابة..! حقاً، جميل ولافت!! يبدو أن شعره ونثره متوازيان!

- نعم. كما أقول لك.

- إذاً، عشقتِ نصوصهُ وتفلسفه، ولم تعشقي حزنه. ولم تعشقيه أيضاً!

- لا. عشقته أيضاً. ولم أعد أعشقه الآن، لكنني باقيةٌ على حبّ وعشق نصوصه وقصائده.

- تكرهينه؟

- لا. ولكن، لم أعد أحبّه أيضاً. صحيحٌ أن الحبّ يتحوّل إلى نقيضه أحياناً، إلّا أنني لم أدع الأمور تتطوّر بهذا الاتجاه.

- إذاً، لم تكوني تفصلين بين النصوص وصاحبها؟!

- نعم. ربما. في السابق لم أكن أفصل، لكنني الآن أفصل بين الاثنين؛ النصوص وصاحبها. ما زلت محافظة على حبّي لقصائده، والتوقّف عن حبّهِ. هذه نصوص شعريّة، وليست نصوصاً قصصيّة أو روائيّة حتى تكون عن أناس آخرين. النصوص الشعريّة كانت تعبّر عن هشاشته وهشيمه وحزنه وآلامه. أو هكذا أفهم الشعر. وربما أكون مخطئة.

- لا. لست مخطئة. يبدو أن ترجمتك للشعر، خلقت لديك فهماً عميقاً للحالة الشعريّة وحساسيّاتها. تمتلكين وعياً نقديّاً. هذا ما ألاحظه.

- لكنني لم أكتب الشعر حتّى الآن. أنا عايشت الحالة من خلال القراءة والترجمة، ومن خلال العلاقة مع أوميد.

- ستكتبين الشعر لاحقاً. أنا واثق من ذلك. وتذكّري كلامي هذا. ستكتبينه. أنت شاعرة كامنة. وقراءاتك للشعر وترجماتك له، كانت بمثابة زيادة الحفر في البئر. وهذه البئر في منطقة خضراء، ولا مناص من أنه سيأتي اليوم أو اللحظة التي تنبجس المياه من قاع هذه البئر التي هي أنتِ. أنا أيضاً، اتجهتُ للشعر في سنّ متأخّرة، بعد تجربة روائيّة فاشلة. على أيّة حال، لنعد إلى أوميد. أكيد أنه حدّثك عن تجربته السياسيّة والحزبيّة.

- طبعاً. بكثير من الدقّة والتفاصيل. رغم أنني هربت من أجواء الأزمات والصراعات السياسيّة الكولومبيّة، وأعرف كارثيّة الجماعات الثوريّة اليساريّة، ودعم الإمبرياليّة الأمريكيّة للأنظمة الدكتاتوريّة البرجوازيّة والرأسماليّة، رغم أنني هربت من كل هذه السخافات،

وجدتُ نفسي متورّطة في أوحال السياسة في المنطقة التي اخترتها حتى تبعدني عن المستنقعات السياسيّة الآسنة هناك. حدّثني عن بدايات علاقاته مع هذه الجماعة الكرديّة الثوريّة. وأنه لم يكن منجذباً لها، بل لفتاة كانت ناشطة ضمن هذه الحركة. وكيف أن إضرامها النار بجسدها، دفعه للانخراط في النيران الأكبر والأوسع؛ نيران الصراع الكردي - التركي التي تلتهم المجتمع والبشر والحجر والشجر. وكيف أن هذه الحرب حوّلت الناس إلى وحوش، إمّا تحت الشعار التركي: «حماية الوطن ووحدتهِ من الإرهابيين والانفصاليين». أو تحت الشعار الكردي: «تحرير الوطن؛ كردستان، من الأعداء والمحتلين، وبناء الاشتراكيّة والعدالة الاجتماعيّة في كردستان».

حدّثني عن الكثير من الفظائع التي كان شاهداً عليها، وساكتاً عنها أيضاً، واعتبرَ سكوته جبناً وتورّطاً في تلك الفظائع. أخبرني عن أشخاص أجانب من غير الأكراد، انتسبوا للحزب، ألمان، روس، عرب، وحتى أتراك، لكنني لا أذكر أنه أتى على سيرتكَ أو ذكر اسمكَ!!؟

أطلق يان ضحكة خفيفة، وأجابها:

- لم أكن منتسباً للحزب. أنا بلجيكي وأمّي كرديّة. كنتُ متعاطفاً مع القضيّة الكرديّة في تركيا، وما زلت متعاطفاً مع هذه القضيّة. كنت مؤيداً لفترة قصيرة لحزب (PKK). خاصّة حين قرأت سنة 1988 بعض الكتب عن سجن دياربكر، وما جرى فيه من تعذيب رهيب للسجناء. والمقاومة التي أبداها قيادات وعناصر الحزب داخل السجن. هذا التعاطف والتأييد دفعاني للذهاب إلى بيروت سنة

1990 ولقاء زعيم الحزب الذي لمست فيه الكثير من الزهد والتقشّف الثوري، ولمست في مقاتليه نكران الذات والتضحية. وزاد ذلك من نسبة الانبهار بهذه التجربة. هناك، في معسكر البقاع، التقيت صدفة بأوميد، كما ذكرت لكِ. ولكن في ما بعد، حين استنجد بي أحد المنشقّين كي أنقذه من الحزب، لأنهم سيعدمونه، استمعتُ لرواية مناقضة تماماً لما قرأته عن هذا الحزب من خلال أدبيّاته، وما عرفته من لقاءاتي بزعيمه ومقاتليه. وهنا، اكتشفت هول الخديعة. أصبتُ بصدمة كبيرة، حين عرفت أن معسكر البقاع في لبنان كان بمثابة مقبرة للمنشقّين أو لكل من يمتلك حسّ الانتقاد والاعتراض على مزاج ومشيئة أو قرار الزعيم وقيادة الحزب. وهنا، طفقت راجعاً إلى بلجيكا. وقطعت كل علاقاتي بهم. ورفضت أي شكل من أشكال التواصل معهم. بل صرتُ أتواصل مع المنشقين وأستمع لهم ولقصصهم ومعاناتهم. وسأستمع لأوميد أيضاً، وأحسبه من ضمن هؤلاء البؤساء الذين لاحقوا أحلامهم الثوريّة، فاصطدموا بصخرة الاستبداد والقمع الحزبي ودمويّته. ولكن، مع كل ذلك، بكيت حين رأيتُ زعيم الحزب معتقلاً، مهاناً وذليلاً بين عَلَمَين تركيين، وأنا الذي لم أبكِ على أبي، حين مات.

اندهشت لاورا، وأطلقت ابتسامة خفيفة وقالت:

- طالما ستلتقي أوميد، وستستمع له ولسرديّته عن تجربته داخل الحزب، فلن أتحدّث عن الفظائع التي أتى على ذكرها لي. ما أودّ قوله هو أنني حاولت إخراجه من السجن الذي يعيشه. سجن الذكريات الداميّة، سجن الحرب، سجن عقدة الذنب حيال الضحايا الذين قتلوا أمام عينيه. وسجن قصص حبّه الفاشلة. لكنني فشلت في

مسعاي ذاك. ولم يقتصر الأمر على هذا الفشل، بل صرت إحدى نزلاء سجونه الداخليّة. لم أستطع أن أحرره من عقد الحرب. لست أنانيّة لهذه الدرجة. ولكن تصوّر، لم يكتب قصيدة واحدة توحي أو تشير أنه يبادلني الحبّ، رغم أنه كان يذكر مراراً أنه يحبّني. بقي رهين وحبيس قصصه القديمة. حتى أنه كان يناديني سهواً بأسماء حبيباته السابقات! ويا ليتهنّ بادلنه الحبّ!؟ لم أكن أشأ أن يكتب عنّي. لكنني كنت بحاجة إلى أن يحترم حبّي له، طالما أنه عاجزٌ عن أن يبادلني الحبّ!

اللقاء الأوّل لي به على الفراش، كان في منتهى الروعة، يفوق ما يمكن تصوّره. كان أوميد محكوماً بطاقتين؛ طاقة القدرة على ممارسة الحبّ، لخمس أو ست جولات، وطاقة التفكير والتأمل والحديث بعمق في أمور فلسفيّة وجوديّة، وثقافيّة وسياسيّة، بين كل جولة وأخرى. طاقة الكلام تجدد طاقة ممارسة الحب. وطاقة ممارسة الحبّ، تفتح قرائحه الفكريّة والتأمليّة. طاقتان متداخلتان، تستولدان بعضهما بعضاً!

بعد انتهاء الجولة الأولى، اقترح شيئاً غريباً ومثيراً، وهو أن نقضي بقية الجولات على أننا حيوانات. فمارسنا كما تمارس القطط، والحمير، والخيول، والكلاب، والأيائل والغزلان، والحمام. استغربت منه، وضحكت، وأخبرته بأنني لا أعرف وضعيات كهذه. ولم أشاهد الحيوانات وهي تمارس الحبّ!؟ أجابني بأنه أثناء تجربته مقاتلاً في الجبال، كان يشاهد الطيور، الغزلان، الغنم والخيول. . . ، والكثير من الحيوانات تمارس الحبّ. تمارس حقّها الطبيعي في التكاثر. بينما هم، المقاتلين والمقاتلات، كانوا

يعانون من الكبت والضغط والحرمان، ويمارسون حفلات التخوين والاتهامات والتصفية أيضاً، بدلاً من حالات الحبّ التي يمارسها الإنس والجنّ والحيوانات! ومن كان يمنع ممارسة الحبّ، حتّى العذري منه، يصفونه بالغريزة الحيوانيّة داخل الحزب، هم أنفسهم كانوا ينتهكون هذا المنع، في نطاق ضيّق، وبشكل سرّي وخاصّ. وذكر: «حياة الحيوانات أفضل وأجمل وأكثر براءة من حياتنا؛ نحن البشر. وقطيع البشر أكثر حيونة وتوحّشاً من قطيع الحيوانات. لأن قطيع البشر يستخدم كل أدوات وأسلحة التدمير، سعياً وراء إشباع غزيرة التسلّط والاستعباد والاضطهاد. بينا قطعان الحيوانات تمارس قطيعيّتها كإحدى طبائع غريزة البقاء والمحافظة على أجناسها. إنْ شذّ حيوان عن قطيعه، وحاول الاختلاف والتفرّد، أو إنْ حلّق طائر خارج سربه، وحاول التحليق والتغريد بشكل منفرد، لا يهاجم القطيع ذلك الخارج عنه، ولا يفتك به، كذلك حال السرب، لا يهاجم الطائر المنشقّ عنه، المحلّق خارجه، ولا ينكّل به. بينما القطيع البشري شديد الضراوة والتوحّش في الحفاظ على وحدته. وإذا لمح بذرة الاختلاف أو التمايز أو التفرّد أو المروق في أحد عناصرهِ، انقضّ القطيع كله على تلك البذرة أو الشتلة، واقتلعوها من الجذور، وفظّعَ تنكيلاً وتخويناً وتكفيراً بصاحب تلك البذرة أو الشتلة. الكثير من الأديان والفلسفات والأحزاب الأيديولوجيّة عزّزت وغذّت القطيعيّة لدى البشر، بحجّة التحرر من التخلّف والقطيعيّة. القطيعيّة لدى الإنسان شوّهت حتّى عادات وتقاليد القطيع لدى الحيوان».

فاجأتني أفكاره هذه، وسرد أسبابه التي دفعته إلى هذه الخلاصات والأفكار. وصار يحدّثني عن كل حالة من حالات

ممارسة الحبّ عند الحيوانات، وبعد انتهائه من الكلام، نهمُّ إلى محاولة التطبيق والتماهي.

كانت حقّاً ليلة القدر. القدر الذي جمعنا. والقدر الذي فرّقنا، في ما بعد. في تلك الليلة، حاول إمتاعي للحدود القصوى، إمتاعاً جسديّاً وروحيّاً وفكريّاً. كذلك حاولت بكل ما امتلكته من طاقة أن أزيد من غزارة نزول الوحي عليه؛ وحي الأفكار، وحي المقارنات، وحي الأخيلة والشطحات الشعريّة. صحيح أنها لم تكن المرّة الأولى التي أمارس فيها الجنس، بحبّ ولوعةٍ ولهفةٍ، لكنها كانت ليلة مختلفةً تماماً، اختزلت عمراً كاملاً.

توقّفت لاورا برهةً. وبدت أنها شاردة تماماً، ولم تكن بشاردة. اختطفتها لحظة تركيز في شيءٍ ما، فالتبسَ صمتها على يان، أهو حنين؟ أم ندم؟ أم أسف على الخاتمة؟ ولكنه لم يشأ أن يقطع عليها شرودها الذي لم يكن شروداً، تاركاً إيّاها تستعيدُ نفسها بنفسها، وتعاود الكلام عن شاعرها أوميد الذي أبهرها وسحرها، في البداية. فبادلها يان صمتها، ومنتظراً منها المزيد والمزيد من البوح، مستمتعاً بالاستماع لها. أيضاً، أطلقت تنهيدةً، وعاودت استكمال الحديث:

- بعد أن انتهينا من جولة حبّ، على طريقة الخيل، استلقى على ظهره كجوادٍ أعيته صولته الطويلة، وعيناه محدّقتان في السقف. رأسي على ذراعه اليمنى. مغمضة العينين، أتشمم رائحة تعرّقه المنبعثة من تحت إبطه. تلك الرائحة الواخزة، كانت تنعر كل مكامن ونقاط الإثارة لدي، وتزيد من خدر ولذّة الرعشة التي أتتني في تلك الجولة. أيضاً، أطلق فكرة غريبة في سماء صمتنا وتأمّلاتنا، وطلب منّي ألّا أحلق عانتي في المرّة القادمة. انتابني الخجل، وابتسمت

وقلت، وعيناي ما زالتا مغمضتين: «كما تريد. ولن أقول؛ لماذا؟!» أجابني: «ولكنكِ قُلتِها!!. طيب، سأخبركِ السبب. لأنني أريدكِ غزالةً بريّة، غير مشذّبة. العانة المعشوشبة أعتبرها الزهرة السوداء أو البنيّة في مركز الجسد، التي تخفي خلفها نفق النيرفانا. النفق الذي خرجنا منه بألمٍ وصرخة وبكاء، ونعود إليه بمتعة ونشوة عارمة. نيرفانا خاصّة جداً. نيرفانا الحبّ. نعم، ممارسة الحبّ عبادة. والعبادة شكل من أشكال ممارسة الحبّ. لا تقصفي الزهرة السوداء التي تنمو على عانتك. دعيها، حيث وضعها اللّه». قلت له: «وهو كذلك. كما تريد». فردّ عليّ: «لا. ليس كما أريد. بل كما أراد لك اللّه أن تكوني». أحسست بأنني أقضي ليلتي مع صوفيّ متفلسف، تتنزّل عليه الأفكار، وتتفتّق قريحته على المزيد من الإبداع. عاد وسأل: «ألا ترين أن ليلة القدر هذه التي جمعتنا هنا، غريبة؟! نحن مختلفان في الدين؟ في الثقافة؟ في اللغة؟ في العادات والتقاليد؟ في اللون؟! وفي أمور كثيرة». فأجبته فوراً، وبشيء من محاولة المجارات: «ولكن، يجمعنا الحبّ. وهذا كافٍ. ثم إنه لا يوجد قدرٌ غريب! وقدرٌ أليف! القدرُ قدر. في هذه الليلة التي هي ليلته، وليلتنا أيضاً، مزاجُ قدرنا رائع. والمشكلة في الأمر، أن القدر مزاجه متقلّب، ونادراً ما يكون جميلاً ورائقَاً. لذا، علينا أن نعيش هذه الليلة لكأنّها دهر لا ينتهي، وكأنّها لحظات آخر العمر أيضاً». أعجبته الفكرة، وقال: «في التراث الكردي، وفي تراث كل الشعوب، هناك قصص حبّ بين شخصين من عنصرين أو دينين أو مذهبين مختلفين». فذكرت له أسطورة عشق إسبانيّة - أندلسيّة شائعة، عرفتها أثناء عملي في السفارة الكولومبيّة في مدريد. تقول الحكاية:

«إنه قديماً، كانت مدينة أنتيكيرا بالقرب من ملقة، هي خطّ الحدود بين إسبانيا المسيحيّة والأندلس العربيّة الإسلاميّة. أُلقيَ القبض هناك على شاب مسيحي، اسمه تيلو. فخرجت ابنة الأمير العربي في تلك المنطقة، واسمها تاغزونا، من الحصن الذي كان فيه المعتقلون، فرأت الشاب المعتقل. هذه النظرة المتبادلة، كانت كافية لإضرام النيران في القلبين الطريين، وأن يقعا في حبّ بعضهما البعض. فقررا الهروب من المدينة معاً. وحتى لو لم يكن تيلو معتقلاً، كان القانون وقتذاك سيجرّمه، لأنه لا يسمح بالزواج بين أشخاص من ديانات مختلفة. نجح العاشقان في الهروب، واكتشف حرّاس السجن ذلك، وبدأوا مع والد تاغزونا بملاحقتهما. وصل العاشقان إلى جبل عال في مداخل مدينة أنتيكيرا، وتسلّقاه. أثناء اقتراب الحراس على الأحصنة من الجبل، كان رماة الزعيم يشيرون إلى قمة الجبل التي وصل إليها العاشقان. بعد وصولهما إلى القمّة، نظرا أحدهما إلى الآخر بعمق، وتشابكت أيديهما. وانتهى كل شيء. ما عاد هناك من مهرب، فنتيجة الاستسلام لسلطة والد تاغزونا ستكون الاعتقال والفصل بينهما والعقاب الشديد أيضاً. ولكن لا...!. نظر تيلو وتاغزونا مجدداً إلى بعضهما. بحث كل واحد منهما عن نفسه في عينيّ الآخر. وتعانقا بشدة. ثم ألقى تيلو وتاغزونا بنفسيهما من القمّة الشاهقة إلى الأرض. وبعدها، سمّي هذا الجبل بجبل العشّاق. والناظر إليه من أحد جوانبه يجده يشبه وجه إنسان».

- «أوه. حكايّة مؤلمة ومؤثّرة. أوميد على حقّ. هناك عشرات الأمثلة من قصص الحبّ في تراث الشعوب». قال يان.

- نعم. هذا صحيح. بعد انتهائي من سرد القصّة، شعر أوميد

بعودة الطاقة إليه، وطلب منّي خوض جولة حبّ جديدة، على طريقة الحمام، وكأننا نلاحق بعضنا بعضاً عبر التحليق، في الجوّ، وعلى الأغصان، والأرض...، وفي الأعشاش. وصار يحدّثني كيف يتزاوج الحمام. ثم باشرنا التطبيق. وبعد القبض على اللذّة والانتعاش والانتشاء، عاود أوميد تفلسفه والحديث عن كينونة الإنسان، وعلاقته بالآخر. فقال:

- حبيبتي لاورا. طرح سقراط فكرة «اعرف نفسك بنفسك». وهذا صحيح. ولكن الصحيح أيضاً أن الطريق الى معرفة الذات، هو معرفة الآخر. لا كما نريد له أن يكون، بل كما هو كائن. الآخر، هو أنا على الضفّة الأخرى من نهر الحياة. هل أنا مخطئ في كلامي، عزيزتي لاورا؟

طبعاً، الفكرة التي ذكرها أوميد، مطروقة ومكررة، وربما الديباجة مختلفة عن ديباجات أخرى، ذكرها كتّاب أو أدباء أو فلاسفة آخرون. لكن الغرابة في الأمر، أننا على فراش الحبّ، وهو يستلهم أفكاراً كهذه!!؟ قالت لاورا ليان المنصت لها تماماً. ثم عادت إلى الحديث عن أوميد. وإجابتها عن سؤاله:

- لا. لستَ مُخطئاً.

- طيّب، لماذا يفهمني الناس على نحوٍ خاطئ؟!

حاولت مساجلته قليلاً، وذكرت له:

- ولماذا تشعر بالمظلوميّة على أنه يُساءُ فهمكَ على نحو خاطئ؟! ومتى كان المبدع يتمّ فهمه على نحوٍ صحيح تماماً كما يريد هو؟! أصلاً إذا فهمتك الجموع على نحو صحيح، فهذا يعني أنها

ليست بحاجة إلى من يعطيها الأفكار الجديدة. إذا فهمتك الجموع والحشود أو الناس على نحو صحيح وصائب، هذا يعني أنك منخرط في السياق ومنتمٍ تماماً إليه، ونسبة اختلافك تكاد تكون معدومة. ومع تضاؤل مساحة الاختلاف، تتسع مساحة التطابق والتماهي. في حالة كهذه من التطابق والتماهي مع مزاج وقرار ووعي الجماهير، يصبح من العسير جداً الحديث عن وجود شتلة الإبداع في تجربتك. الإبداع قائم على الاختلاف، أن يكون اختلافكَ واعياً. أعتقد أن الإبداع يفترض أن يشتغل الكاتب في مساحة الاستثناء الضئيلة، وليس في مساحة القاعدة، الشاسعة. والجماهير والحشود ووعيها، هي أحد أبرز أشكال القاعدة. كلّما خاض المبدع في مساحة الاستثناء، فهو يضيف إلى مساحة القاعدة. وكلما بقي أسير القواعد التي يضعها لنفسه ولغيره، يبتعد بذلك عن الإبداع. الاستثناء ملحُ الإبداع، والقاعدة سمّه. هل وصلت فكرتي، حبيبي أوميد؟ ثم إنه إذا قضى المرء عمره في محاولة إفهام الناس مقاصده من الكلام الذي يقوله أو يكتبه، فلن ينجح في ذلك، ولن يبقى لديه الوقت للتفكير في قول شيءٍ آخر، ربما يكون مختلفاً. الحياة أقصر من أن تقضيها في إفهام الناس مقاصدكَ من الكلام شعراً ونثراً، ولست مجبراً على ذلك أبداً.

حبيبي أوميد؛ الحياة هي متعة العيش في البحث عن الأشياء المفقودة أو التي نفتقدها. الحياة سفر لا ينتهي من الاحتمالات والمصادفات. وحين يعجز الأديب أو الشاعر أو الفنان التشكيلي أو السينمائي... عن إفهامك مقاصده من العمل الإبداعي الذي يقدّمه لك، هذا لا يعني أنه فاشل. المبدع اجتهد، ويبقى على المتلقّي

أيضاً أن يجتهد في عمليّة السبر والتحليل والتخيّل ومحاولة الإحاطة بالعمل. وإذا سألك أحدهم: ما المقصود في القصيدة الفلانية؟ أو القصة أو الرواية الفلانيّة أو اللوحة الفلانيّة أو الفيلم الفلاني؟ أعتقد أن أقرب جواب، يمكن أن يكون: المقصود هو ما فهمته، وما لم تفهمه في آن. أو ربما يكون الأمر، خلاف المقصود أيضاً. من المفترض ألّا يتبرّم أو يتذمّر المبدع من عدم فهم الناس له، أو إساءة فهم له. بل عليه التبرّم من عدم فهمه لذهنيّة وسيكولوجيّة الناس، وعدم محاولته أن تكون له بصمة مختلفة في حياة الناس.

بعد انتهائي من كلامي التنظيري هذا، شعرتُ بالغبطة أنه يمكنني مجاراته في ممارسة فنّ الحب، وممارسة فنّ التفكير والتنظير على فراش الحب. شيء غريب حقّاً أن نقضي ليلتنا على هذه التقسيمات بين الجنس والحبّ والفكر والتأمّل. ثم ختمنا ليلة القدر تلك، على طريقة الغزلان في ممارسة الحب، فاستلبنا النوم عنوةً مما نحن فيه وعليه، وغطسنا في سبات عميق من الإعياء والإنهاك الجسدي والفكري. وفي الليالي الأخرى، جرّبنا طرائق أخرى لحيوانات أخرى. عشنا المتعة الإنسانيّة أثناء تقليد الحيوان في ممارسة الحبّ.

بعد مضي ستة أشهر، قرّرتُ الزواج منه، أو أقلّهُ، أن يكون لي طفل من هذا الشاعر العميق الذي عشقته من قراءة وترجمة قصائده. وازددت عشقاً له في الفترة الأولى. وبعد حدوث الحمل، صار يتغيّر تباعاً، وشعرتُ بحدوث شرخ بيني وبينه، كلما حاولت رأبه، ازداد اتساعاً. إلى أن أصبح ذلك الشرخ هوّةً، يستحيل ردمها.

سكتت لاورا مرّة أخرى. بشيءٍ من التأمّل والمساءلة الذاتية، قالت في نفسها: «لماذا أتحدّث أمام هذا الشخص الغريب، بكل

هذه الصراحة والشفافيّة والدقّة، وأجعل من حياتي الخاصّة كتاباً مفتوحاً أمامه؟! لماذا؟! ما الذي يدفعني أو ما الذي يجبرني على ذلك؟!». لكنها سرعان ما استعادت نفسها من حافة التردد، وأجابت نفسها: «ربما هي الرغبة في الفضفضة والحديث لشخص ما، التي دفعتني للكلام بهذا القدر من المكاشفة لهذا الرجل الغريب، وكأنّني أعرفه منذ أمد. ربما لأنه ليس لدي في هذه البلاد أمّ أو أخت أو أخ أو صديق أو صديقة ألوذ بهم وإليهم حين تشتدّ عليّ كروب الحياة وهمومها. أو ربما هناك سبب آخر أجهله. ولكن، ما عاد بالإمكان التراجع نحو قدر أقلّ من الصراحة والمكاشفة مما أبديته. لأنّني تحدّثت عما جرى في غرفة نومي، وعلى شراشف وملاءات سريري، فهل بقي ما أخفيه عن هذا الرجل الشديد الإنصات؟!».

حين شعر يان بأنها أطالت في صمتها، بحيث بدت عليها ملامح التردد قليلاً، حاول مساعدتها على العودة إلى استكمال الحديث، فقال:

- حكايتكِ مهمّة ولافتة ومثيرة، وتستحق أن تروى. في كل الأحوال، أنا بصدد كتابة رواية عن كرد تركيا وتأثير الحرب عليهم، وسيكون أوميد أحد أبطال الرواية بوصفه ضحيّةً من ضحايا الحرب. فهل تسمحين لي بأن تكوني أنتِ أيضاً ضمن هذا العمل؟! وسأغيّر الأسماء، إن شئتِ.

تفاجأتْ بالفكرة. وراق لها الأمر. تبدد توجّسها وترددها. استشفّ يان في ابتسامتها ونظراتها شيئاً من استعادة الثقة به، والقبول المبدئي غير المعلن بتحويل حكايتها إلى فصل من فصول روايته. وقالت:

- لا مانع لدي. وإن شئت، لا تغيّر أيّ شيء. على أيّة حال، لك مطلق الحريّة في ما تراه مناسباً لعملك الروائي. بأية لغة ستكون؟

- الهولندية طبعاً. أنا بلجيكي، فلامانكي. أمي كرديّة من دياربكر.

- واو. مدهش. حكاية ابني ربما المعادل المعاكس لحكايتكَ. ابني؛ والده كرديّ وأمه كولومبيّة.

أعاد يان الحديث إلى حيث انتهى، واستفسر من لاورا عن سبب فتور العلاقة وتراخيها ثم تصدّعها وانقطاعها.

- العلاقة لم تنقطع. لدينا طفل يجمعنا. لدينا الكثير من الأيام والأشهر الجميلة التي تقاسمناها. لدي مرحلة الحبّ العذري، عبر حبّي لقصائده. لكن، ربما هكذا هي الحياة، دوام الحال فيها، من المحال. والمطلق فيها هو التغيّر، التحوّل، من حالٍ لحال. في الآونة الأخيرة تشكّلت لدي قناعة بأن حكاية حبّي له التي بدأت بدايةً غير طبيعيّة، محالٌ أن تنتهي نهاية طبيعيّة. النهاية السعيدة والدائمة، ليست الشرط الشارط على أن يكون الحبّ حبّاً. ربما تكون نهاية حكاية حبّ، نشوبُ أو ولادة الكراهية. لذا، أعتقد أن الحبَّ ليس بخواتمه بل ببداياته. ما من حبّ يبقى إلى الأبد. وربما من غير الطبيعي أن أستغرب من تحوّل قصّة حبّي لأوميد إلى تبدد وزوال. لا ألومه كثيراً. ربما أعاتب قليلاً. وهذا العتب أيضاً، ربما يراه البعض أنه ليس من حقّي. لسببٍ بسيط؛ أن أوميد ضحيّة من ضحايا الحرب، ومن ضمن حشود الموتى الذين يعيشون. موتى مسكونون بحربٍ خاضوها وعاشوها، ولم يموتوا فيها.

توقّفت لاورا عن الكلام. وانزلقت دمعتان دافئتان من عينيها

وساحتا على وجنتيها. مسحت الدمعتين، بمنديل ورقي أخرجته من حقيبتها. ثم عادت للكلام:

- أنا أيضاً مسكينة. لا ذنب لي في ما عاشه ويعيشه أوميد. هربتُ من السياسة والصراعات والكوراث الأيديدولوجيّة الكولومبيّة، فوجدت نفسي في عين عواصفها هنا، في تركيا. أوميد ضحيّة حرب، وسيقضي حياته هكذا، بعد أن شوّهته الحرب من الداخل. ولكن، ما ذنبي أنا، كي أصبح ضحيّة أوميد الذي هو أصلاً ضحيّة!؟ لست أنانيّة. فقط أريد العيش بسلام، بعيداً عن كل هذه السموم المنبعثة من كلام الحروب الخامدة، وكلام الحروب المشتعلة. ما الذنب الذي اقترفتهُ حتّى يُصدّرَ إليّ يوميّاً طاقة سلبيّة تستولد نفسها بنفسها. طاقة اكتسبها من الحرب التي عايشها على مدى عقد من الزمن. طاقة هائلة من البؤس والندم والشعور بالذنب، مع عجز عن القدرة على الانتقام والثأر، وعجزٍ تام عن التطهّر من هذه الطاقة السلبيّة أيضاً. إنه يمتلك ذاكرة مدججة بالجراح والآلام والمشاهدات الفظيعة، لن يكفيه ألف عام من الاعتكاف والعزلة في التبرؤ أو التطهّر منها. مزاج متقلّب، مع نسبة من التوحّد، وحالات كآبة تأتيه بين الحين والآخر، حالة وسواس قهري، ومشاكل أخرى لا تفارقهُ، لا قدرة لي على تحمّلها. أنا أيضاً شديدة الهشاشة. وحين شعرتُ أن الحبّ بدأ يتراجع في علاقتنا وحياتنا، قررتُ الابتعاد عنه شيئاً فشيئاً. إذا اشتاق لي، فسأكون له، كما كان يريدني سابقاً، وأكثر. ولكن، لم أعد أستطيع العيش معه. ليس لأنني أريد العيش مع نفسي، ولنفسي. بل لأنني أريد العيش لطفلي، آزاد، الذي أريد أن يكون آزاداً حقيقيّاً، حرّاً، متحرراً. وأنت تعرف معنى اسم آزاد بالكرديّة.

افترقت عنه، ولم أنقطع عنه، ولن أتركه. هو الآن، يعيش علاقة أخرى. وتركته يعيش هذه الحالة، إلى حين نفاد طاقة الحبّ في حكايته الجديدة أيضاً. لستُ قدّيسة، ولا أزعم ذلك. ولكنني لستُ شيطانة وشريرة وأنانيّة. أنا محض إنسانة محبطة، تريد أن تعيش بقية عمرها في سلام. هل هذا حلمٌ كبيرٌ صعبُ المنال؟!

- نعم. العيش بسلام، كان وما زال وسيبقى حُلماً كبيراً، يستحيل تحققه. أقول لكِ هذا، استناداً إلى تجربتي، المُضافِ إليها تجربة أبي، والآلام التي ورثتها عنه. نحن نرثُ آلام غيرنا؛ آبائنا، إخوتنا، أصدقائنا، شعوبنا وأوطاننا. البشر يتوارثون الكثير من الأحزان والآلام والأحقاد، ويرثون القليل القليل من الحب والأمل. رغم استحالة العيش بسلام في هذا العالم الموبوء بالحروب والأيديولوجيّات القاتلة، لا مناص أمامنا من مزاولة الحياة، لا بوصفنا موتى يعيشون، ولا بوصفنا أحياء ماضين نحو الموت. بل بوصفنا جديرين بالفرصة الوحيدة واليتيمة التي يمنحها الموت لنا لدخول حلبة الحياة. وربما أكثر الناس سعادةً هم الذين يختارون حياتهم وموتهم، ولا يتركون لأحدٍ أن يختار لهم ذلك. أنا واثق بأننا سنلتقي مرّة أخرى. وربما مرّات عديدة. ولحين حدوث ذلك، كوني بخير، حتّى نكون.

صافحها يان مصافحة الأب لابنته المُقْدِمةِ على خوض امتحان. وغادرا معاً المقهى. ورأى كيف تتجه نحو سيارتها الفورد الزرقاء القديمة بشيءٍ من التثاقل والتململ أيضاً، لكأنّها كانت تريد الحديث أكثر.

* * *

مضى على تواجده في اسطنبول ثلاثة أيّام، وربما يقضي ثلاثة أيّام أخرى، حتّى ينجزَ ما أتى من أجلهِ. ثم سيتجه نحو دياربكر. ذلك أنه في كل زيارة لتركيا، لا مناص أمامه من زيارة هاتين المدينتين. أحياناً يزور قونيا أيضاً، ليتبرّك بنفحة من عشق الصديقين العاشقين جلال الدين الرومي وشمس الدين التبريزي.

اختار يان عمداً أحد الفنادق الرخيصة في حي آكساري، ليس لأنه عاجز عن دفع نفقات الإقامة في أحد فنادق الأحياء الاسطنبوليّة الراقية، بل لأنه أراد التجوال في هذا الحيّ المشهور بالمجرمين والمحتالين والمهرّبين والباعة المتجوّلين والشحّاذين وبيوت الدعارة والمومسات اللاتي تقفن على الجسور والمعابر، تقدّمن عروض أسعارهن على المارّة بغية اقتناص زبونٍ عابر. ففي حي آكساري، وأحياء اسطنبوليّة فقيرة أخرى، يمكن أن تعثر على دياربكر ومدن كرديّة أخرى، عبر العثور على أكراد نزحوا إلى المدن الكبرى، بعد إحراق الجيش التركي قراهم، لأنهم رفضوا حمل سلاح الدولة ومواجهة أبنائهم المنخرطين ضمن حزب العمال الكردستاني.

ما زال على موعده مع أوميد أربع ساعات. هذا الموعد الذي يجمع بين شخصين لم يلتقيا منذ ما يزيد على 13 سنة، من 1990 ولغاية 2003، سيكون اللقاء منعطفاً نحو الماضي وما حفل به من ذكريات، أو ربما يكونُ فيه شيء من النوستالجيا الثوريّة واليساريّة التي أودت بها الخيبات والانكسارات. هكذا كان يان يتصوّرُ أو يظنّ ويخمّن اللقاء.

رغم توفّر الحافلات في موقف «يوسف باشا» في حي «آكساري»، وتوفّر قطارات المتيرو أيضاً، إلّا أن يان أراد أن يقطع

المسافة من آكساري باتجاه حيّ بيأوغلو مروراً بجسر غلاطا، وصولاً إلى ساحة تاكسيم ثم شارع الاستقلال، سيراً على الأقدام. ابتسم في وجه المومسات اللاتي استوقفهن، وافتعل أنه لا يفهم التركيّة. إحداهن كانت في منتصف العقد الرابع من عمرها، متواضعة الجمال والتبرّج، واقفة إلى جانب عمود إشارة المرور. الناظر إليها من الجهة المقابلة، يظن أنها تنتظر أن تصبح الإشارة خضراء حتّى تعبرَ الشارع. لكنها كانت واقفة ولا تعبره، وتتحدّث بصوتٍ منخفضٍ ومسموع، وسط ضجيج الشارع وأصوات السيّارات والمارّة. اقترب منها يان، فقالت له: «بخمسين ليرة فقط. أقضي معك النهار كله. وأفعل لك ما تشاء، وتفعل ما تشاء. الطعامُ والشرابُ عليك. بخمسين ليرة فقط». فوراً عرف يان أن لكنتها ليست اسطنبوليّة وتشبه لكنة الكرد أثناء تحدّثهم بالتركيّة. ظنّتْ صمتَهُ نذيرَ تقبّلٍ واستجابة، فخفّضت السعر قليلاً إلى أربعين ليرة، وذكرت أنه «سعر مناسب جداً». استمرّ يان في صمته وابتسامته. خفّضت السعر إلى ثلاثين ليرة. بقي يان صامتاً ومبتسماً. امتلأ حلقها بالدمع وصارت تتحدّث بصوت مرتعشٍ متهدّجٍ ومتوسّل، واستمرّت في التفاوض والمساومة على جسدها، وحبست دمعتها بقسوة، وقالت: «بعشرين. بعشرين ليرة فقط. لن تجد سعراً كهذا في كل اسطنبول»! لم تستطع تمالك نفسها وأعادت ذكر السعر: «بعشرين أيها الكلب، فقط بعشرين أيها الخنزير القذر. أتريد أرخص من عشرين ليرة أيضاً؟! ألهذه الدرجة جعلتنا الحرب رخيصين في نظركم يا أوغاد، يا أولاد القحبة؟!» وصارت تضربه بحقيبتها الصغيرة وبكلتا يديها. لم يتمالك يان نفسه، وبكى معها أيضاً، وقال لها بالكرديّة: «لا تبكي يا أختي. لا تبكي يا ابنتي.

تعالي. لا أريد منكِ شيئاً». حاول تهدئتها وتجنّب ضرباتها، واحتضنها وسط جمهرة الناس، ووضع في يدها ورقة نقديّة تركيّة بقيمة مئتي ليرة. وحين سمعت صوته يتحدّث إليها بلغتها الأمّ، بكت أكثر، وشعرت بالندم والعار والخجل، وأرادت لو انشقّت الأرض وابتلعتها. مسك يدها وهي تواصل البكاء مطأطأة الرأس، ويدها الأخرى على وجهها. ظنّ المحتشدون أنه يأخذها إلى حيث يريد أن يقضي معها ليلته. ولكنهما جلسا في أقرب مقهى. وطلب ماءً وعصيراً لها، وفنجان قهوة لنفسه. وانتظر حتى تهدأ وتشرب الماء وتمسح دمعها، كي تباشر الحديث. اعتذرت منه على الشتائم التي وجهتها له وقالت:

- مضى يومان، وأنا أقف أمام إشارة المرور تلك، ولم يحنَّ أي وغدٍ بأن يأخذني إلى زاوية قذرة حتى أفرّغَ له قذارته ودناءته في جسدي. اعذرني على هذه الوقاحة في الكلام. هذا الكار جرّدنا من الأخلاق والكلام النظيف. أنا أيضاً في يوم ما، كنتُ أتحدّث عن الشرف والحريّة والعدالة. وها أنت تراني الآن، أبيع الشرف، كي أعيل أسرتي، أو ما تبقّى من أسرتي.

أخرجت سيجارة من حقيبتها، وأشعلتها وأخذت نفساً عميقاً. ما زال جسدها يرتعش قليلاً، ليس من البرد، بل من الخجل والحزن والأسى والاضطراب. شعر يان أن وراء هذه المومس المسكينة تراجيديا كبيرة ومؤلمة.

سألتْهُ: أنت كردي، ولكن من أيّة منطقة؟

- أنا كردي، ولست كرديّاً.

- كيف؟ لم أفهم ذلك؟!

- والدي بلجيكي، وأمّي كرديّة من دياربكر. وأنتِ؟

- أنا من قرية نائية تابعة لمنطقة باشكاله في محافظة «وان». هل سمعت بـ«وان»؟

- نعم، طبعاً سمعت بها، وزرتها. زرت بحيرتها العظيمة. ورأيت جبل سيبان خلاتي.

- أنتَ زرتها سائحاً، ولم تعش جحيمها. جحيم الحرب فيها. الحرب التي جرّت قدميّ إلى أتونها، وأخذتني من بيتي ورمت بي في ما أنا فيه وعليه الآن.

أخذت تمتصّ عقب السيجارة كنحلةٍ تمتصُّ دمَ زهرةٍ ورحيقها. وأضافت:

- تزوّجت في السادسة عشرة، من ابن عمّي الذي يكبرني بأربع سنوات. ولم يدمْ زواجي سنتين. التحق زوجي بالمقاتلين في الجبال سنة 1986. لم أنجب منه أطفالاً. روّجت أمّه بين نساء ورجال القرية أن العيب منّي وليس من ابنها، ولم أشأ إخبار أحد، حتى أهلي، بأنه عديم الانتصاب، حرصاً على كرامةِ زوجي. كان والداه يعرفان مشكلتهُ، ويعرفان أنني لم أبح بسرّه. ومع ذلك، روّجا الأكاذيب حولي. لم تكد تمضي سنة على وجوده في الجبال، حتى قُتِلَ في إحدى المعارك. بعد مرور ستة أشهر، وبحكم العادات والتقاليد، زوّجوني من شقيقه الذي يصغره. تزوّجني مكرهاً وعلى مضض، لأنه كان يحبّ فتاةً أخرى. كان يهينني ويحتقرني. أنجبت منه طفلين، أثبتا كذبَ حماتي وما كانت تُشيعه عنّي في زواجي

السابق. استمرّ هذا الزواج القسري ثلاث سنوات، ليلتحق هو أيضاً بالجبال سنة 1990، تحت ضغط شعارات ضرورة الثأر لدم شقيقه، وأنه يريد تحرير كردستان وتحرير المرأة... إلى آخر هذا الكلام الذي كان وما زال يقال، وينخدع به الناس! هو أيضاً قتل سنة 1992. لكن الحزب قتله، لافتضاح علاقته مع مقاتلة أخرى. لم يخبر الحزب العائلة أن ابنها قُتِلَ لأنه خان مبادئ وأخلاق الحزب عبر إقامة علاقة مع مقاتلة أخرى، بل قال: «إنه استشهد في معركة بطوليّة إثر وقوعه ورفاقه في كمين نصبه الجيش التركي وميليشيات حماة القرى المرتزقة التي تحمل سلاح الدولة!». وفي ما بعد، عرفتُ حقيقة مقتلهِ.

من سنة 1990 ولغاية مقتل زوجي الثاني، التحق بالجبال من عائلتنا فقط، خمسة أشخاص آخرين؛ أختي وأخي اللذان يصغرانني، وأخت زوجيَّ السابقين، واثنين من أولاد عمّ زوجي. في مطلع التسعينات استشرى وباء بين أبناء قريتنا والقرى المحيطة اسمه الالتحاق بالثورة. وصار الدم يستدرّ ويستجرّ دماً آخر. حين يسقط شهيد، يتمُّ تحريضُ أهله على ضرورة عدم ترك سلاحه على الأرض، ووجوب حملِ هذا السلاح، حتى آخر قطرة من الدم، دفاعاً عن الشرف، وفي سبيل تحرير الوطن من الأعداء الأتراك، وتحقيق أهداف الشهداء في الحرية والاستقلال! وهكذا، اتسعت المقابر، وتقلّص حجم الوطن. هكذا تحوّلت الثورة إلى طاحونةٍ تطحننا، وكي تبقى تدور، لا مناص من استمرار تدفق دمائنا في ساقيتها. هذا الوباء أو هذه الهستيريا أصابتني أيضاً. لم أعد احتمل ذلّ وإهانة حماي، الذي هو عمّي أيضاً. اعتبرتني حماتي عاراً وشؤماً حلّ بأسرتها. هذا

ما كنت أسمعه يوميّاً؛ أنني السبب في قتل ولديها، وأنني «أكلتُ رأسيهما»، كما يقال في الكرديّة الشائعة.

ذات يوم، شعرتُ أن حماي يتلصص عليّ وأنا في الحمّام. لم أكترث لذلك. ولكنني خشيت أن يتطوّر الأمر. كان متوحّشاً، لم يردعه أنني ابنة أخيه، وأرملة ابنيه. خاصّة أنه يختلق المشاكل كي يضربني. وأثناء ضربه لي، كان يضغطُ على جسدي، ويفركه بقسوة. يمسك بنهدي ويعصرهما بشدّة، وكأنّه يريد غرس أصابعه فيهما، على أنه يريد إيلامي، لكنني شعرت بأنه يتحرّش بي، بحجة ضربي وأنه يريد تأديبي! كان يضربني حين لم تكن زوجته موجودة في البيت كيلا تلاحظ كيف يضغط على فخذيّ ويصفع أردافي. فكّرتُ في الهربِ من البيت، ولكن إلى أين؟! هل أهرب إلى بيت أبي؟ وماذا سأقول له؟ هل أقول: إن أخاكَ وحماي، يتحرّش بي، وأخشى أن يعتدي عليّ؟! لو قلت له ذلك، لَقتلني فوراً! لم يكن أمامي سبيل إلّا الالتحاق بالحزب والمقاتلين، قبل أن يتطوّر ضربه وتحرّشه بي إلى اعتداء واغتصاب كامل. كان ذلك سنة 1994، وعمري 26 سنة. تركت لهم الطفلين وهربت، وقلت: فلأجرّب الحريّة التي يتحدّثون عنها أنها موجودة في الجبال! فإذا وجدتها، أكون تحررت. وإذا لم أجد، أكون جرّبت. وإذا مت أو استشهدت، أكون تحررت من الحياة القاسية التي عشتها.

في البداية، استعذبت الأمر، إذ حظيت بالاحترام لأنني زوجة شهيدين، وتحمل السلاح سيراً على درب زوجيها. وقيل عنّي الكلام غير الصحيح بخصوص أسباب التحاقي بالثورة، جعلوا منّي أمثولة للمرأة المناضلة! كنتُ أعرف أن كل هذا الكلام الذي يقال عنّي من

شعارات، غير صحيح. ولكن ما عساي فعله؟ هل أقول إن سبب وجودي هنا، هو الهروب من حماي، والد الشهيدين؟ والانسان الوطني المحترم؟! ناهيك عن أنني من عائلة وطنيّة التحق العديد من أبنائها وبناتها بالثورة، واستشهد العديد منهم. لذا، كنتُ مجبرة على الكذب والقول: إنني أريد الثأر والانتقام من العدو، أناضل وأقاتل من أجل الحرية والاستقلال لوطني وشعبي، وأسعى إلى تحرير المرأة...، وأريد وأريد وأريد...، والكثير من هذا الكلام الذي كان وما زال يقال!

ستة أشهر ضمن الحزب كانت كافية لأن أتعلّم الكتابة والقراءة والتحدّث باللغة التركيّة. لأن هذه اللغة كانت اللغة الأمّ للحزب، وليس اللغة الكرديّة! في الستة أشهر الأولى، كان عالم الحزب والثورة ساحراً وجذّاباً، مليئاً بقصص المقاومة والبطولة والتضحيّة. ولكن، تباعاً بدأت تنكشف لي الحياة الحقيقيّة داخله، من صعوبات ومؤامرات ودسائس واتهامات وعمليات قتل وتصفية، بتهم كاذبة. هناك عرفت أن زوجي الثاني تم قتله، فقط للاشتباه في أنه على علاقة مع مقاتلة من كرد العراق. وقتلوا الاثنين معاً في محاكمة صوريّة على أنهما كانا يخططان للهرب معاً. كنتُ مجبرة على تصديق رواية الحزب، وشتم زوجي على أنه خان الأمانة ويستحق ذلك العقاب. وصرتُ أقنع نفسي بأنه ربما يكون كلام الحزب صحيحاً، وأن زوجي انحرف، طالما أن والده الذي هو عمّي، انحرف أو كان على وشك أن ينحرف، ويعتدي على ابنة أخيه وأرملة ولديه. بعد مرور سنة على تواجدي في منطقة «حتفانين» داخل كردستان العراق، كنت أكتب في تقاريري أنني أريد الالتحاق بمناطق الحرب في

«بوطان» داخل كردستان تركيا. وكانوا يرفضون ذلك. وحين استفسرت عن الأمر، وأبديت انزعاجي، كانوا يجيبونني: «لا تقلقي، سنجلب الحرب إلى هنا. والحزب يرى أنه من المناسب أن تكوني هنا. أنتِ مقاتلة، ولا خيار أمامك سوى الإذعان لقرار ومشيئة وإرادة الحزب». في المعارك التي نشبت سنة 1995 و1997، كنتُ أقوم بأعمال متهوّرة بهدف أن أقتل برصاصة معادية. كنت جبانة لا أقوى على الانتحار، كما كان يفعل بعضُ المقاتلين والمقاتلات، نتيجة الضغط النفسي والجسدي عليهم. ولكن محاولاتي باءت بالفشل. كل ذلك، كي أهرب من الحياة الحزبية العسكريّة التي باتت جحيماً آخر، استجدَّ في حياتي. خطرت لي فكرة أن أستسلم للعدو التركي، وأودع في السجن، وسيحكم عليّ إما بعشر سنوات أو عشرين أو حتى ثلاثين سنة. لا يهمّ. المهمّ أن أخرج من دوّامة الموت والدم والكلام البرّاق. ولكن هذه الفكرة تتطلبّ أن يتم أسري في المعركة، إمّا مصابة، كيلا يتم اتهامي بأنني خائنة، وربما يصلون إلى داخل السجن، ويقتلونني فيه. هكذا كانوا يقولون: إن الخونة حتى ولو كانوا في السجون التركيّة، فإن يد عدالة الحزب والثورة، ستصل إليهم وتقتصّ منهم! وإنهم قتلوا الكثير من الخونة في السجون، وفي أوروبا وفي لبنان... وحتى لو هربوا إلى القمر، سيصل الحزب إليهم!

قاطعها يان، وكيف هربت من بين صفوف الحزب؟!

- اصبرْ. كنتُ سآتي على ذكر ذلك. رغم قساوة ظروف الحرب والحزب والضغط الأيديولوجي والعسكري، كان هناك دائماً هامش للمشاعر الإنسانية. انجذبت لمقاتل من كرد سوريا اسمه كمال. كان

هادئاً ومثقفاً. صارحته بكل سيرة حياتي. وأخبرته بأنني خارج الحزب نفسيّاً وروحيّاً، ووجودي ضمنه شكلي وجسدي، لا أكثر، وأنتظر الموت كي ينقذني مما أنا فيه، إذا بقيت ضمنه. لذا، قررت الهرب، وأريدُ أن يساعدني. عرضتُ عليهِ الزواج والهرب معاً. قال لي أنه يستحيل عليه الهرب معي والزواج منّي، لأسباب تخصّه، لم يفصح عنها. ولكنه قال: «يستحيل أن أفشي سرّكِ أو أشي بكِ، مهما بلغت درجة إخلاصي للحزب. سأحاول مساعدتكِ، قدر استطاعتي».

بقي الوضع هكذا، إلى حين خروج الزعيم من سوريا في خريف 1998. وقتذاك حدثت بلبلة ضمن الحزب، تحوّلت إلى نوع من الفوضى حين تم اختطاف واعتقال الزعيم في فبراير/شباط 1999. أثناء ذلك، وفي 25/ 2/ 1999 ساعدني ذلك المقاتل السوري في الهروب والوصول إلى أربيل. وطلبَ من أحد أقاربه أن يساعدني في الهرب إلى تركيا ثم إلى أوروبا. ذلك الشخص كان من منطقة نصيبين، ويعمل سائق شاحنة كبيرة. أنت تعرف أن هناك عوائل على طرفي الحدود في قامشلو السوريّة ونصيبين التركيّة. اشترط عليَّ السائق أن يمارس معي الجنس كي يساعدني ويخفيني في الشاحنة حتى وصولنا إلى داخل تركيا. ومن هناك أتجه نحو اسطنبول. فاستجبت له مكرهةً. بقيت في البيت الذي استأجره ثلاثة أيّام. كانت له اتصالات مع مهربين يعيشون في اسطنبول وأزمير. على كل حال، وصلت هناك، ولم يكن معي سوى ثمن سندويشة. سلّمني سائق الشاحنة إلى أحد المهرّبين من كرد تركيا، وعرف أنني لا أمتلك قرشاً. فطلب أن أكون عشيقته، وأعمل كعاهرة حتى أجمع

كلفة تهريبي إلى ألمانيا أو السويد. لم يكن أمامي خيار آخر. فالعودة إلى القرية يعني عار الخيانة، والقتل ينتظرني، لا محالة. وقلت في نفسي «اسطنبول مدينة كبيرة، لا أحد يعرفني فيها. سأتحمّل بضعة أشهر حتى أجمع كلفة السفر، وأبدأ حياة جديدة في أوروبا. وبعد أن تستقر أموري هناك، سأجلب طفليَّ إلى حيث سأقيم». منذ منتصف 1999 وحتى الآن، لم أنجح في جمع كلفة تهريبي من تركيا إلى أوروبا. وكما تراني اليوم، مجرّد مومس تبيع شرفها حتى تعيش، بعد أن أصبح الهروب من تركيا ضرباً من الحلم. أقول في نفسي أحياناً: لو قبلت بتحرّش أو اعتداء عمّي وحماي، أو لو انتحرت في الجبال، أو لو أضرمت النار بنفسي وأقول إنني احتجّ على اختطاف الزعيم، وأموت شهيدة، ربما ما وصلت بي الحالُ إلى ما أنا فيه.

نظر يان إلى ساعته وقال لها:

– أعتذر منك. أنا على موعد مع ضحيّة أخرى من ضحايا هذه الحرب. هو أيضاً مقاتل سابق، وشاعر معروف ومشهور حالياً. لا أريد أن أتأخّر عليه. أكيد سنلتقي مرّة أخرى، ويجب أن نلتقي. هذا كرتي، ستجدين فيها اسمي ورقم موبايلي والإيميل.

مدّ يده مرّة أخرى إلى محفظته، وأخرج ورقة فئة مئة ليرة وناولها إيّاها. «سوف أحاول مساعدتك في الهرب من هنا، واللجوء إلى أوروبا». نهض يان وصافحها. فقالت له: «ليس لدي موبايل. هو غال جدّاً. وليس لدي عنوان. إن أردت أن تراني مرّة أخرى، فستجدني بجوار إشارة المرور التي وجدتني بجانبها. شارة المرور هذه هي عنواني الدائم هنا، في هذه المدينة الدوّامة!

غادرها يان مهموماً حزيناً متكدّراً. ومع ذلك، ابتسم لها مجدداً، علّه يبعث في قلبها الأمل. حثّ الخطى، ورفع يديه لتاكسي، وطلب منه فوراً السير باتجاه ميدان تاكسيم.

* * *

وصلَ قبلَ موعده بعشر دقائق، فوجدَ أوميد سبقهُ إلى هناك بنصفِ ساعة. مقهى متواضع في زقاق «ميس» المتفرّع من شارع «الاستقلال» المشهور في اسطنبول، يُعتبرُ من معالمها السياحيّة والسياسيّة المعروفة. هذا الشارع التجاري في الأربعينات والخمسينات كان مملوكاً من اليهود والأرمن والسريان واليونانيين. وفي منتصف القرن التاسع عشر ولغاية مطلع القرن العشرين، كان سكّان الشارع يتكلّمون الفرنسيّة إلى جانب لغاتهم الأمّ. كان اسمه (Grande Rue de Péra). وعقب إعلان الجمهورية سنة 1923، تم تغيير اسمه إلى «الاستقلال». في خريف 1955، وعلى زمن حكومة عدنان مندريس، وبحجة إلقاء قنبلة على منزل مؤسس الجمهوريّة مصطفى كمال أتاتورك في مدينة سالونيك اليونانيّة، هاجمت جماعات متطرّفة تابعة للسلطة التركيّة هذا الشارع ونهبت منازله ومحالَّهُ التجاريّة، وقتلت الكثيرين من سكّانه، وطردتهم إلى اليونان وخارج تركيا. وأصبح هذا الشارع مذّاك للأتراك تماماً.

اقترب يان من المقهى شديدِ الاكتظاظ، لدرجة أن النادل بالكاد يمكنه المرور بين الطاولات والكراسي. وسط هذا الضجيج والزحام، وهو حال أغلب مقاهي شارع الاستقلال والشوارع التي تتفرّع منه، شعر يان أنه يستحيل الحديث بهدوء، خاصةً إذا كان الأمر حديث ذكريات. إذ لا يكاد المرءُ يسمعُ صوتَ نفسه! صار يجول

بنظرهِ في أرجائهِ كَمَن يبحث عن إبرةٍ وسط أكوامٍ من القش. كل الجالسين إلى الطاولات في الخارج إما شخصان أو ثلاثة أو أربعة. مجموعة من الشبان والصبايا اليساريين يتحدّثون بيأسٍ وحماسة عن هموم اليسار التركي ومشاكله، وكل شاب يحاول استعراض ثقافته، كي ينجح في إقناع إحدى الفتيات الجالسات معهم، كي تقاسمه فراشه. فتاةٌ تحاول قراءة محاولة شعرية لها، لشاعرٍ آخر يجالسها، لكن نظراتهُ مركّزة على فتحة صدرها وعنقها، أكثر من تركيزه على القصيدة. امرأة في الخمسين، قليلةُ التبرّج، تبدو حالها وكأنّها تحاول إقناع شاب في الخامسة والعشرين واستدراجه للنوم معها، ولكن ليس بطريقة مباشرة. صحافي شاب يحمل آلة تسجيل، ويجري حواراً مع كاتب قصّة، سعيدٌ بصدور مجموعته القصصيّة الثانية. ومجموعة من الشبان والصبايا يتحدّثون عن هموم السينما التركيّة، وكيف أن هامش الحريّة في الستينات والسبعينات، كان أكبر بكثير من الآن. وأن السينما تنحدر نحو الرقابة الذاتية، قبل الخضوع لرقابة الدولة. مجموعة أخرى يتحدّثون عن صعود الإسلاميين وخطر ذلك على المجتمع والفنون والآداب. وسط كل هذا الضجيج والهرج والمرج، رأى يان رجلاً جالساً وحده في زاوية تراس المقهى الذي ابتلع نصف عرض الشارع تقريباً، تنطبق عليه الأوصاف التي قالها أوميد عن نفسه كي يتعرّف عليه صديقه القديم؛ متوسّط القامة، بشعرٍ أشهبٍ مجعّدٍ مبعثر. يعتمرُ قبّعة فرنسيّة، مائلةً أو منحرفةَ الاتجاه، يضعُ نظّارة بعدستين صغيرتين دائريتين، ينسدل من طرفيها خيطٌ أسود يحميها من السقوط على الأرض. بذقنٍ وشاربٍ هما أقرب إلى ذقنِ وشاربِ أنطون تشيخوف منهما إلى شارب وذقن باولو كويلو. يرتدي

قمصياً فرنسيّاً فضفاضاً أبيضَ، بثنياتٍ على طول خط الظهر على لوحَي الكتف، وفي الجهة المقابلة على الصدر أيضاً. قميصٌ بكمّين طويلين فضفاضين، ملفوفين على الزندين، يشبه تلك القمصان التي كان يرتديها الفرنسيون قبل وأثناء الثورة الفرنسيّة، كما صوّرتهم اللوحات والجداريات والأفلام الوثائقيّة والسينمائيّة التي أرَّخت تلك الحقبة. ياقته كبيرة والأزرار الثلاثة العلويّة مفتوحة، بحيث يظهر شعرُ صدره المجعّد والأشهب أيضاً. يلفّ حول عنقه وشاحاً خمريّ اللون، بشكل اعتباطي. الناظرُ إليه يخالُ أنه خرجَ من لوحة أو فيلم وثائقي ويجلسُ في هذا المقهى، شارداً متمعّناً في دخان سيجارته المتصاعد، كتمعّن البصّارة في فنجان القهوة، حين تقرأ الفأل. للوهلة الأولى، انتاب يان شعور أن صديقه القديم أوميد يمارس شيئاً يشبه التصنّع والافتعال، الذي يمارسه الكثير من الكتّاب المبتدئين، أو مدّعي الكتابة الذين يريدون تقليد وتقمّص شخصيّة المثقف المبدع على أنه عشوائي، فوضوي، بشعر طويلٍ أشعث، ولحيّة وشاربٍ كثّ، وثيابٍ مهلهلة، بحيثُ يكون مختلفاً في هيئته وهندامه عن الجموع، على أن هيئته تفصح عنه، وتؤكّد أنه كاتب ومثقف. ولكنه استدرك وحاول تبديد هذه الفكرة. وحلّت محلّها فكرة رسم عمل تشكيلي تحاكي هذا التنوّع في المشهد الذي رآه الآن، وصديقه أوميد منزوٍ بهيئته الجد كلاسيكيّة تلك في إحدى زوايا هذا المشهد الذي ينضح بالثياب العصريّة. فسارعَ بإخراج أجندة صغيرة وسجّل عليها بضع جُمل قصيرة، تحدد فكرة العمل التشكيلي، لئلا ينساها.

ما أن وصل إلى جوار الطاولة التي يجلس إليها أوميد، قطع عليه شروده وناداه: «رفيق أوميد - هفال أوميد - صديقي، ما زلت حيّاً؟!

أنا يان دو سخيبّر». وقف أوميد متأمّلاً ملامح صديقه القديم، وحاول استحضار صورته، حين رآه أوّل مرّة في سهل البقاع اللبناني. وقال: «عزيزي جان. دعني أناديك جان. لأنني لم أعتد على يان». فردّ عليه: «كما تحبّ. كيف حالك؟ أثناء المراسلات عبر الإيميل، والاتصالات التليفونيّة أخبرتك كيف عثرتُ عليكَ بالصدفة. ويعود الفضل للمترجمة لاورا. سررت بأنك أصبحت شاعراً مشهوراً في تركيا وخارجها. شعركَ أنيق وجميل. وكما ذكرت لاورا، أنت تمتلك طاقة وقدرة على تحويل الحزن والألم والخيبة إلى قيمة جماليّة إبداعيّة».

- أشكرك على هذا الإطراء. وأشكر لاورا على كل لحظة تعبت فيها من أجلي، وفي سبيل تقديم قصائدي للناس. إنها إنسانة عظيمة. عظيمة بكل ما للكلمة من معنى.

- ولماذا افترقتما؟

- لأنني ببساطة، لا أستحقها. احترمتُ رغبتها في الارتباط، وفي الافتراق أيضاً، ولم أشأ التأثير في خياراتها. الحبُّ ليسَ أن تغيّرَ الحبيبَ حتّى يُصبحَ متماشياً أو متماهياً مع طريقتكَ في العيش والحياة والتفكير. الحبُّ أن تحبّه على ما هو عليهِ، لا كي يصبحَ على ما أنتَ عليهِ. الحبّ ليس صفقة حتّى يكون فيها مجال للتفاوض والمساومة على نمط تفكيركَ وحياتك. إن دخلت العلاقة بين حبيبين سياقاً كهذا، فهذا يعني أنهما بدآ يخرجان من حالة الحبّ إلى حالة أخرى، تشبه أيّ شيء، إلّا أن تكون حبّاً.

تفاجأ يان بهذه الفكرة، وبهذا التوصيف والتعريف «الأوميدي» للحبّ. وحاول البحث عمّا يمكن به فتحُ قوسٍ للسجال حول سؤال

الحب. هذا السؤال الممتدّ من الأزل إلى الأبد. فقال:

- ألا ترى أنك قاسٍ على كل تجارب الحبّ التي لا ولن تنتهي. وربما نتفق في نقطة أن الحبّ تضحية. والتضحيّة تنازل. تنازل عن شيء، أو الكثير من الأشياء، أو عن كل الأشياء، وربما عن الحياة أيضاً.

ابتسم أوميد، ممسكاً بسيجارة وناولها ليان، قائلاً: «تفضّل». التقطها بفرح، وقال: «رغم أنني لا أدخّن كثيراً، إلّا أن الجوّ والحديث معك، حفّزاني على التدخين. ولكن، وسط هذا الصخب، لا يمكنني التركيز. دعنا نخرج من هنا، ونستبدل المكان. سآخذك إلى مكان جميل، قريب من هنا. مكان هادئ وجميل». وافق أوميد على المقترح. وخرجا بصعوبة من زقاق «ميس» حتّى وصلا إلى شارع «الاستقلال» وبدآ السير باتجاه برج «غالاتا». فسأله أوميد:

- كيف لا تحبّ الضجيج؟! إنه أحد أصوات الحياة!

- إنه أحد أصوات الحياة، وليس كل أصواتها. ثم إنني أكره الضجيج حين يجبرني على التفكير فيه وحده، ويبعدني عن التفكير في ما ينبغي أن أفكّر فيه. الصخبُ والضجيج يجبرانني على الصمت تماماً، والإنصات لهما تماماً. الضجيج ضجيجان، الأوّل باعث على التأمّل، والآخر باعثٌ على التنمّل والتململ.

- الضجيج بالنسبة إليّ، أحد مصادر الإلهام. وفعله لدي، أكثرُ تأثيراً من فعل السكون والصمت اللذين أعتبرهما من أصوات الموت.

- ولكن الموت أيضاً، مصدر إلهام؟!

- نعم، الموت كموت، هو مصدر إلهام، وليس صوته أو صداه.

- بالنسبة إليّ، الأصل والصدى، كلاهما مصدر إلهام.

- ولكنني لستُ أنتَ. ردّ عليه أوميد.

وصلا إلى الساحة الصغيرة، قبالة مدرسة غالاتا. وكانت هناك جمهرة من اليساريين والبوليس. كل شيء على ما يرام، كما جرت العادة. عشرات من اليساريين يتظاهرون في أمرٍ لا يخصّ تركيا. يخصّ التدخّل الأمريكي في العراق. منهم من رفع صور صدام حسين إلى جانب رفع صور تشي غيفارا. فقال أوميد:

- ذات يوم، كنت أحمقَ كهؤلاء الحمقى. لا أعتبر نفسي ذكيّاً. ما زلتُ أحمقَ. اختلفت أوجه وأشكال الحماقة. ولكن حماقتي التي أعيشها الآن، ليست كحماقة هؤلاء المتظاهرين المخدوعين بشعارات كاذبة، لا علاقة لها بحياتهم.

قاطعه يان متسائلاً: «وهل الحياة حياةٌ من دون ارتكاب الحماقات؟!».

- لا طبعاً. الحماقات ملح الحياة. وإن زادت، أفسدت الحياة. الأمور حتى الآن، عادية وهادئة. سيختلقون حدثاً استفزازيّاً للاشتباك مع البوليس، كي يؤكّدوا على حالة المظلوميّة اليساريّة لديهم. سيعكّرون مزاج هذا الشارع، ومزاج العابرين به، وأصحاب المحال والمقاهي، ومزاج رجال الأمن، فقط كي يرضوا تفاهتهم اليساريّة.

- لماذا تصفهم بالتفاهة؟!

- أنا أعرفهم. وأعرف سلوكهم الاستعراضي هذا. وعشته

أيضاً. وأنا أعني ما أقوله. لتفاهة اليسار التركي قصّة طويلة عريضة، لا يمكن شرحها في عُجالة. اليسار التركي سقط، ولم يعد يساراً. سقط في الامتحان الكردي.

بعد أن تجاوزا الساحة، واقتربا من كنيسة القديس أنطونيو، أشار يان إلى اليمين، وقال:

- هل تعرف تاج الدين آكدمير؟ يمتلك حانوتاً لبيع الكتب الكرديّة والتركيّة في هذا الشارع. سجين سابق، وله تجارب قصصيّة جميلة.

- طبعاً أعرفه. رجل محترم وهادئ. كان ينتمي إلى حركة «كوك» التي اشتبكت مع حزب العمال الكردستاني من سنة 1978 ولغاية 1980، وراح ضحية تلك الصدامات العشرات. قال لنا رفاقنا في (PKK): إن عناصر منظمة (KUK) هم العملاء والخونة، والثورة المضادة. ويريدون عرقلة تحرير كردستان. هذا ما قرأناه في أدبيات الحزب أيضاً. لكن الحقيقة كانت خلاف ذلك. نحن من اعتدينا عليهم، وقبل أن نطلق الرصاص على الجيش التركي سنة 1984، أطلقناه على الكرد وعلى الأحزاب الكردية الأخرى. كان صراعاً حزبيّاً عبثيّاً أعمى وأحمقَ، قدّموه لنا على أنه صراع وجودي من أجل تحرير كردستان. ونحن الحمقى، كنّا نصدّق ذلك. سرد لي آكدمير بعض الصفحات من تلك الأيّام الداميّة، وكيف أن الكردي كان يقتل برصاص الكردي، بحجّة الدفاع عن حقوق الكرد والسير نحو تحرير كردستان. كذلك على الجانب الآخر في حزب (KUK) كان يتم شحن العناصر بالعمى الأيديولوجي والحزبي، حتى يحمل السلاح ضد (PKK). قال تاج الدين لي عبارات لن أنساها أبداً: «من

محاسن انقلاب 12 سبتمبر/ أيلول في تركيا، أنه أنهى الحرب الاهليّة بين حزبي PKK وKUK. وحين تمّ زجّنا في السجون، أتحيت لنا الفرصة للتعرّف على بعضنا عن قُرب، بعيداً من لغة السلاح. لولا انقلاب كنعان إيفرين، لأبدنا بعضنا بعضاً. في السجن، عرفنا زيف ودجل أكاذيب قياداتنا وكيف كانوا يصوّرون لنا خصومنا أو المختلفين معنا، على أنهم أعداء، وعملاء وخونة، وثورة مضادة».

- الكارثة نفسها، جرت في كردستان العراق، وكردستان إيران. أنا أعرف كل هذه التفاصيل. الكرد هم شعب الكوارث الداخلية التي لا تنتهي. حتّى يكاد المرء يقول: إن ذلك هو قدرهم الذي لا يمكنهم الهرب منه.

قالها يان بأسف.

وصلا إلى برج غالاتا التاريخي الذي يوجد في أعلاه مطعم. فقال يان: «دعنا نصعد إلى الأعلى». أجابه أوميد: «هذا مكان لا يذهب إليه إلّا الأغنياء».

- دعنا نصعد. هم ليسوا أفضل منّا. أنا أدعوك لتناول العشاء.

بعد خروجهما من المصعد، واتخاذهما مكانهما إلى جانب نافذة تطلّ على البوسفور، قال يان:

- هنا الضجيج أقلّ وأخفّ وطأة.

- عندما أودّ التركيز على فكرة ما، لا يمنعني الضجيج عن ذلك. تحت قصف الطيران التركي، ودويّ انفجار القنابل، ومداهمة الموت من كل الاتجاهات، كانت تنتابني فكرة كتابة نصّ. فوراً كنتُ أدوّن الفكرة، وربما أكتب بعض الجمل والمقاطع أيضاً. كذلك أثناء

خوض المعارك أيضاً. ربما تعتبر ذلك ترفاً وجنوناً، أو غباءً وحماقة. إلّا أن هذا ما جرى معي.

- حين تكون وحدكَ، يمكنك التغلّب على الضجيج والصخب بالتأمّل والتركيز في التفكير. ولكن حين يكون لديك شريك تريد الإنصات له، فهذا شيء آخر.

- معك حقّ.

- ماذا تريد أن تشرب. أنا سأطلب نبيذاً أحمر. وأنت؟

- ليكن المشروب نفسه. دعنا نعود من حيث بدأنا حوارنا. هل يمكن أن تعيد السؤال الذي طرحته بخصوص الحبّ وتوصيفي له، والذي لم يعجبك؟

- آها، طيب، وهو كذلك. كنتُ أستفسر فقط. والموضوع ليس في أن تعريفك للحبّ أعجبني أم لا! شعرتُ أنك ربما تقسو على كل تجارب الحبّ التي لا ولن تنتهي، حين قلتَ: «الحبُّ ليسَ أن تغيّرَ الحبيبَ حتّى يُصبحَ متماهياً مع طريقتكَ في العيش والتفكير. الحبّ ليس صفقة حتّى تكون فيه مساومة». أعتقد أنك ذكرت شيئاً من هذا القبيل. وأنا قلت ما معناه أن تجارب وقصص الحب مختلفة، ولكنها ربما تتفق في نقطة أن الحبّ تضحية. والتضحيّة تنازل. تنازل عن شيء، أو الكثير من الأشياء، أو عن كل الأشياء، وربما عن الحياة أيضاً.

- الحبُّ إنْ كانَ معيارهُ وميزانهُ التضحية، الجزئيّة أو الكليّة، هذا يعني أننا داخل مضمار المساومة أو التنازلات المتبادلة من الطرفين وصولاً إلى تسويات وتفاهمات متفق عليها. لماذا يريد منّي الحبيب

أن أتنازل له عن شيء من نمط حياتي وتفكيري، كي أبدو جميلاً أكثر بنظرهِ، وكي يحبّني أكثر؟! أوليست هذه أنانيّة؟! أليست رغبة في تنميط ونمذجة وربما ترويض الحبيب لحبيبه حتى يلتزم بمعاييره ومقاييسه للجمال والحياة والتفكير، التي تفسد الحبّ وتجعله أشبهَ بالتملّك؟! يعني أن الحبيب يريد رؤية نفسه في حبيبه. يريده جزءً من ممتلكاته. وهذا يعني أنه يحبُّ نفسه، أكثر من حبّه للشريك! مع نمط كهذا من العلاقة القائمة على المساومة والتسوية المتبادلة، هل يمكن الحديث عن وجود الحبّ؟! الحبّ ليس أن تمتلكَ حبيبكَ، أو أن يمتلّكَكَ. لأنّ علاقةَ التملّك قائمة على البيع والشراء، كأيّة علاقة تجارية، مهما تغلّفت بالرومانس والكلام المخملي. لا حبَّ بين التابعِ والمتبوع، وبين العبدِ والمعبود، والقائدِ والمنقاد، لانتفاء النديّة، وامتلاكِ الذات الحرّة، والقرار والخيال والتفكير الحرّ.

- وعلى ماذا يقومُ الحبُّ بالنسبة إليكَ إذاً؟!

- قائمٌ على تقاسم الحياة. على تبادل المشاعر والأحاسيس العميقة، على أن أمنحَ العشقَ والثقة للحبيب، لأنه سيّد نفسه أو سيّدة نفسها. على أمنح السعادة والفرح واللذة للحبيب، لذّة الحياة، لذّة الخيال والتفكير والقرار، من دون حساب. أن تُشعِرَ الحبيبَ بأنه أفضلُ منكَ، ولديهِ ما تفتقده، من دون أن تتذلل أو تتنازل له، أو تتوسّل إليه.

- وما قولك في من لا يريد شيئاً من الحبيب، ويضحّي بكل حياته لأجل إسعاده؟!

- هذا أسوأ ما يمكنني تصوّرهُ، وأضلُّ سبيلاً عن فضاء الحبّ. إذا كان الحبيب يريدني حيّاً، فلماذا أختار الموت لنفسي كي أقنعه

بأنني أحبّهُ؟! ما جدوى الحياة لدى الحبيب، إذا اختار حبيبته أو حبيبه الموت بدلاً من الحياة؟! الحبّ أن تعيش من أجل الحبيب، لا أن تموت من أجله. أن تعيش كما تريد أن تعيش، لا كما يريد لك الحبيب أن تعيش. لا حبَّ مع الموت، ولا موتَ مع الحبّ.

- ولماذا لا ترى الأمر من زاوية أخرى؟! إنَّ تقييمكَ للأمر، وتجريدَ حالة الحبّ من أيّ تنازل من أجل الحبيب، أن فيهِ أيضاً أنانيّة، بل إفراطاً في حبّ الذات؟!

- صديقي جان أو يان، لا فرق... الحياة هي فرصتك الوحيدة التي منحها اللّه لكَ. والموت يمكن أن تحصل عليه بسهولة ووفرة، وبرخص أيضاً. إن دخلتَ في سلطان الموت، فلن تعود منه إلى مضمار الحياة مجدداً. حين أحبُّ الحياة، وأهبُ نفسي للحياة، وأتقاسم هذه الحياة مع الحبيب، هل في هذا أنانيّة؟! الحياة كفيلة بأن تغيّرني وتروّضني، وتقنعني بأن طرائق تفكيري وعيشي خاطئة أو صائبة، وليس الحبيب. الحياة هي المعلّم والمدرسة الأكثر رحابة، وليس الحبيب. الحياة تصبح أجمل وأكثر روعة مع وجود الحبيب، كما هو، لا كما أريد له أن يكون، وليس كما يريد لي أن أكون. نحنُ ثمارُ الحياة. لكلّ منّا طعمه ولونه ورائحتهُ المختلفة. والحبُّ، برأيي، هو ائتلاف المختلفين. يعني أن أحبَّ فتاةً لأنها تختلفُ عنّي. وأن تحبّني لأنني أختلفُ عنها أو أختلفُ عن أناس آخرين من حولها. أن نحبّ بعضنا مع احترام مساحة الاختلاف. والحياة كفيلة بتقليص هذه المساحة. إن زادت مساحة الاختلاف، نصبح خارج دائرة الحبّ. وإن تقلّصت مساحة الاختلاف، وازدادت مساحة التطابق، أيضاً نخرج تباعاً من دائرة الحبّ. أعتقد أن تعريفاتنا

للحبّ منشأها ديني. التضحية في سبيل اللّه. الجهاد والموت في سبيله بهدف كسب رضاه والحظي بهداياه في الجنّة من نِعَم وحور العين وأنهار الخمر والعسل. لقد منحني اللّه الحياة حبّاً وتكريماً، لا كي أتلفها في ابتغاء مرضاته. هل سأزيده في شيء، إن متُّ من أجله أو في سبيله، أو عزفت عن مباهج الحياة؟! هل هو بحاجة إلى موتي، حتى أشعِرهُ بأنه ربيّ، وأنني مدين له بخلقهِ لي، ومنحي هذه الحياة؟! أنا مؤمن بأن اللّه خلقني كي أعيش وأحيا في سبيلهِ، وليس كي أموت لأجله وفي سبيلهِ. لماذا أتنازل له عن أجزاء من الحياة التي منحها لي، طالما هو خالقي وخالق الحياة؟! هل هو بحاجة إلى ذلك؟! طبعاً لا. بصراحةٍ أكثر، لا أؤمنُ بإلهٍ خلقَ أشياء كثيرة وجميلة ورائعة، لا حصر لها، ثم ينهاني عن التمتّع بها، على أن ذلك كُفر! الابتعاد عن مباهج الحياة التي خلقها اللّه ومنحها لمخلوقاته، هو إهانة للذات الإلهيّة ولقدرته في الخلق!

- غريبٌ عجيبٌ كلامك؟! وماذا تقول في تجارب كل هؤلاء المتصوفة النسّاك والزهّاد الذين ضحّوا بالكثير من مباهج الحياة في سبيل حبّ اللّه ونيل مرضاته؟!

ابتسم أوميد قليلاً. أخذ رشفةً من النبيذ ثمَّ أجاب:

- ربما تجد في الأمر غرابةً وعجباً. هذا من حقّك. لستُ مجبراً على إقناعكَ بفكرتي. ولا أقولها، كي تقتنع بها. وأصلاً، لستَ مضطرّاً إلى الاقتناع بها. أقول لك فكرتي؛ فقط لأنني أريد أن أقولها لك، لا أكثر.

المتصوّف ليس مَن يبتعد عن الحياة، ويقترب من الموت. بل العكس، هو من يقترب من الحياة بعشقٍ ولهفة وشغف، ويحبّها

ويذوب مولعاً ولهاناً بها. والحبّ بين البشر، يفترض أن يشبه حبّهم للطبيعة. يعني؛ حين تحبّ بحيرة، أو نهراً أو شجرة، أو عصفوراً أو غيمة...، هل هذا الحبّ لا تقوم له قائمة إلّا حينما تتنازل لك البحيرة، أو النهر، أو الشجرة، أو العصفور، أو الغيمة، عن شيءٍ من طباعها وطبائعها وطرائقها في الحياة التي لا تروقُ لك؟! أعتقد أن جذوة الحبّ الحقيقي بين البشر ستبقى متقدّة وآبدة، إن كانت تشبه حبّ البشر لمفردات الطبيعة.

بخصوص المتصوّفة، لست مرتاحاً لهم ولكلامهم وطريقة حياتهم. هم يرفضون الطقوس الدينيّة وطرائق الحياة الدينيّة، وأغلبهم، إن لم يكن كلّهم، يسعى إلى مواراة إلحاده، بحبّه للّه والعشق الإلهي. حين أقرأ بعض قصائد العشق الإلهي، أجدها موغلة في الحبّ البشري لفتاة أو لرجل، ولكن، ثمّة إخفاء وتورية. ثمة خوف من إثارة غضب الحشود. أغلب المتصوفة في الإسلام، لاذوا بالشعر رئةً ولبوساً ومتراساً، رغم أن القرآن نهى عن الشعر وذمّ الشعراء. أوليس في ذلك اعتراض على النصّ المقدّس المحذّر من الشعر؟! ربما ليست لديك معلومات حول تفاصيل الدين الإسلامي وتاريخه، عزيزي جان. سورة الشعراء في القرآن عدد آياتها 227 آية. لا يتمّ ذكر الشعراء إلّا في الآية 224، على أن الشعراء يتبعهم الغاوون. وأنهم يقولون ما لا يفعلون.

قاطعه يان بالاستفسار:

- والدي قرأ القرآن، ولكنه لم يفهمه. أنا لم أقرأه. ولا أستطيع الحديث في شيءٍ أجهله. ولكن ماذا تريد أن تقول بالضبط؟!

- أودّ القول: إن العشق الإلهي هو في أصلهٍ وفصله وجذره عشقٌ

بشري، للذات أو للآخر، سواء أكان امرأة أو رجلاً. جلال الدين الرومي ألّف ديواناً كاملاً حول صديقه شمس الدين التبريزي حين فقده وافتقده.

صديقي العزيز، أعتقد أن الأديان كلها أرادت وتريد إزاحة الحياة عن الإنسان، على أنها غرور وخادعة وفانية وسبب الآثام، ومهلكة وسبب الآلام، ولولا الخطيئة لما كانتِ الحياةُ الدنيا. . .إلخ! وأن الحياة الحقيقيّة والأبديّة موجودة بعد الموت. وكي يربح المرء الحياة الأبديّة في الآخرة، عليه التضحية بالحياة الدنيا. فكيف تكون الحياة بهذه الصفات المخيفة والبشعة والشريرة، وقد تحدّث اللّه عنها في أماكن كثيرة من القرآن، إذ قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ والأرضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلَّا بِالْحَق﴾. وفي آية أخرى قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾. وقال أيضاً: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ والأرضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً﴾. إذن الحياة ليست شريرة وباطلة، ولم يخلقها اللّه عبثاً. الأديان، كل الأديان، حاولت شيطنة حقيقة الحياة المعاشة، المحسوسة، وفي الوقت عينه، حاولت الأديان نمذجة وتخليد وتأبيد حياة افتراضيّة موجودة بعد الموت، وفي عالم الغيب! برأيي كلما ازددت حبّاً للحياة، ازددت حبّاً للّه واقتربتَ منهُ ومن مرضاته.

- كما ذكرت لك؛ لم أقرأ القرآن، ولا أريد الحديث في شيء أجهله. أرجو ألّا تأتي بأمثلةٍ من كتابٍ أجهله. ولكن، لا أعرف لماذا ينتابني شعور بأنك انتقائي. تنتقي ما تراه مناسباً لفكرتك؟!

انزعجَ أوميد من هذه الصراحة، وصار في داخله يغلي كالمرجل، وقال بصوت مشوب بالسخرية والغضب:

- هذا صحيح. لست وحدي هكذا. جميع البشر على هذه الشاكلة. مِنْ أكثرهم جهلاً، إلى أكثرهم علماً. الأنبياء والفلاسفة والمصلحون والأدباء والساسة...، الفلاحون والعمّال وماسحو الأحذية والمتسوّلون والمجرمون والقوّادون والعاهرات...، الكل هكذا. أنت أيضاً هكذا، تنتقي ما يناسب ويدعم فكرتكَ. ثمّ كيف تريدني أن أكون؟ أن أنتقي ما يناسب فكرتكَ مثلاً؟!؟

- أنا آسف. حقّاً آسف، وأعتذر لك. لم أقصد ذلك. ربما لم أكن موفّقاً في انتقاء العبارة.

- ليس ربما، بكل تأكيد، لم تكنْ موفّقاً في عبارتكَ. ولقد قلتَ ما قلتَهُ، سواء عنيتَ الأمر أو لم تعنِهِ. وسمعتَ منّي الردّ، وانتهى الأمر. واعتذاركَ مقبول على ألا تكرر ذلك.

شعرَ يان بالخجلِ والذعرِ من طريقة ردّه الحادّ والمتغطرس، وأن الحديث كان على حافة الإطاحة باللقاء! وقال في نفسه: «حقاً، إنْ أردتَ أن تعرف حقيقة إنسان، اختلفْ معه. واحتكّ به، حتى تزول مساحيق الكلام - الأقنعة». سادت بضع لحظات من الصمتِ المشوب بالحذر والتوتر. حاول يان استعادة زمام المبادرة، عبر تغيير دفّة الحديث والعودة إلى الماضي، وقال:

- دعنا نعود إلى سنة 1990. هل تعرف لماذا غادرت بيروت، وعزفتُ عن كتابة مشروع رواية عن الحزب وكفاحه ضد النظام التركي؟!

- لا أعرف. لكن أذكرُ أنكَ كنتَ متحمّساً جداً، ومنبهراً كثيراً بالحزب وقصص المقاتلين والمقاتلات.

- لجوء أحد المنشقين إليّ، وهروبه من معسكر الحزب في سهل البقاع، وطلبه منّي مساعدته للوصول إلى أوروبا، واستماعي لقصصه ومشاهداته ومعاناته ضمن الحزب، كل ذلك فتح عينيّ على أمورٍ كثيرةٍ كنت أجهلها تماماً. فماذا عنك؟!

مع خريرِ ملءِ أوميد كأسهُ الثالثة بالنبيذ، والطعام لم يأتِ بعد، أطلق زفرةً، ممعناً النظر في الكأس، وشعرَ بجوعٍ شديدٍ للحديثِ عن الماضي، ثم قال:

- لا أعرف من أين أبدأ. هل أبدأ مِن كتبِ اليسار التي قتلتنا؟! أم مِن الأغاني الثوريّة التي جيّشت العواطف والمشاعر؟! أم مِن قصص الحبّ الفاشلة التي قادتنا للمهالك والحروب؟! أم مِن الأفكار والشعارات البرّاقة؟!

أخذ رشفةً كبيرةً من الكأس، وبقي يحملها في يدهِ اليمنى، محدقاً في صورته المشوّهةِ المنعكسة عليها. ثم عاود كلامه:

- أترى هذه الصورة الصغيرة المنعكسة على الكأس؟! أترى كيف هي مشوّهة وممسوخة؟! أنا هكذا من الداخل. داخلَ هذه الأسمال التي أرتديها، حفنةٌ من أنقاضِ إنسان، تسيرُ على قدمين. حاولتُ الهرب من مواجهة الواقع، واقعِ موت الفتاةِ التي أحببتُها من طرفٍ واحد، واتجهتُ نحو لهيب الثورة وخرافات الأيديولوجيا والكفاح. كنتُ جباناً، ولم أجرؤ على الإفصاح عن حبّي لها. قَتلَني جبني. وقَتَلَتْها أوهامها، وأحلامها في التحرر. ظنّت أن الحريّة في الموت احتراقٌ على أسوار آمد. كان اسمها زكية آلكان، طالبة طبّ. أعتقد أنك سمعت بها.

- طبعاً سمعت بها. زكية صارت أسطورة، وحكاية إضرامها النار بجسدها، هزّتني من الأعماق.

- إلى هذه اللحظة، لم أجرؤ على كتابة قصيدةٍ عنها، أرثيها. لا أعرف، هل أرثيها أم أرثي نفسي؟! النيران التي أضرمتها بجسدها، ما زالت مشتعلة ومتأججة في أعماقي. أشعرُ أن جبني هو الذي وضع في يدها عود الثقاب المشتعل. بعد موتها، مشيت في جنازتها، وبكيت بحرقةٍ ومرارةٍ لا يمكنني وصفها لك. وتحوّلت حياتي كلّها، في تلك اللحظة، إلى مسيرٍ لا ينتهي في جنازة هذه الفتاة. هذا المسير دفعني لاتخاذ قرار الانضمام إلى الحزب، وملاحقة طيفها. فوجدتُ نفسي في معسكر سهل البقاع التابع للحزب. وكي أتقمّص دور الثوري والحزبي المخلص الوفي، أسرفت في قراءة كتب الحزب وأدبياته، علها تخرجني من الحزن والألم اللذين أعيشهما. تلك الكتب، وتلك الشعارات، مضافاً إليها شعبويات اليسار وخرافاته اليوتوبيّة، كل ذلك خفف عنّي قليلاً، أو ألهاني عن مأساتي بعض الشيء. ولكثرة تكراري للأكاذيب، صرتُ أصدّقها. صرتُ أقدّس الثورة والحزب، لأن فيها الفتاة التي أحببتها وضحّت بنفسها من أجل هذه الحركة وهذه الأيديولوجيا. هذا الالتزام العاطفي أو التورّط العاطفي، دفعني إلى نوع من التورّط العقلي أيضاً. وكانت مرحلة الانبهار بالحزب والثوّار والزعيم على أنهم ملائكة وقدّيسون، وفدائيون، وناكرو ذات، ومشبعون بحبّ الوطن والشعب والقضية. وصرتُ أنظر إلى الحزب والثورة بتلك النظرة الرومانسية الحالمة. ولكن حين بدأت معايشة التجربة، بعد مضي عدّة أشهر لي ضمن الحياة الحزبيّة والعسكريّة في معسكر

الحزب في لبنان، بدأت تتوضّح لدي المغامرة التي جرّتني من عواطفي نحو مزالقها الدمويّة.

اكتشفتُ في معسكر الحزب بلبنان أن الرفيق الحزبي يمكن أن يقتل رفيقه أو أخاه أو أباه. . .، إذا طلب منه الحزب ذلك. وأن المناضل الحقيقي هو الذي يعبد الحزب وزعيمه. اكتشفتُ أنه إذا حملت معولاً وهويت به على أرض معسكر الحزب في البقاع اللبناني، ستخرجُ لي عظام شخص تمّ قتله أو تصفيته على أنه خائن أو عميل للنظام التركي أو مرتدّ عن الحزب والثورة. تفاجأت وانصدمت وهالني ما اكتشفته! ثم بدأتُ أقنعُ نفسي بأن قتل هؤلاء الذين ربما يكونون أبرياء، على أنهم الخونة، هو من طبائع كل الثورات في العالم! وحين عرفتُ أن العديد منهم كانوا مظلومين، وأنني يمكن أن أكون واحداً من بين المئات من أمثالهم الذين يلتحقون بالثورة، ويتم إعدامهم من قبل الثورة ومحاكمها على أنهم خونة، أيضاً لجأت إلى المخاتلة وخداع الذات، وأن ذلك هو من طبائع الثورات التي تأكل أبناءها. والأهمّ من أسماء الضحايا الأبرياء، الحريّةُ والاستقلالُ والعدالةُ التي ستأتي بها الثورة للشعب والوطن. وكلما ازددتُ معايشةً لهذا الجحيم الداخلي، وسط حفلة الأوهام الدمويّة التي لا تريد أن تنتهي، أصبحَ التوحّش جزءً من طبائعي أيضاً. هكذا هي الحروب. إذ تبذلُ الحضارةُ مئات وآلاف السنين من الجهدِ في تطوير البشر وأنماط تفكيرهم ومعيشتهم، وتتكفّل الحروبُ وتجّارها بإعادة البشر والبشريّة إلى الطور البهيمي الوحشي، في بضع سنوات.

بقيتُ في معسكر البقاع حتّى شتاء 1990. وعرفتُ أن المؤتمر

الرابع للحزب عُقِدَ في الجبال. وأن قيادياً قدّمَ بعض الأفكار الإصلاحيّة التغيريّة التي ينبغي أو يفترض أن تطرح في أيّ مؤتمر حزبي، لمناقشتها. عرفتُ في ما بعد، أنه تمّ اعتقاله بتهمة تشكيله تيّاراً تصفويّاً داخل الحزب، ويريد ضرب وحدته وتماسكه، وأنه عميل للأتراك وخائن. . .، إلى آخر هذا الكلام.

قاطعه يان متسائلاً: «آسف، لأنني أقاطعك أحياناً. هل يمكن أن تذكرَ اسمه؟»، أجاب أوميد: «محمد شنر. كان من مؤسسي الحزب، وقضى نحو عقد من عمره في السجون التركيّة. وكان أحد القادة المسؤولين داخل السجون».

سجّل يان هذه المعلومات على دفتر صغير، وضعه أمامه على الطاولة. عاد أوميد إلى اسكتمال حكايته:

- قبل نهاية 1990، تمّ فرزي إلى مدينة الدرباسيّة التي تشطرها الحدود إلى شطرين، بمهمّة الإشراف على حفر مجموعة الأنفاق التي تمرّ تحت الحدود وسكّة القطار وحقول الألغام، ربما يصل طولها إلى مئات الأمتار، بهدف نقل المقاتلين والأسلحة من سوريا إلى تركيا. وكانت بدايات الأنفاق في الخلاء أو في بعض المنازل المقرّبة من الحزب في الطرف السوري، ولكن يجب أن تكون نهاياتها في الخلاء، على الجانب التركي. أنفاق تشبه إلى حدّ ما الأنفاق التي تربط «غزّة» بـ«رفح» المصريّة. لكن أنفاقنا كانت بسيطة وضيّقة لا يصل طولها إلى 500 متر. لم تكن لي أيّة علاقة بتنظيم الحزب في الدرباسية. فقط كنت أشرفُ على حفر نفق وصل طوله إلى 250 متراً. كذلك كنت أزور كوباني للإشراف على حفر نفق يبدأ من منزل أحد مؤيدينا، قريب من الحدود. وحفر خندق في مدينة

«سري كانيه»، يبدأ من بئر في فناء بيت يملكه أحد مؤيدي الحزب، وينتهي خلف محارس الجنود الأتراك وحقول الألغام بما يزيد على 400 متر. كان هذا أهمّ نفق من ضمن الأنفاق المنجزة. قال لي أحد الرفاق أنهم كانوا يستعملونه حتى سنة 1996. صاحب الدار كان يقول لجيرانه، حين يأتون لجلب الماء من البئر، إنها مردومة ومسكونة بالجنّ.

قبل البدء بالحفر، زرعنا فناء الدار، على امتداد جدرانه الثلاثة بالأشجار. ورفعنا من مستوى الجدران. كان ذلك بأمر من الحزب، وبتمويل منه على أن صاحب المنزل يرمم بيته ويزيد من تصوينه وتحصينه.

كانت هناك أنفاق في عامودا وقامشلو، أشرفُ على حفرها. ولكن أغلب وقتي أمضيتهُ في الدرباسية لأنها تتوسّط هذه المناطق. لم أكن مرتبطاً بقيادة التنظيم في الدرباسيّة أو في محافظة الجزيرة. بل كنت على ارتباط مباشر بقيادة الحزب في دمشق. لدي بطاقة عدم تعرّض صادرة من المخابرات السوريّة، كانت تُمنح للعناصر الأمنية التابعة للحزب ولقياداته المهمّة، بينما الكوادر والعناصر الصغيرة، فيتم اعتقالها أحياناً، بهدف خلق نوع من السريّة في العمل والحرص والانضباط التنظيمي العسكري، على أن النظام السوري غير مرتاح لوجود حزبنا ورفاقنا، ومخابراته تعتقل كل من تصادفه في طريقها. بعض البسطاء كانوا يصدقون ذلك، وأن نظام حافظ الأسد يستهدفنا! وأحياناً ينفون أيّة علاقة للحزب بنظام الأسد! علاقتي المباشرة مع قيادة الحزب، وحملي بطاقة عدم التعرّض الممنوحة من المخابرات السوريّة، كانا يخلقان لدي نوعاً من الحصانة والرهبة. ثم إنني لم

أكن أتدخّل أبداً في الأمور التنظيميّة الأخرى. مهمّتي كانت واضحة ومحددة.

حدثت بعض المشاكل في الدرباسيّة، حيث ضبط مسؤول التنظيم في حالة غير طبيعيّة مع سيّدة، وتمّ احتجازه ونقله للتحقيق. وتمّ استدعائي بشكل عاجل إلى دمشق، من دون معرفة السبب. قيل لي إن الزعيم موجود في لبنان، وغالباً في معسكر الحزب، عليك التوجّه إلى هناك. ذهبتُ ورأيت ذلك المسؤول قيد التحقيق. كان من منطقة ماردين. سألني المحقق وكان مسؤول المعسكر وقتذاك، عن حقيقة ما أعرفه عن الأمر. ذكرت له أن لا علاقة لي بالتنظيم مطلقاً. أنا مكلّف بمهمّة خاصّة وسريّة. ولكنني سمعتُ أنه جرت بعض الأحداث المنافية للأخلاق سواء بين الكوادر، أو افتضاح علاقة مسؤول أو عنصر مع إحدى النساء. لكن، بحكم علاقتي مع هذا الشخص، وجدته محترماً وملتزماً بخطّ ونهج الحزب. هذا كل ما لدي. وشهدتُ جزءً من محاكمته. كان جريئاً. أو ربما شَعرَ أن نهايته اقتربت، فأراد قول ما لا يُقال.

سأله المحقق: «ألم تكن متزوّجاً؟ وتزور زوجتك، بين الفينة والأخرى؟». أجاب: «بلى. هذا صحيح». تابع المحقق: «ورغم أن الحزب يمنع العلاقة الجنسية، إلّا أنه كان يسمح لك بذلك. ولكن، لماذا حاولتَ انتهاك شرف الشعب والحزب بأن تقيم علاقة مع امرأة أخرى، رغم أنك متزوج، وتعاشر زوجتك. إن خيانتك بخيانتين؛ تخون زوجتك، وتخون الحزب والشعب». فقال الرجل بهدوءٍ مضبوطٍ لأقصى درجاته، وجميع من حضر المحاكمة، يدركون أنه يكتم بركاناً يغلي:

- «تركتُ أهلي وقريتي، واجتزت الحدود مع زوجتي وأطفالي، وواجهنا المخاطر والأهوال، وأصبحت محكوماً بالإعدام في تركيا، ووهبت حياتي للحزب والثورة من دون مقابل، لا كي تأتي وتحاسبني على معاشرتي لزوجتي، وتعتبرها منّة. أيّ حزبٍ هذا، الذي يبيحُ لنفسهِ التحكّم بعلاقة الزوج مع زوجته، إذا كان المرء كادراً في الحزب؟ الكلام الذي قيل في حقيّ والاتهامات التي سيقت على أنني ضبطتُ بشكل مخلّ مع سيّدة، هذا اتهام باطل. والتقارير المقدّمة بحقّي كيديّة وتافهة. وفرضاً لو كان هذا الاتهام صحيحاً، فالحكم الصادر بحقّي، ينبغي أن يطبّق أوّلاً على الزعيم. فقد كان متزوّجاً، ويقيم علاقات مع كوادر نسائيّة داخل الحزب. فلماذا حلالٌ له، وحرامٌ على غيره من الكوادر والعناصر؟! أتمنّى أن تدوّن هذا الكلام في محضر الجلسة وتنقله للزعيم أيضاً». جاء كلامه كوقع الصاعقة على الجميع. شعرَ القاضي بأن استمرار المحاكمة سيفتح عليه وعلى الزعيم أبواباً من غير المعروف شدّة الريّاح التي ستهبّ منها. فسعى إلى إنهاء المحاكمة مع زيادة تهمة جديدة إلى لائحة الاتهام السابقة، وهي التطاول والإساءة لقيادة الحزب. وأصدر حكمه بالإعدام. وطلب من الحضور التصويت، فرفع الجميع أيديهم بالموافقة والمصادقة على الحكم.

- ومن ضمنهم أنت؟! سأل يان.

- طبعاً. وهل يمكنني فعل ما يخالف الإجماع الحزبي؟! المفاجأة أن الرجل وضع الزعيم في قفص الاتهام معه. وهذه وحدها تسجّل له، حتّى ولو كان مذنباً وارتكب تلك الفعلة حقّاً! تم إطلاع

الزعيم على مجريات المحاكمة وما قاله هذا الكادر. فعفا عنه. وغالباً ما كان يفعل الزعيم هكذا، بحيث يظهر نفسه على أنه يمنح الفرص للمذنبين ومرتكبي المخالفات والانتهاكات الحزبيّة، ليظهر نفسه أنه «يُمهل ولا يُهمِل»! فيصيرُ الزعيم حديثَ الكوادر وأمثولة التواضع والتسامح والعفو عند المقدرة. وينسى الكوادر كلام ذلك الشخص عن الزعيم وعلاقاته النسائيّة، حيث غطى عفو الزعيم، على ذلك الاتهام الموجّه إليه!

كانت هذه عادة الزعيم، في ما يتعلّق بأحكام الإعدام التي تصدر في حضوره، بحيث يجنح إلى العفو ومنح فرصة جديدة للمتهم أو حتّى المدان بالقرائن والأدلّة. ولكن كانت لديه عبارة ملتبسة ومطاطيّة، تعطي إشارة تنفيذ حكم الإعدام، وهي: «اتخذوا ما ترونه مناسباً. أنتم هناك، وأدرى بشؤونكم». كان يقول هذه العبارة، في المحاكمات التي تجري في الجبال، بعيداً من مقرّه في دمشق أو لبنان. وحين يسقط بعض الأبرياء، يستدعي الزعيم بعض قيادات تلك المنطقة التي جرت فيها المحاكمات وتم تنفيذ أحكام الإعدام فيها، كي يفتح تحقيقاً جديداً مع تلك القيادات بخصوص المحاكمات والإعدامات! وحين كان يبرز المسؤول أحكام الإعدام التي أصدرها، بمقولة الزعيم «اتخذوا ما ترونه مناسباً» أو «الأمر متروك لكم»، كان الزعيم يردّ «وهذا لا يعني أن تقتلوا الناس والكوادر بشكل عشوائي»! وبهذه الطريقة كان يبرّئ ساحته، ويضع ذلك المسؤول أو القيادي تحت طائلة الذنب والجُرم والعقوبة.

في مساء اليوم التالي، هزّ معسكر البقاع أزيزُ رشقات الرصاص في الهواء. آلاف طلقات الرصاص تم استخدامها. سألت عن

السبب، فقيل: «ابتهاجاً وفرحاً بنجاح عملية تصفية محمد شَنر في قامشلو».

- السجين السابق، الذي طرح أفكار إصلاحيّة على مؤتمر الحزب؟ سأل يان.

- نعم، هو. ألقي القبض عليه، وتم سجنه في الجبال. ولكنه نجحَ في الهرب. ولجأ إلى الحزب الديمقراطي الكردستاني العراقي. وحاول تأسيس حزب مناهض. مسألة عودته إلى قامشلو، بالنسبة إليّ، ما زالت غامضة. لماذا عاد، وهو يعرف القوة الضاربة للحزب هناك؟ ويعرف أن الحزب متحالف مع النظام السوري ومخابراته. على فكرة، كان يمكن أن ينجو شَنَر من الموت. إصابته لم تكن خطيرة. قتل، لأن المخابرات السوريّة حاصرت المستشفى ومنعت التبرّع بالدم له.

بعد مضي أسبوعين، عدت مجدداً إلى الدرباسيّة، لمتابعة سير العمل في الأنفاق. انتهى الحفر في نفق الدرباسيّة. كان خارج المدينة، يبدأ من نهر صغير جاف، تتجمّع فيه مياه الأمطار وتجري شتاءً، وينتهي خلف الحدود. استغرق حفرهُ ما يزيد على سنة ونيّف، شهدَ العديد من الأحداث الدراماتيكيّة، تصلح لأن تكون مادّة لعمل روائي، من أروع ما يمكن أن تعالج أحد جوانب الثورة والكفاح الكردي. ذلك النفق كان شاهداً على لحظات الضعف الإنساني، والكثير مما نجهله عن الثورة، في تلك الفترة. وربما حياتنا كلها، هي تلك الأنفاق العابرة للحدود، ولم نخرج منها حتّى الآن. إنه نفق الشعور بالخيبة وتحطّم الأحلام، وتلاشي ما يمكن وصفه بالرومانسيّة الثوريّة، التي عشنا على إيقاعها طوال عقدٍ ونيّف. نفق الشعور

بالمديونيّة تجاه الذات والآخر، واعتصار الضمير والوجدان الإنساني تجاه الجرائم التي ارتكبت بحقّ الأبرياء، باسم الثورة والوطن والقضيّة ودماء الشهداء، وكنّا نبررها ونشرعنها، بحجّة «إنها الثورات، هي هكذا دوماً، تأكل أبناءها». إنه نفق الشعور، بأننا كنّا الضحايا والجلّادين في آن، ونفق أننا كنّا السجن والسجّان والسجين في آن.

ولكن، حتّى الآن، لا أعرف لماذا تمّ تكليفي بمهمّة حفر الأنفاق! رغم أن الجميع كانوا يعرفون أنني كنت في السنة الأخيرة من دراستي في كليّة الطبّ!؟ خلال تجربتي في هذا الحزب، لم أجد أبداً، أن الشخص المناسب في مكانه المناسب.

- أبداً؟!؟ حتّى الزعيم؟!

- حتّى الزعيم.

- هذا كلام خطير.

مكتبة
t.me/t_pdf

ليس أخطر مما عايشه الكرد من خراب ودمار نفسي واجتماعي وسياسي واقتصادي وبشري... ! الكل كان ينادونني بلقب دكتور. رفضت هذا اللقب. وقلت لهم: «أنا مقاتل. عنصر وكادر حزبي مستعدّ للموت. ولا علاقة لي بالطبّ حتى تنادوني بهذا اللقب». كان في الحزب أشخاص يحبذون أن تتم مناداتهم بلقب دكتور، فقط لأنهم درسوا سنة أو سنتين أو ثلاث سنوات في كلية الطبّ. بل إن بعض الممرضين والممرضات تتم مناداتهم بدكتور فلان أو علان. ليس هذا وحسب، بل إن بعض الذين لم يحصلوا على الشهادة الثانوية، ممن تمرّنوا على الإسعافات الأوليّة في الجبال، كانوا

يحبّون مناداتهم بلقب دكتور. كنت أجد ذلك شيئاً سخيفاً ومنفّراً. أيّ امتيازٍ أكاديمي أو مهني لكَ تنفرد به عن رفاق سلاحكَ ودربكَ، حين يلحق باسمك لقب «دكتور» في هذه الجبال والوديان؟! وربما حتّى الآن، هناك من هو ضمن الحزب، ولم يحصل على شهادة الطبّ، ولا يعترض على مناداته بلقب: دكتور!

شعر يان في نبرة صوت أوميد أثناء الكلام، بالانكسار، وأنه بقايا رجل، بقايا إنسان، حطامُ شخص كان يوماً ثائراً مناضلاً في سبيل قضيّة تحرر شعب ووطن. لمحَ في عينيه شعوراً هائلاً بالرغبة في الكلام، بعد صمت دام 13 سنة. كذلك رأى في قلقه واضطرابه النفسي شعوراً هائلاً يدعوه الى الاستمرار في الصمت، خشية أن يفقد حياته. وبين هذين الشعورين، ثمّة كونٌ من العذاب والاعتصار الداخلي. ثمّة رهاب نفسي فظيع، ورغبة في التحرر من الخوف، عبر الكتابة والكلام، بالتزامن مع إحساس عميق بأن الحريّة، التي تأتي متأخّرة، ستكون مكلفة، ولن يكون لها ذلك المذاق، حين يعانقها المرء في وقتها. وإن التحرر من الخوف، لربما لن يعيد إليه سنواته التي فقدها في ذلك النفق الممتدّ من الدرباسيّة إلى اسطنبول، مروراً بلبنان وكردستان العراق! إنه السجال الداخلي، الوجودي المحتدم، وقد حفر في حياة هذا الرجل نفقاً رهيباً من القلق الملتهب يمزّقه ويمسكُ بخناق روحهِ، منذ 13 سنة. إنها الرغبة العارمة في الصراخ، ملء الكون، ملء الوجود، ملء جبال كردستان ووديانها، ملء شوارع دياربكر وقراها والقول: لست خائناً يا بشر، يا أشجار، يا حجارة، يا أنهار، يا طيور، يا رياح، يا بيوت، يا نوافذ. . . ، لم أخنكم. آن لكم أن تصدّقوني. كلّنا

ضحايا، كلّنا، من دون استثناء! المنتصرون والمهزومون في أيّ حرب، هم ضحايا.

اقترب النادل ووضع أطباق الأكل على الطاولة. بقي أوميد شارداً، وتكفّل يان بترتيب الطاولة بمعيّة النادل.

- «متى التحقت بالجبال؟»، سأله يان.

- في أغسطس/آب 1992. وبعد مضي شهرين، شنّ الجيش التركي هجوماً علينا، بمساعدة الحزبين الكرديين العراقيين؛ «الاتحاد الوطني الكردستاني» و«الديمقراطي الكردستاني». كانت حرباً عبثيّةً عمياء. أبدينا فيها مقاومة، لا يمكنك تصوّرها. أغلب مقاتلينا كانوا أغراراً، لم يدخلوا حتى معركة بسيطة. الكتلة العسكريّة المتمرّسة والخبيرة في فنون القتال كانت موجودة داخل تركيا، وليس في كردستان العراق. ومع ذلك قاومنا بشراسة. وفشل الهجومّ وانتصرنا. وكان انتصارنا قائماً على فشل أهداف الهجوم في القضاء علينا. وبقاؤنا هناك، كان بحدّ ذاته انتصاراً. أو هذا ما كنّا نظنّه، ويسوّق له الحزب! الكارثة لم تكن في الخيانة التي أتتنا من الحزبين الكرديين العراقيين. بل منّا. من داخلنا.

- كيف؟!

- تصوّر أن أحد أبرز قياداتنا وأحد زعماء الحزب، أصدر أوامره بقتل الجرحى. جرحانا وليس جرحى العدو.

- كيف ذلك؟ إنها جريمة حرب. جريمة ضد الإنسانية!؟

- كما أقول لك. قُتِلَ العديد من جرحانا برصاصنا، لأن القيادي الكبير أصدر أوامره بفعل ذلك. كانت حجّته ومبرره؛ «أن جرحانا إذا

وقعوا أسرى بيد العدو، سيقوم بمعالجتهم، وسيشفون، ويصبحون عملاء وخونة يعملون لمصلحة العدو، ضدنا». عُذرٌ أشد قباحةً ووقاحةً وقذارةً من الجريمة نفسها. ولكن لم يكن هناك أحد يمكنه قول ذلك. ليس لأننا كنّا في حالة حرب، بل لأننا كنّا مخصيي عقول وإرادة. تصوّر أنك تصوّب فوّهة بندقيّتك لرفيقك المقاتل أو رفيقتك المقاتلة، وأنتم أبناء حزب واحد، ودربٍ واحد! فقط لأن هذا الرفيق أو تلك الرفيقة، جرحا في معركة شاركتم معاً فيها، ولم تصبْ بمكروه، بينما هما جُرحا، وها أنت تصوّب بندقيّتك كي تقتلهما! ضع نفسك في حالة كهذه، وتصوّر المشهد، كم هو مرعب ومروّع وشنيع وبشع! أنْ تقتل رفاقك الجرحى.. أنْ تقتل رفاقك الجرحى.. أنْ تقتل رفاقك الجرحى...!

لم يتمالك أوميد نفسه، وبكى. بكى معه صديقه يان. ثم عاود أوميد كلامه:

- ولكن مشيئة الأقدار أبت إلّا أن تُكشفَ تلك المذبحة بحقّ الجرحى. حيث نجا أحدهم، كي يكون الشاهد الوحيد المتبقي، ليروي سيرة المجزرة. أعتقد أنه كان مِن ديريك، مِن كرد سوريا. إن كان حيّاً، يجب أن تسأل عنه، وتستمع إليه. مهمٌ جداً أن تلتقي به.

حينذاك، سقط الحزب والثورة والوطن والقضية من عينيّ. وصرتُ جسداً من دون روح، ضمن هذا الحزب. لا أجرؤ على الحياة. ولا أجرؤ على الموت. وأكتب بعض القصائد التافهة، بين الحين والآخر. ولم أندم على شيء، بقدر ندمي على الحبِّ الذي كنت أكنّه لزكية آلكان، تلك الفتاة التي أحرقت نفسها، وجرّني حبّها نحو التورّط في هذا المسلخ الأيديولوجي والحزبي الذي يسمّونه

ثورة. فيما بعد، عرفتُ أن كل الثوراتِ مسالخ. وتجربة حزب العمال الكردستاني، ليست استثناء. سواء التجربة الروسية، أو الصينيّة أو الفيتناميّة أو الكوبيّة أو الكامبوديّة او الفلسطينيّة. . . ، كلها كانت مسالخ.

- التقيت بأحد المنشقّين من الكرد السوريين، وقال إنهم كانوا يلاقون تمييزاً ضمن الحزب. هل كلامه صحيح؟

- بكل تأكيد. كلامه صحيح ألف بالمئة. كنّا نحتقرهم ونحن في بيوتهم ونأكل خبزهم. نعتبرهم جهلة وحمقى وثرثارين ومدّعي ثقافة ووعي، وأننا نحن من أنقذناهم من الإبادة السياسيّة والقوميّة وبعثناهم من الموت والسبات القومي. كان الحزب وقيادته يتحدّثون كثيراً عن الوحدة القوميّة والوطنيّة الكرديّة، ولكن لم يكن احد يسأل: منذ 1987 ولغاية 1997، لماذا لم يكن هناك أحد في قيادة الحزب من الكرد السوريين أو العراقيين أو الإيرانيين؟! حين تم اختطاف واعتقال الزعيم، تم تشكيل مجلس رئاسي للحزب، كل أعضائه كانوا من كرد تركيا، ولم يكن فيه شخص واحد من كرد سوريا أو كرد العراق أو كرد إيران! بل لم يكن بينهم امرأة واحدة! ماذا يعني ذلك؟!

دائماً كانت هناك نظرة دونيّة لكوادر كرد سوريا، على أنهم مشاريع انفصاليين عن الحزب، وثرثارون، كثيرو الكلام، قليلو الأفعال. يعتبرون أنفسهم مثقفين، ولكنهم جهلة وأغبياء. وللأسف، كان هناك ضمن الكوادر الكرديّة السوريّة، من يرى هذا السلوك، ويسكت، بل ويشارك فيه، ويسعى بشتى الوسائل إلى التبرؤ من هذه التهم، عبر تقديم كل أشكال الطاعة العمياء للحزب، حتّى لو كلّفهم

ذلك الاشتراك في قتل رفاقهم وإخوتهم من الكرد السوريين كي يثبتوا لنا، نحن كرد تركيا، أنهم أوفياء للحزب وأنهم ليسوا انفصاليين!

سأذكر لك قصّة كنتُ أيضاً شاهداً عليها، ويا ليتني لم أكنْ: سنة 1996، كتبت مجموعة من الكوادر الكرديّة السوريّة تقارير نقديّة موجّهة إلى الزعيم، بحق قيادي عسكري كبير ومعروف في الحزب، على أنه استبدادي واعتدى على العديد من المقاتلات تحرّشاً، وأجبر بعضهنّ على ممارسة الرذيلة معه. ولأنه عضو اللجنة المركزيّة، لم تكن قيادة الحزب في الجبال قادرة على مواجهته. لأنها إذا واجهته، سيواجهها هو أيضاً، بما يقترفه أعضاء القيادة من سلوكيّات تشابه سلوكهُ. ورأى أولئك الكوادر أنه لا يوجد أحد يمكنه التدخّل وحلّ هذه المشكلة إلّا زعيم الحزب. ولكن لا يمكنهم إرسال تلك التقارير عبر الطرق والقنوات الروتينيّة الحزبيّة، لأن ذلك سيأخذ وقتاً، وربما تقع التقارير في يد القيادي المعني، وينفجر بهم غيظاً وغضباً. لذا، وقع اختيارهم على قيادي كردي سوري، كان من أوائل الكرد المنتسبين إلى الحزب، كان يودّ زيارة دمشق واللقاء بالزعيم لأسباب خاصّة به، وطلبوا منه إيصال هذه التقارير باليد إلى الزعيم. وتمّ ذلك، وقرأها القائد، فجنّ جنونه، واستشاط غيظاً وغضباً، ليس على ذلك القيادي العسكري الفاسد وانتهاكاته، بل على مَن كتبَ التقارير والانتقادات والشكاوى. وأصدر الزعيم أوامرهُ باعتقال هؤلاء فوراً، ومحاكمتهم. وبالفعل، تم اعتقال كل من كتب تلك التقارير سنة 1997، وأُخضعوا للتحقيق والتعذيب الشديد، على أنهم يثيرون النعرات والنزعات الانفصاليّة في الحزب، ويريدون فصل كرد سوريا عن كرد تركيا، وتشكيل تكتّلات وتيّارات بهذا الخصوص

داخل الحزب. أحد الذين اعتقلوا، أعتقد أنه ما يزال حيّاً في كردستان العراق. يمكنكَ اللقاء به، سيعطيك تفاصيل أكثر عن طرائق التعذيب البشعة التي تعرّضوا لها من «رفاق السلاح»، «رفاق الدرب والقضيّة»، وكيفيّة التحقيق معهم والتُّهم المنسوبة إليهم. ويبدو أن الأقدار، دائماً تبقي على شخصٍ ناجٍ من المجزرة كي يكون شاهداً يروي تفاصيلها. على أيّة حال، تمّت محاكمة تلك المجموعة، وحكم عليهم بالإعدام، ونفذوا الحكم رمياً بالرصاص، مع التهليل والتصفيق، وإطلاق شعارات: «عاش القائد.. عاشت كردستان»!، لكأنّ في قتل هؤلاء المقاتلين والمقاتلات يقترب الحزب خطوةً كبيرةً من تحرير كردستان!؟ وربما هؤلاء الضحايا، وأمثالهم بالمئات، قُتلوا بالبنادق نفسها التي تركوا بيوتهم وعوائلهم وجاءوا إلى تلك الجبال كي يحملوها، أولئك الضحايا هم أبرز شهداء القضيّة الكرديّة. بالنسبة إليّ، مقامهم أكبر وأعلى من مقام الشهداء الذين قُتلوا في المعارك برصاص العدو، أو قُتلوا تحت التعذيب في السجون التركيّة. أولئك الضحايا، لم ينصفهم حتى رفاقهم المنشقون عن الحزب. الجميع خذلهم. وسيأتي اليوم الذي سيعيد إليهم التاريخ اعتبارهم، ويلعن من ساهم في قتلهم. وسأكون أنا أحد هؤلاء الذين ستلاحقهم اللعنة.

من بين تلك المجموعة، فتاة تعرّفت عليها أثناء وجودي في الدرباسية، اسمها الحركي «بَنَفش» (Benefiş). كانت مثال الطهارة والنبل والإخلاص والالتزام والانضباط الحزبي. صدمتني رؤيتها في تلك الحالة البائسة المزرية، وقد أصبحت جلداً على عظم، حين أتوا بها من أحد الكهوف التي تستخدم كسجن، إلى مكان المحاكمة. آثارُ

التعذيبِ واضحةٌ على وجهها. ذلك الوجه الحنطي الجميل، تلك السمرة الكرديّة الفاتحة التي كانت تمتلكها، حين رأيتها سنة 1992 في الدرباسية، تحوّلت إلى شحوبٍ وزرقةٍ مرعبة، كأنّها شبح امرأةٍ خارجةٍ من قبر. تصوّر، بالإضافة إلى الاتهامات المكالة لها، بأنها انفصاليّة وتريد شقّ صفوف الحزب، وتفتري على أحد القيادات، اتهموها أيضاً بأنها جاسوسة تعمل لحساب إسرائيل وأمريكا والنظام السوري!؟ لم يتجرّأ أحد، وأنا منهم، على القول: «كيف هذا؟! كيف هي جاسوسة لدولتين متعاديتين؟! وأين؟ في هذه الجبال النائية!!؟ في هذه الكهوف والوديان التي لا يوجد فيها إمكانيّة الاتصالات؟! كيف يتمّ اتهامها بأنها جاسوسة تابعة للنظام السوري، وحزبنا وزعيمنا في حضن هذا النظام وعلى علاقة وطيدة معهُ؟!».

جرت هذه المأساة، هذه الجريمة أمام عينيّ. بل كنت شريكاً فيها. هذه اليد التي تراها الآن، ينبغي أن تبتر، وترمى للكلاب.

- لماذا؟!

- لأنني رفعتها أثناء التصويت على قرار إعدام «بَنَفش» ورفاقها. لم يكن بين الضحايا كردي تركي واحد. كلهم كانوا من أكراد سوريا.

توقّف قليلاً، ثم عاد للكلام:

- لا. هذه اليد، لا ذنب لها. هذا الجسد كله مدان، ويجب أن تنهشه الكلاب الشاردة. هذه الروح الجبانة التي تسكنني، هي المسؤولة عن كل ما جرى. لو قضيت المتبقّي من حياتي في سرد حكاية «بَنَفَش» ورفاقها، لما أمكنني التطهّر من الإثم والجرم الذي أنا ضالعٌ فيه.

في جلسة المحاكمة تلك، كان هناك مقاتلون ومقاتلات كثر، من كرد سوريا وتركيا والعراق، يعرفون أن كل تلك الاتهامات كاذبة. لجنة المحاكمة كانت أيضاً تعرف ذلك. ولكن هناك أوامر يجب تنفيذها، وهي التخلّص من هؤلاء. لأن بقاءهم ضمن الحزب خطر عليه. يجب قتلهم. هناك حالات كثيرة ومشابهة لهذه الجريمة تتم فيها تصفية الشخص المنتسب للحزب ثلاث مرّات. مرّةً حين يتمّ توجيه تهمة باطلة إليه، وإشاعة ذلك الاتهام على أنه حقيقة ضمن الحزب وبين الناس. ثم تنفيذ الحكم، من دون إخبار أهالي المقاتلين والمقاتلات بذلك. وفي المرّة الثالثة، يتمّ الإعلان عن أسماء هؤلاء الضحايا، ضحايا الإجرام الحزبي والأيديولوجي، على أنهم شهداء أبطال، سقطوا في معارك البطولة والفداء في سبيل الحرية والاستقلال، وتحرير كردستان!

حتّى الآن، لم يُصدِر الحزب أي اعتذار علني عن أيّة جريمة تصفية ارتكبها بحقّ أحد أعضائه. الحزب لا يخطئ. الزعيم لا يخطئ. ولكن إن أخطأ، ينبغي أن يبقى الأمر داخل الحزب، وسرّاً من أسراره. وإفشاء السرّ هو إهانة للحزب والقائد والقضيّة والثورة والوطن، وتقليل من هيبة الحزب والثورة! هذه التبريرات القبيحة والوقحة ما زالت مستمرّة، وأعتقد أنها ستبقى هكذا، مستمرّة. وسيبقى هناك أناس يصدّقون زيف ودجل هذه التبريرات. وسيبقى هناك جبناء، مثلي، يلوذون بعارِ الصمتِ وعدمِ الجهرِ بما رأتهُ أعينهم من جرائم، ارتُكِبت باسم الوطن والحرية والثورة.

جريمة قتل «بنفش» ورفاقها، أطلقت رصاصة الرحمة على وجودي داخل هذا الحزب. وصرت أبحث بشكل جدّي عن الهرب

من بين صفوفه. طوال ثلاث سنوات، كنت أعاني مرارة الخوف من فشل محاولة الهرب، والتعرّض لنفس مصير «بنفش» ورفاقها. عِشتُ موتاً خفيّاً، مُعلناً في قصائدي التافهة التي كتبتها خلسةً.

قصص تصفية أخرى وكثيرة، عرفتها خلال تلك السنوات الثلاث. قصص مروّعة، لا يعرفها الناس. مسكوت عنها تماماً. منها قصّة أورهان آيدن.

- من هذا؟!

- قصّته وحدها تصلح أن تكون فيلماً أو رواية في غاية الألم والتراجيديا. كان أحد الكوادر الشابّة التي انتسبت باكراً للحزب. اعتُقل أثناء حملات الاعتقال التي طاولت النشطاء من كل الأحزاب، قبل وبعد انقلاب 12 سبتمبر/أيلول الفاشي سنة 1980، وهو أوّل من حكم عليه بالإعدام شنقاً من بين كوادر وقيادات الحزب. عقب صدور الحكم عليه، كتب رسالة جد مؤثرة، تمّ نشرها وترجمتها، في كتب وأدبيات الحزب، على أن أورهان آيدن مثال المناضل الثوري الذي لا يهاب الموت من أجل قضيّة حريّة واستقلال كردستان وقضيّة الاشتراكيّة. ولكن لم تنفّذ السلطات التركيّة حكم الإعدام بحقّه. حين اعتُقل، كان الحزب مجموعات من الطلبة والشباب المتحمّس. وحين خرج من السجن بعد مضي عقد، رأى أن الحزب تحوّل إلى جيش وحشود ومئات الآلاف من المؤيدين. راعه الأمر وانصدم. هذه الصدمة، والتعذيب الوحشي الذي تعرّض له في السجن، وفقدانه رفاقه الذين قضوا تحت التعذيب أو في الإضراب عن الطعام حتى الموت أو الذين قضوا حرقاً سنة 1982، كل ذلك خلق لديهِ ارتباكاً واضطراباً وخللاً

نفسيّاً. في ساعات الغضب، كان يشتم الزعيم وقيادات بارزة في الحزب. تمّ نقله إلى الجبال، فلم تتحسّن حاله. أعيد إلى دمشق ولبنان. وبالنتيجة، نفّذ رفاقه حكم الإعدام بحقّه، وقتلوه في لبنان بشكل وحشي. وهكذا، حُكم الإعدام الذي لم تنفذه تركيا، نفذه الحزب بحق أورهان آيدن. هل يمكنك أن تصادف عاراً بهذا القدر والحجم في أيّة ثورة من ثورات العالم؟! أو ربما نحن الحمقى والأغبياء لأننا كنّا ننظر إلى الثورات بهذه الرومانسية الحالمة! ربما كنّا نعتبر الثورات كالأماني والطموحات الحالمة، ثم تفاجأنا بتلك الحقائق البشعة والمروّعة التي تفصح عن خسّة ونذالة النفس البشريّة. أو ربما الأماني وجِدتْ كي لا تتحقق. وأجمل الأماني هي المحافظةُ على عذريتها، بعدم تحققها. هكذا فقط تبقى محافظة على كُنهها وكينونتها وسحرها. الأماني وجِدت كي يقضيَ المرءُ عمرهُ في ملاحقتها. الأماني؛ هي سحرُ الغياب. سحرُ الغائبين والغائبات. سحرُ انتظار شيءٍ نحبّ أن يأتي ولا يأتي. وحسناً تفعل الأماني بالعزوف عن المجيء والإتيان. لأنها إذا أتت وتحققت، ربما تكتشف أو تنصدم بأن منتظريها لا يستحقونها.

- ربما. ردّ عليه يان، وأراد تغيير سياق الحديث حتّى يعيد إلى أوميد الأمل، محاولاً إيجاد موضوع آخر، يبعده شيئاً فيشئاً من بؤس الماضي وجراحه الملتهبة. فسأله عن الصداقة القليلة والمؤقتة التي ربطته به، وكيف أن الأقدار جمعتهما مرّة أخرى، في مكانين مختلفين؛ لبنان واسطنبول. فقال أوميد:

- لقد فقدتُ الكثير من الأصدقاء والصديقات بسبب انشقاقي عن الحزب، رغم أنني لا أمارس النقد والكتابة السياسيّة، ولا أحبّها،

وفقط أكتب الشعر، وأهرب من السياسة، قدر استطاعتي، إلّا أنهم اعتبروني خائناً. أصدقاء وصديقات، لم أكن اتصوّر في يوم من الأيام أنهم سيفترقون عنّي. ولكن كنت مخطئاً في هذه أيضاً. وتأكّد لي أن الصداقات المبنيّة على الأفكار والانطباعات والأهداف المشتركة، تبقى هشّة. لأن التحوّل والتغيير من طبائع البشر والأفكار. الحزن والألم الإنساني أكثر رسوخاً وديمومة وعمقاً من أيّة فكرة أيديولوجيّة سياسيّة أو ثقافيّة عابرة، وما يُبتنى عليها من صداقات. كل شيءٍ يدعو إلى الوحدة أو الاتحاد أو التوحّد بين البشر، ويحضّ عليها، هو نفسه الذي يفرّق بين البشر، أكثر من توحيدهم. انظرْ إلى تجارب الأديان والاحزاب والأيديولوجيّات، ترَ ذلك. الحروب والثورات في أصلها وفصلها وجذرها، هي أفكار دينيّة أو أيديولوجيّة قوميّة أو طبقيّة. . ، متقاتلة.

– لكن، حتى أن الألم أقوى من الفكرة، هي أيضاً فكرة، مزّقت الناس، ولم توحّدهم. حين اتجه المسيح إلى الألم، وغسل الخطيئة عن العالم والبشر، عبر ألمه وقبوله الصلب، كان واهماً بأنه يمكنه تحرير العالم من الخطأ والخطيئة. انظرْ إلى ما جرى بعد قبول المسيح بفكرة الألم الوحدوي، الألم الكوني، الألم الأبدي الذي سيحرر البشر والإنسانيّة من الشرور والآثام والخطايا!؟ أوليس أوّل من انقسم على كينونة المسيح هم المسيحيون أنفسهم؟! أولم يتحوّل هذا الانقسام إلى حروب طاحنة حصدت أرواح الملايين؟! دعكَ من حروب المسيحيين على أنفسهم، وانظرْ إلى حروبهم على الأديان والمعتقدات والأفكار الأخرى، علماً أن المسيح رسول سلام، والمسيحيّة يفترض أن تكون دين سلام! كذلك الإسلام، الذي تبدأ

تحيّته بـ«السلام عليكم، عليكم سلام»، فور وفاة النبي محمد، بدأ الشقاق والاختلاف والصراع بين أتباعه. ثم تطوّر الخلاف إلى صراع دموي، لمّا يزل مستمرّاً منذ 1400 سنة. وتفرّق المسلمون إلى شيع ومذاهب متصارعة. ثم انقسمت هذه المذاهب على بعضها وتقاتلت. لاحظ أن المنشقين عن عليّ بن ابي طالب، الذين تمت تسميتهم بالخوارج، حين انشقوا عنه كان شعارهم «لا حكمَ إلّا للّه»، هؤلاء أنفسهم، تقاتلوا في ما بينهم. صحيح أنني لم أقرأ القرآن، ولكنني مطلع على جزء من التاريخ الإسلامي، عبر المصادر والكتب المترجمة. حتّى واقعة أو حادثة مقتل الحسين بن علي، وكيف يتعامل معها الشيعة من حزن وألم وحداد وطقوس دمويّة، الكثير منها تدعو للثأر والانتقام والتحريض على أحفاد أحفاد أحفاد... قتلة الحسين!!؟ حتى الألم والحزن على الحسين، فرّق الناس، وبل فرّق بين أتباع الحسين، لأن فيه اختلافاً وتبايناً في طرائق التعبير عن هذا الحزن والألم. يبدو لي أن طقوس الحزن والألم على الحسين، تخرجه من قبره كل سنة، في مناسبة مقتله، ويتم التنكيل بجثّته من قبل أنصاره، بحجّة إحياء ذكراه، والحزن عليه، كي تبقى جذوة الثأر والانتقام متّقدة إلى أبد الآبدين. وتم ربط الحزن والألم على الحسين بمرضاة اللّه. فمن يحزن أكثر، ويتألّم أكثر، ويبكي أكثر على الحسين، يحظى برضوان اللّه أكثر، وسينال الجنّة، مقابل ذلك الحزن والألم اللذين أبداهما في الدنيا على مقتلهِ! ثمّة دراما شديدة في هذا الحزن والألم المفخخ، الذي ينضح بالثأر وإثارة المزيد من الأحقاد والكراهية، بدلاً من محاولة السير نحو السلام والتسامح والمغفرة وترك الأمر للّه في مقاضاة ومحاكمة الآثمين الجناة. أعتقد

أن ثمة استثماراً لهذا الحزن والألم تحقيقاً لغايات سياسيّة، ضحاياها هم الناس البسطاء.

ما أريد قوله: إن الألم والحزن أيضاً، يفرّقان بين الناس، ولا يوحّدانهم. وربما اتفق معك في أن «أيّة فكرة تدعو أو تهدف إلى التوحّد بين البشر، تفرّقهم أكثر».

قبل انتهاء اللقاء، ومغادرة المكان، طلب يان من أوميد بعض أسماء المنشقين الذين تم إعدامهم من قبل الحزب، حتى يبحث عن قصصهم، ويضيفها إلى روايته التي أخبره بأنه سيباشر في كتابتها قريباً.

ولكن المفاجأة كانت أن يان قبل أن ينتهي من روايته، مطلع سنة 2013، قطع علاقته مع أوميد سَرخَتي، على خلفيّة موقفه من الثورة التي اندلعت على نظام الأسد في سوريا. ذلك أن أوميد صار يدعم موقف حزب العمال الكردستاني المناهض لهذه الثورة، ويبرر علاقته مع نظام الأسد في سوريا، ويبرر عنفه ضد معارضيه من الكرد السوريين. هذا الموقف الصادم، حاول يان مناقشته مع أوميد والكثير من الكوادر الكرديّة التركيّة المنشقة عن الحزب، لكنهم كانوا دائماً يتحججون بالخطر الإسلامي والتنظيمات التكفيريّة. صار يان يقول لأوميد: «ألستَ مَن حدّثني عن مظالم كرد سوريا داخل الحزب؟! لماذا تنتقد سياسات وممارسات الحزب في تركيا، وتساندها وتدعمها في سوريا؟! أوليس هذا نفاقاً وازدواجية في المعايير؟!» ولأن يان كان مؤيداً للثورة على نظام الأسد، ومعارضاً لسلوك حزب العمال في سوريا، صار على النقيض مع أوميد والكثير من أصدقائه الكرد المنشقين عن الحزب، لأنهم يؤيدون ويبررون تحالفه مع نظام

الأسد. فقطع يان علاقته نهائيّاً به، على خلفيّة موقفه من الحدث السوري.

اختار يان دو سخيبّر نهاية غريبة وافتراضيّة لروايته هذه؛ بأن أضرم أوميد النار بنفسه في 21 مارس/آذار 2020، على السور التاريخي لمدينة دياربكر، وفي المكان نفسه الذي أضرمت زكية آلكان النار بنفسها. وتم العثور في مكان الحادث على ألبوم، ضمّ صور زكية آلكان و«بنفش» وأورهان آيدن وكاني يلماز، ومحمد شنر...، والكثيرين من المنشقين والمنشقات عن الحزب الذين تمت تصفيتهم من قبل رفاقهم. لقد أمات يان دو سخيبّر صديقه أوميد في روايته، ولكن في توقيت استباقي، بعد مضي سبع سنوات على صدورها.

حين انتهى المحقق فان مارتن من قراءة هذه الرواية، تشكّلت لديه فكرة مبدئيّة ليس عن ماضي صاحبها المختفي وحسب، بل عن تجربة كرد تركيا أيضاً. النقطة الرئيسة التي عثر عليها المحقق في قراءته «**موتى يعيشون أكثر مما ينبغي**» أن صاحبها كان من البلجيك القلائل الذين يؤيدون بقوّة الثورة في سوريا على نظام الأسد. وهذا التأييد دفعه إلى قطع علاقته مع العديد من أصدقائه البلجيك والأتراك والأكراد الذين يناهضون هذه الثورة، أو يلتمسون الأعذار والمبررات للنظام الحاكم في سوريا.

قطار أعمى لا يُخلِف مواعيده

رواية يان دو سخيبّر الثالثة بعنوان «**قطار أعمى لا يُخلِف مواعيده**»، لم تكن مطبوعة في كتاب، بل عبارة عن مخطوط مطبوع على 110 أوراق قياس (A4). يبدو من الأوراق المرقّمة أنها مسوّدة مدققة ومصححة من الأخطاء المطبعيّة والإملائيّة، مع وجود بعض الإضافات والملاحظات، المدوّنة بقلم حبر ناشف، ووجود بعض الأسطر المحذوفة هنا وهناك، لا تظهر كلماتها، لكثرة الشخبطة التي غطّى بها يان تلك الأسطر، وكان بإمكانهِ الاكتفاء بوضع خط عليها في إشارةٍ إلى أن تلك الأسطر محذوفة من النصّ.

الأوراق الـ 110، شأنها شأن التعديلات والتغييرات التي يجريها أي مؤلّف على كتابه، بهدف إعادة التحرير الأدبي، وتوخّي الجودة اللغويّة والفنيّة والأدبيّة، قبل إرسال المخطوط للناشر، أو للمطبعة. في كل الأحوال، كانت مهمّة إيريك فان مارتن في قراءة مخطوط «**قطار أعمى لا يُخلِف مواعيده**» أسهل بكثير من قراءة روايته السابقتين؛ «**غريب على أراضٍ غريبة**» و«**موتى يعيشون أكثر مما ينبغي**»، ليس لأنها قصيرة نسبيّاً، بل لأنها مختلفة تماماً، وفكرتها بسيطة للغاية، وكذلك لغتها سلسة ومفهومة. تكمن فرادتها في أن ما

مرّ به بطل الرواية، نمرّ به جميعاً، ولو بنسب مختلفة ومتفاوتة. ولكن، لا أحد منّا يمكن أن يلتقط هذه الفكرة البسيطة ويبني عليها عملاً روائيّاً مسبوكاً ومتشابكاً، ينطوي على دلالات ومكاشفات مفاجئة وصادمة.

شيءٌ واحد فقط، أثار فضول وقلق فان مارتن، قبل مباشرته قراءة مخطوط الرواية، هو: تلك الأسطر المحذوفة من النصّ، بحيث لا يمكن رؤيتها مطلقاً، لشدّة تلطيخها بالحبر. إذ صار يسائل نفسه: لماذا هي محذوفة بهذه الطريقة التي تنمّ عن غضب أو غلّ؟ هل ثمة ما لم يشأ دو سخيبّر إظهارهُ لنا ضمن أسطر هذه الرواية؟

* * *

لم يكن يفضّلُ السفرَ بالطائرة، في الرحلات الداخليّة أو الرحلات إلى الدول المحيطة بألمانيا، إلّا نادراً، ولسببٍ قاهرٍ يحولُ دونَ السفرِ بالقطارِ، ليسَ لأنهُ يخافُ ركوبَ الطائرات، خاصّة بعد أحداث 11 سبتمبر/ أيلول 2001، وليس لأنه كان على متن الطائرة «لاندسهوت»؛ بوينغ 737 التابعة لشركة لوفتهانزا، وضمن الركاب الـ 87، بصحبة والديه في الرحلة رقم 181، المتّجهة من مطار جزيرة مايوركا الإسبانية إلى فرانكفورت، حين اختطفتها مجموعة فلسطينيّة تابعة للجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين في 13/ 10/ 1977، وحرفوا مسارها باتجاه إيطاليا ثم قبرص وصولاً إلى مقديشو، مروراً بالبحرين والإمارات واليمن، وقتلهم قائد الطائرة، وتمكُّن مجموعة من القوات الخاصّة الألمانيّة (GSG) في 18 أكتوبر/ تشرين الأول من مهاجمتها وتحرير الرهائن الـ 86، وقتل رجلين وامرأة من الخاطفين، واعتقال ثالثة جريحة، شاركت في العمليّة، تدعى سهيلة آندراوس. وقتذاك

كان عمرهُ 11 عاماً، وشهدَ خمسة أيّام من الرعب والقتل والدم ما لا يمكن تصوّره. ولا يكاد أحد من أصدقائهِ يعرف أنه كان على متن تلك الرحلة الرهيبة أصلاً. ومع ذلك، ليس هذا هو السبب الذي يدفع يورغن توماس راينر إلى تفضيل السفر بالقطار على السفر بالطائرة. ثمّة سبب آخر، يتأرجحُ بين الهوس والمرض، يجعله مدمناً على السفر بالقطارات.

انتقاله من فرانكفورت إلى برلين وعمله في مركز «ويلي براندت للسلام والدراسات السياسيّة (WBZ)» منذ سنة 2002، فتح أمامه باباً واسعاً للتنقّل والسفر لحضور المؤتمرات، بصفة استشارية، كباحث في هذا المركز. حيث عمل في عدّة أقسامٍ مختلفةِ الاختصاصات، كالقسم المعني بشؤون آسيا الوسطى وجمهوريات الاتحاد السوفياتي السابق، وقسم البلقان، وقسم الشرق الأوسط وشمال أفريقيا الذي يعمل فيه حالياً.

والدهُ توماس ديتريش كلاوس راينر، بروتستانتيٌّ معتدل، مواظبٌ على حضور القداديس والصلوات في الكنيسة، ولا يجبر زوجته وأولاده على الذهاب إليها. حتى أنه لم يكن يجد حرجاً في حضور القداديس في كنيسة «السيّدة العذراء» أو «الصليب المقدّس» الكاثوليكيتين أيضاً. لكنه كان دائم التردد على كنيسة «القديس نيكولاس» البروتستانتيّة في المدينة القديمة في فرانكفورت. ولأن القديس نيكولاس يوصف بأنه شفيع الصيادين، بُنيت هذه الكنيسة بالقرب من نهر الماين في منتصف القرن الثاني عشر، وأخضعت للترميم والتوسعة لغاية القرن الخامس عشر، وهي إحدى الكنائس الثمانية الأكثر أهميّة للبروتستانت في فرانكفورت. كل هذه التفاصيل

لم تكن تعني ليورغن شيئاً، سوى أنها تفصيلٌ هامشيّ من تفاصيل الملل. لكن بالنسبة إلى والده، الأمر مختلف تماماً.

ورِثَ توماس عن أبيه دار نشر اسمها «كلاوس راينر» ومطبعةً تابعة لها. توقّفت دار النشر سنة 1940، بعد إصدارها عشرات الكتب في الأدب والتاريخ والفلسفة واللاهوت. ولكن المطبعة ما زالت تعمل، وتنشر إصدارات دور نشر أخرى. ولا يبعدُ مقرّها كثيراً عن شارع المتاحف أو رصيف المتاحف في فرانكفورت. كل عام، أثناء تجواله في معرض فرانكفورت للكتاب، كانت فكرة إحياء دار «كلاوس راينر» تنعر وتطرق مخيّلة توماس. ولكن عدم ثقته بابنه يورغن في مواصلة العمل، كان كفيلاً بتبديد رغبته. تلك المطبعة أقدم من جامعة «يوهان فولفغانغ فون غوته»، وبقيت تعمل خلال الحربين العالميتين، وتدرّ على عائلة راينر هامشاً من الأرباح، أبقاهم ضمن الطبقة الوسطى.

هناك روايتان لاستمرار المطبعة، خاصة بعد وصول النازيين إلى السلطة. الرواية الأولى تقول: إن صاحب المطبعة؛ ديتريش كلاوس راينر، كان يعمل مع الـ «غيستابو» (Gestapo) رغم نشر المطبعة كتب متنوّعة، دينيّة وفلسفيّة وأدبيّة وحتى التي فيها نقد طفيف أو غير مباشر للحزب النازي. والرواية الأخرى تقول: إن هذه المطبعة بقيت تعمل، رغم تقارير عملاء الـ«غيستابو» ضدّ صاحبها على أن أصوله يهوديّة، واعتنق المسيحيّة، واتبع الكنيسة البروتستانتية، وبقي مستبطناً يهوديّته ومحافظاً عليها. فاكتفت السلطة النازية بسحب ترخيص دار النشر، وأبقت على المطبعة تعمل!

بينما أخبر كلاوس راينر ابنه ديتريش أن عائلة أجداده كانت

فلامانكية الأصل، هربت من مدينة «غينت» (Gent) البلجيكيّة سنة 1686، بعد إصدار القساوسة الكاثوليك في فرنسا وإسبانيا قرارهم بوضع البروتستانت أمام خيارين: إمّا ترك المعتقد والعودة للكاثوليكيّة أو ترك البلاد التي تحكمها العقيدة الكاثوليكيّة. وقتذاك كانت بلجيكا تحت النفوذ الإسباني، فهربت عائلة راينر من «غينت» واستقرّت في فرانكفورت مذاك. حاول كلاوس توريث ابنه ديتريش تلك السرديّة القديمة التي ورثها عن أبيه وجدّه، وعن النزوح والهجرة والأهوال التي تعرّض لها البروتستانت، ومن ضمنهم عائلته، إلى حين استقرارهم في فرانكفورت. وأن بعض أقاربهم فرّوا إلى بريطانيا، وآخرين هربوا إلى الدول الاسكندنافيّة، ولا يعرف عنهم شيء. كذلك أورث ديتريش ابنه توماس هذه السرديّة، الذي أورثها لابنه يورغن.

ولكن أصحاب الرواية الثانية أو التفسير الثاني لبقاء دار كلاوس راينر تعمل لغاية 1940، لم يستطيعوا إعطاء إجابة مقنعة لسؤال: ما هو السبب الغامض الذي دفع السلطات النازية إلى عدم اتخاذ تلك التقارير بحق دار كلاوس راينر للنشر ومطبعته، على محمل الجد؟ وهل اعتبرتها كيديّة؟ واكتفت بإغلاق دار النشر، مع ترك المطبعة تواصل عملها!؟

خالف يورغن رغبة والده في مواصلة مهنة أبيهِ وجدهِ، واتجه إلى الدراسة، وحصل على إجازتين من جامعة غوته، الأولى في الإدارة والاقتصاد، والثانية من كلية اللغات والحضارة. وواصل الدراسات العليا في هذه الكلية إلى حين حصوله على درجتَي الماجستير والدكتوراه. ومن هنا، نشأ لديه هوس اللغات. حالياً، يجيد يورغن اللاتينيّة، الإنكليزيّة، الفرنسيّة، الإيطاليّة، العربيّة، العبريّة، الكرديّة

والتركيّة، بالإضافة إلى لغته الأمّ. اللاتينيّة والإنكليزيّة والفرنسيّة، تعلّمها من خلال المدرسة والجامعة. والعربيّة والعبريّة كانتا موضوع أطروحته للحصول على درجة الدكتوراه من كلية اللغات والحضارة. الإيطاليّة، تعلّمها من فتاة سويسريّة - إيطاليّة من كانتون تيسينو، كانت تدرس معه في جامعة غوته، عاش معها سبع سنوات، وأنجب منها طفلين. والكرديّة تعلّمها من زوجته الحاليّة التي أنجبت له أيضاً ثلاثة أطفال. وأمّا التركيّة، فقد تعلّمها بحكم العمل ومتابعة ملف تركيا ضمن قسم الشرق الأوسط في مركز (WBZ) للسلام والدراسات السياسيّة الذي يقدّم خدمات استشارية للخارجيّة الألمانيّة ومجلس الاتحاد الأوروبي والمفوضيّة الأوروبيّة، والأمم المتحدة. اتجه يورغن مؤخراً لتعلّم الفارسيّة أيضاً، وهو في نهاية العقد الخامس من عمره تقريباً.

منذ أن اندلعت الثورات والاضطرابات في شمال أفريقيا، بدءاً من تونس ومصر ثم ليبيا، وصولاً إلى سوريا واليمن، ازدادت مشاغل يورغن وحجم متابعته للأحداث وتطورّاتها وتبعاتها. وصار يظهر كثيراً على قنوات التلفزة الألمانيّة والأوروبيّة كمحلل وخبير وباحث متخصص في شؤون شمال أفريقيا والشرق الأوسط، بهدف تحليل الأحداث والتعليق عليها. كذلك مركز (WBZ) للسلام والدراسات السياسيّة الألماني صار يطالبه بالمزيد من الدراسات والأبحاث والتقارير وتقديم الأفكار والمقترحات، بهدف فهم ما يجري واجتراح الحلول الممكنة، وإدراجها ضمن التوصيات، في سياق ما ينبغي على ألمانيا والاتحاد الأوروبي فعله، بما يضمن المصالح الأوروبيّة في الشرق الأوسط، وينسجم مع مبادئها.

رويداً، ومع تغيّر سير الأحداث، تغيّر مزاج يورغن ومواقفه أيضاً. في الستة أشهر الأولى من الثورة التونسيّة في ديسمبر/كانون الأول 2010، ثمّ الثورة المصرية التي أعقبت هروب الرئيس التونسي زين العابدين بن علي بـ 21 يوم، ثمّ الثورة على نظام القذّافي في 15 فبراير/شباط 2011، ووصول قطار الثورات والانتفاضات إلى سوريا في منتصف مارس/آذار من العام نفسه، خلال هذه الفترة، كان يورغن من أشدّ الداعمين والمتفاعلين مع هذه الثورات، ومتحمّساً جدّاً لها. بل كان من أكثر المؤيدين للتدخّل العسكري الفرنسي والأمريكي في ليبيا الذي لولاه لما نجح المنتفضون في إسقاط نظام القذّافي، بحسب قناعته، وقتذاك. وكان يطالب بالتدخّل نفسه في سوريا أيضاً، وأن تكون برلين شريكةً فيه. ولكن مع انزلاق الأحداث نحو العسكرة والاحتراب الداخلي، وتصاعد وتيرة الجماعات الجهاديّة والتكفيريّة، بدأ يتراجع حماسه لهذه التحوّلات والانتفاضات، في ما يشبه خيبة الأمل. خاصةً بعد وصول الإسلاميين إلى السلطة في تونس ومصر، وظهور المنظمات الإرهابيّة الراديكاليّة المسلّحة في هذه البلدان. وصارت آراؤه ومواقفه تشدّد على ضرورة بقاء أوروبا على الحياد الكامل، والنأي بالنفس عن كل ما يجري في سوريا والمنطقة، والاكتفاء بدعم التنظيمات والجماعات التي تحارب التكفيريين. وفي هذا الإطار، صار يكتب مقالات مؤيدة وداعمة للأكراد الذين قاتلوا التكفيريين والجهاديين في مدينة «رأس العين» الكرديّة في سوريا، حيث امتدّت المعارك من نوفمبر/تشرين الثاني 2012 ولغاية يوليو/تمّوز 2013 على جولات متقطّعة. وصار يورغن ناقداً شديداً لتركيا ونظامها الإسلامي الحاكم الداعم للمعارضة السورية الإسلاميّة.

زوجته الكرديّة، المحامية كولبهار يورتسافَر، ورغم خلافها الشديد مع حزب العمال الكردستاني، إلّا أنها ويورغن أصبحا يؤيدان سياسات ومشاريع الحزب في سوريا، ويبرران تعاون الحزب مع نظام الأسد، كرهاً في الإسلاميين والجماعات التكفيريّة الإسلاميّة، وصارا يرددان مقولات إعلام النظام السوري على أنه علماني وحامي الأقليات الدينيّة والقوميّة!

أوفدَ مركز (WBZ) يورغن إلى المناطق الكرديّة في سوريا بعد إعلان الأكراد «الإدارة الذاتية» في تلك المناطق، للاطلاع على ما يجري هناك، وكتابة تقارير ودراسات تفصيليّة حول حقيقة الأمور، وهل فعلاً حزب العمال الكردستاني، المصنّف أوروبيّاً بأنه منظمة إرهابيّة، يدير الأمور هناك؟ أم لا؟ بدت مهمّته وكأنّها استطلاعيّة واستخباريّة، أكثر مما هي بحثيّة. وبعد عودته إلى عملهِ في برلين، صار يمارس دوراً مضللاً، بحيث يظهر في الإعلام وقنوات التلفزة، نافياً وجود PKK هناك، وأن ما يقوله الأتراك محض أكاذيب. ولكنه في تقاريره الخاصّة لمؤسسته، يؤكّد وجود الحزب بقوّة، وأنه اجتمع مع بعض قياداته، التي طلبت منه نقل رسائل سريّة إلى السلطات الألمانيّة، بهدف التعاون والتنسيق في الموضوع السوري، وضد تركيا وأذرعها الخفيّة في ألمانيا وأوروبا.

ومع كل هذه التحوّلات التي طرأت على شخصيّة يورغن وأفكاره ومواقفه، بقي محافظاً على خصلة ثابتة في طباعه، لا علاقة لها بكل ما سلف ذكره. هذه الخصلة كانت توفّر عليه قراءة مئات الروايات والقصص، ومشاهدة الأفلام السينمائيّة والاستماع للبرامج التلفزيونيّة التي تتناول حيوات الناس ومشاكلهم وهمومهم ومشاغلهم. هذه

الخصلة ربما تكون موجودة فينا جميعاً، ولكنها متفاقمة جدّاً لدى يورغن، وهي الاستماع لأحاديث المسافرين والمسافرات في القطار، كأنّه جاسوس، لكنه ليس بجاسوس! فالقطار بالنسبة إليه، خشبة مسرح، تتداخل عليه، آلاف المسرحيّات غير المكتملة، أو أنه صالة عرض سينمائيّة، تعرض على شاشتها آلاف الأفلام السينمائيّة دفعة واحدة، أو رواية مفتوحة، لا نهاية لها، تتقاطع فيها آلاف القصص غير المكتملة! لهذا السبب، كان يورغن يولي أهمّية وأولويّة للسفر بالقطار، ويعتبر نفسه كومبرساً هامشيّاً وصامتاً في كل هذه العروض المسرحيّة والسينمائيّة، وعابراً صامتاً بين هذه القصص والروايات المتقاطعة والتي لا ولن تنتهي. هوس الاستماع بإنصات لأحاديث الناس، أيّاً كان مستواها ومواضيعها، كان السبب الأبرز وربما الوحيد الذي يجعله يفضّل السفر على متن القطار، بدلاً من الطائرة. لأن السفر على متن الطائرة لن يمنحه تلك الحريّة في الاستماع والتحرّك بالقدر نفسه الذي يمنحه إيّاه القطار. وتعدد اللغات التي يتقنها زاد من حسّ الفضول والمتعة لديه أثناء استماعه لأحاديث الناس. وحتى لو كان يستمع لشخص يحضّر لجريمة قتل، أو سطو أو خطف. . . ، أو يستمع لشخص يتغزّل برجل أو امرأة، أو شخص يخون زوجته مع امرأة أخرى، أو زوجة تخطط لخيانة زوجها، يبقى يورغن محايداً تماماً، ولا يتدخّل في الأحداث وسير الأقدار. ويجد أنه على متن القطار، ليست مهمّته حماية القانون، أو إنقاذ حياة أشخاص مهددين بالقتل. فقط يحاول الاستماع إلى كل ما يدور حوله، كأعمى وأبكم، ولكنه يرى ويسمع كل شيء، وقادر على منع ارتكاب الجرائم والانتهاكات، لكن، لن يفعل ذلك! كان لديه

قانون خاص أثناء السفر على متن القطار؛ هو عدم التدخّل في مسار الأقدار، وتركها هكذا، مهما كانت النتائج. في القطار، يتجرّد يورغن من كل المبادئ والأخلاقيّات التي يؤمن بها، ويدافع عنها، خارج القطار. فلو استمع في بار أو مطعم أو حديقة أو محطّة أيضاً، إلى حديث يشي بمحاولة انتهاك القانون أو أن حياة إنسان في خطر، يتدخّل هنا في سير الأحداث، ويحول دون ارتكاب أي شيء يخلّ بالقانون والسلام والأمن العام وما يهدد حياة البشر. ولكنه يخلع كل مبادئه ويضعها على رصيف المحطّة، قبل تخطّي قدميه عتبة باب القطار.

هذه الهواية أو الهوس والمتعة المرضيّة التي تنتابه في الاستماع إلى أحاديث الناس، لم يبح بها لأحد، حتّى لزوجته وأقرب الأصدقاء إليه. لأنه لو فعل ذلك، لربما انفضّ عنه أناس كثر، واعتبروه ساكتاً على الكثير من الجرائم، وربما سقط من أعينهم أيضاً، واعتبروه متورّطاً فيها. كأنْ يستمع لحديث أحد الإرهابيين الذين يريدون تفجير مكان ما، وإزهاق أرواح بريئة، لكنه يبقى صامتاً، حتى ولو كان هو من ضمن الضحايا. وفي حال افتضاح أمر هوايته هذه، لربما تتم محاكمته أيضاً على هذا الأمر. لذا، لم يتحدّث لأحد عن هذا الهوس الممتع له، كمراهقٍ صغير يحاول كتمان عادته السريّة والحفاظ على لذّتها، خوفاً من حرج الفضيحة والعقاب الأرضي والسماوي. في حين أن المراهق تنتابه حالة ندم وحزن وكآبة بعد انتهاء لذّة العادة السريّة، بينما هو لا تنتابه لحظة ندم مطلقاً. أحياناً، كان يسائل نفسه: «هل ثمّة شيء غريب، قوّة خفيّة، تسكنني وتمنعني من التدخّل؟ ما سرّ برودة الأعصاب التي تتملّكني،

أثناء السفر بالقطار، كأنني جاسوس، أتلصص على حيوات الناس، دون أن يرفّ لي جفن؟ ولكنني لست العصا التي ينبغي أن تُدخِلَ نفسها في دواليب وعجلات أقدار ومصائر الآخرين».

عادةُ يورغن السريّة، كانت من نوع خاصّ جدّاً، وخطيرة جدّاً، وممتعة جدّاً بالنسبة إليه، تتجاوز متعة ممارسة الجنس أو شرب الخمور أو تعاطي المخدّرات. لذّة غريبة في أن يعلم المرء كل شيء، وقادر على فعل شيء، ولكنه محايد، يضبط نفسه، ولا يريد تغيير مسار ما كتبه اللّه من أقدار للبشر. رغم أنه يعتبر نفسه علمانياً ولادينياً، كان يقنعُ نفسه بطريقة تنتمي للقاموس الديني، وهي أنه «من الإثم أن يتدخّل الإنسان في سير أقدارٍ كتبها اللّه للناس». كان هذا جوهر دستور وقانون يورغن على متن القطار.

تجربته في مركز (WBZ) الألماني كباحث وخبير في شؤون الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، وإتقانه عدّة لغات، جعل المركز يرشّحه لأن يكون ضمن الطاقم الاستشاري لمبعوث الأمم المتحدة في سوريا الأخضر الإبراهيمي، بهدف تحضير مباحثات (جنيف 2) للسلام في سوريا. خلال تحضيرات المؤتمر، سافر يورغن ثلاث مرّات، مرّة بالطائرة، ومرتين بالقطار، من برلين إلى جنيف، مروراً بمدينته فرانكفورت. وكان عليه التواجد في مدينة مونتيرو السويسريّة في 20 يناير/ كانون الثاني 2014، قبل الجلسة الافتتاحية بيومين. أرادَ هذه المرّة أن تطول به الرحلة أكثر، بحيث تبدأ من برلين وتتوقّف في كولن، ومنها نحو بروكسل والمبيت في باريس عند صديقه أوليفييه جوسبان، الموظّف في دائرة الشرق الأوسط في الخارجيّة الفرنسيّة. ثم الاتجاه معاً نحو جنيف.

الرحلة من برلين حتى باريس تستغرق نحو 9 ساعات، مع حساب فترات التوقّف في المحطات والتأخير الذي يحصل أحياناً. ومن باريس إلى جنيف تستغرق المسافة 4 ساعات. ما يعني أن يورغن سيقضي ما يزيد على نصف يوم على متن القطارات. وكان ذلك بالنسبة إليه أمراً مثيراً للتجربة والترقّب. وحتى لو غالبه النوم على متن القطار، فهناك دوماً متّسع من الوقت لاستراق السمع لأحاديث المسافرين الذين ربما لن تجمعه الأقدار بهم مرّة أخرى، سواء على متن القطار أو في أي مكان آخر. كانت لديه قناعة ذهبيّة مفادها: «إن العمل المكتبي البحثي الرتيب والمملّ خلال شهر أو شهرين، لا ضيرَ من كسره برحلة طويلة وشاقّة وشيّقة على متن القطار، مليئة بالقصص وحكايات أناسٍ عابرين».

الجوّ باردٌ وماطر. ولئلا يتأخّر عن موعد رحلته في الساعة 8:51 دقيقة من صباح يوم 19/ 1/ 2014، وصل يورغن إلى محطة برلين المركزيّة في الثامنة والنصف. ملامح يورغن في الأصل باردة، وهي أقرب إلى ملامح ضابط في المخابرات منها إلى ملامح شخص عادي، يعمل باحثاً في مركز للدراسات. قامته تميل إلى الطول، وجسده متوسّط الامتلاء، تسريحة شعرِهِ وملامحُ وجهه تشبه ملامح وتسريحة الرئيس الأمريكي جون كندي. لكنه يجد نفسه أكثر وسامة منه. إذ لديه عينان زرقاوان صافيتان وواسعتان كعينَي هرّ أبيض البطن والأطراف، وعسلي الظهر والرأس. غيرُ عابسٍ، ولكن نادراً ما يبتسم. وإذا ابتسم، تكون ابتسامته ساحرة، وتظهر أسنانه المتناسقة التي تكشف نصاعتها أنه يوليها عناية شديدة. هذه الابتسامة تزيد من نسبة الشبه بينه وبين كندي. بعض زملائه يقولون: إنه يتعمّد التشبّه

بكندي، حتى في السير والحركات أثناء الكلام، وإنه شاهد الكثير من البرامج والأفلام الوثائقيّة حول كندي، كي يتقمّص شخصيّته. بدليل أن الطبيب نصحه بارتداء النظرات الطبيّة، بسبب ضعف في عينيه، إلّا أنه تجاهل ذلك. لأن النظّارات تغير ملامحه وتبعدها عن ملامح كندي. هذا ما كان يقوله عنه بعض زملائه في المركز. كانت تسرّه هذه المقارنة، بأن يصفوه بـ«جون كندي ألمانيا»، لكنه ينفي عن نفسه مسألة التقليد، وأن نسبة الشبه في الملامح، ربما تفضي إلى نسبة شبه في الطباع والسلوك والحركات ونبرة الصوت أيضاً. بينما نبرة صوته مختلفة، ليس لأنها تختلف مع تغيّر واختلاف اللغة، بل لأن يورغن حين يتكلّم الإنكليزيّة، نبرة صوته بعيدة عن نبرة صوت جون كندي. وأصلاً الإنكليزيّة التي يتحدّث بها أقرب إلى البريطانيّة منها إلى الأمريكيّة. أمّا عدم استخدامه النظارات الطبيّة التي وصفها الطبيب له، فلأن زوجته أيضاً تضع نظارات طبيّة، واستخدامه النظارات يربكه أثناء تقبيلها، أو تقبيل زميلة أو صديقة له ترتدي النظارات. كما أنه لا يريد استبدال عدسات النظارات بعدسات لاصقة، لأنها أيضاً مزعجة بالنسبة إليه. ولم يكن يورغن مضطراً لذكر أسباب عدم استخدامه النظارات لزملائه حتى يقتنعوا بأن الأمر لا يتعلّق بالمحافظة على نسبة الشبه بينه وبين جون كندي. في كل الأحوال، كان يورغن سعيداً بهذا الشبه وكل هذا الكلام والأقاويل التي تثار حوله. وفي قرارة نفسه، لا يريد تبديد أو تعكير نسبة الشبه هذه، ويعتبرها جزءً، ولو ضئيلاً، من رصيدهِ في هذه الحياة. وأحياناً كان يمازح زملاءه بالقول: جون كندي، هو الذي يشبهني. ولست أنا الذي أشبهه.

بعد دخوله بهو المحطة العملاقة والأكبر في أوروبا، استقبلهُ مزيج خفيف من الروائح المنبعثة من المحلات الموجودة في الداخل. أوركسترا روائح، لا حصر لها؛ عطور نسائيّة ورجاليّة، تتخللها رائحة الكرواسون الطازج والسندويشات الخفيفة، إلّا أن رائحة القهوة بقيت محافظة على نفسها، وكأنّها المايسترو. وأحبّ إلى قلبهِ أن يستقبل صباحه برائحة القهوة، خاصّةً إذا كان يمشي في الشارع والجوّ باردٌ ومصحوبٌ بمطرٍ خفيف.

تسيطرُ عليه مشاعر الرضا والارتياح والقليل من السرور والترقّب لأنه يوشكُ على ممارسة شخصيته السريّة الأخرى وطقوس صمتها واختلاس السمع في القطار، كمَن يرغب في الفكاك والانعتاق من سطوة الرتابة، ولا يريدُ أن يعرف أحد هويّته؛ من هو؟ وماذا يعمل؟ يمارسُ حريّته في الصمت، من دون إزعاج أحد، ومن دون أن يزعجه أحد.

تجوّلَ 5 دقائق في البهو الأكثر دفئاً من خارج المحطّة، والمكتظّ بالمسافرين والعائدين المودّعين والمنتظرين. ورغم أنه شرب قهوة الصباح في المنزل وتناول فطورهُ كالعادة، إلّا أن رائحة القهوة حرّكت فيه الاشتهاء ورغبة شرب كوبٍ آخر، خاصّة أنه ما زال على وصول القطار الذي سيقلّه إلى كولن نحو 20 دقيقة. انتابه شيء يشبه الندم على شرائه تذكرة القطار الألماني (ICE) السريع، درجة ثانية، لأنه سيكون مقيّداً برقم المقعد، ورقم القاطرة أو الفارغون. بينما بطاقة القطارات العاديّة الأخرى (IC)، تمنحه حريّة الحركة وتغيير المقعد والفارغون. وساءل نفسه: «لماذا لم أشترِ تذكرة قطار عادي؟! لأن القطارات العاديّة تكون فيها الرقابة أخفّ، وهامش أن

يستقلّها الفقراء وذوو الدخل المتوسّط، واللاجئون والمهاجرون، يكون أكبر. القطارات السريعة، غالباً ما تكون هادئة، وأشبه بركوب الطائرات. بينما العاديّة تضجّ بالحيويّة والتنوّع والثرثرات والقصص».

اقترب من أحد المحلّات الصغيرة التي تبيع المعجّنات والسندويشات والقهوة والشاي والمشروبات الأخرى، ووقفَ ينتظرُ دورهُ. في المقدّمة، رجلٌ ينتظرُ المحاسبَ حتى يسلّمه طلبهُ. تليه فتاتان في العشرينات، تضجّان بالأنوثة والغنج. تتبادلان الكلام بالإيطاليّة الذي يقارب الهمس. كلامٌ ممزوج بالضحك. يبدو أنهما ألمانيتان، وكي تتجنّبا أن يستمع إليهما الناس، آثرتا الكلام بالإيطاليّة. قالت إحداهما للأخرى: «هذا المحاسب وسيمٌ جداً. انظري إلى موضع سحّاب بنطاله، كيف أنه متورّم بشكل شاقولي. يبدو أنه منتصب، ويناديك كي تجلسي عليه وأنتِ تشربين القهوة». فردّت الأخرى ضاحكة: «ولماذا لا يريدك أن تجلسي عليه!؟ يا غبيّة، أَبعدي عينيكِ عن قضيب الرجل. وأبعديني عن هلوساتك وتهويماتك الجنسية! ألا تعرفين أنني لا أطيق الرجال؟! ثم هل جرّبتِ هذه الوضعيّة؟! كيف لكِ شرب القهوة وأنت تتأرجحين فوقهُ؟! ستندلقُ القهوةُ الساخنة عليكِ وعليهِ. يا لكِ من شريرةٍ ومجنونة وغبيّة!».

استمع يورغن إلى ثرثرة الفتاتين، من دون أيّة إشارة توحي بأنه يفهم كلامهما. جاء دوره فطلب كوب كوبتشينو. استلم طلبه وقرر الجلوس إلى إحدى الطاولات القليلة الموجودة في المحلّ، يرتشف ببطء وتلذذ كوبه، ويراقب المارّة والزبائن من دون تركيز. شارفَ الكوبُ على منتصفهِ. نظر إلى الساعة الموجودة في الموبايل وإذا بها

الثامنة واثنتين وأربعين دقيقة، فخرج من المحلّ متّجهاً نحو الرصيف رقم D-5، يجرّ باليد اليمنى حقيبته المتوسّطة الحجم، وحاملاً باليسرى كوبهُ كي يكملهُ، في انتظار مجيء القطار. بدا الرصيف مكتظّاً بالمسافرين، وقلّةٌ قليلةٌ ممن ينتظرون في استقبال القادمين من أقارب أو أصدقاء. كتنّينٍ أبيضٍ عملاق، لا ينفث ناراً، تهادى قطار ICE. وقفَ يورغن حيث ينبغي عليه الوقوف حتى يصبح في مواجهة الفارغون الذي يتواجد فيه مقعده. بعد أخذه الرشفة الأخيرة من الكوب ورميه في السلّة المخصصة للزبالة على الرصيف، صعدَ إلى القطار بهدوءٍ ووقارٍ وثقة، ولَفَتَتْ انتباهَهُ مفتّشةُ التذاكر الواقفة على الرصيف، تنظر إليهِ بإعجاب، وتنتظرُ صعودهُ. وضع حقيبته في المكان المخصص للحقائب، قريباً من الباب، اتجه نحو مقعده الموجود في منتصف الفارغون، إلى جوار النافذة وبعكس اتجاه القطار، يفصله عن المقعدين الآخرين، قبالتهُ، طاولة صغيرة. خلع معطفه وطواه بعناية واهتمام ووضعه على الرفّ العلوي. وكعادة كل المسافرين حين يجلسون على مقاعدهم يطلقون تنهيدة ارتياح، كذلك فعل يورغن، من دون أن يكون هناك أيّ سبب أو تفسير لتلك الزفرة أو التنهيدة، إذ لم يكن متعباً أو متأخّراً على الموعد، أو مستعجلاً في اللحاق بالقطار. نظر إلى المقاعد الأربعة في الجهة اليسرى للممرّ، فوجدها ممتلئة، ثلاثة رجال وامرأة، تتوسّطهم طاولة صغيرة كالتي أمامهُ. بينما المقعد الذي على يساره والمقعدان أمامه في الجهة الأخرى من الطاولة، ما زالت فارغة. لاحظَ وجودَ جريدةٍ مطويةٍ بشكل عشوائي على المنضدة الصغيرة. وإذا بها جريدة الحياة التي تصدر في لندن، العدد الصادر يوم أمس 18/ 1/ 2014. كانت

الجريدة مطوية على صفحة الأبراج، ربما كانت الصفحة الأخيرة التي قرأها صاحبها، ونسيها في القطار. ولأنه يمتلك أنفاً أكثر حساسيّة من أنف كلب، شعرَ بوجود عطرٍ نسائي ما زال عالقاً بالجريدة، فخمّن أن تكون صاحبتها سيّدة عربيّة أو تجيد القراءة بالعربيّة. ولكن، من تكون هذه السيّدة التي سهت عن أخذ جريدتها أثناء النزول من القطار؟ وهل نزلت هذه السيّدة الآن في برلين؟ أم في محطّة أخرى؟ ابتسم يورغن وقال في نفسه: «بداية جيّدة ومثيرة»، في إشارة منه إلى رحلته.

مدّ يورغن يده إلى الجريدة وبدأ يتصفّحها. هذه الجريدة لم تكن غريبة عنه، لأن نسخاً منها كانت تصله، بحكم عمله الجديد، كمستشار للمبعوث الدولي، وتصله أيضاً، أثناء عمله في مركز الدراسات الألماني. بدأ يتصفّحها، متصنّعاً الانقطاع عن العالم وأحاديث المسافرين، بخاصّة الأشخاص الأربعة الجالسين في الجهة الأخرى، على اليسار من الممرّ. لاحظ أحد الجالسين الجريدة، واسمها المكتوب في أعلى الصفحة الأولى بخطّ فارسي كبير وواضح. فقال لزملائه، بصوتٍ يقارب الهمس:

- انظروا إلى هذا الرجل، في الجهة اليمنى، أعتقد أن الجريدة التي يقرأها، فارسيّة. ماذا تعتقدون؟

بدأ الثلاثة الآخرون ينظرون إليه شزراً، فقالت السيدة:

- أعتقد أنها عربية وليست فارسية.

ردّ عليها آخر: عزيزتي إنجي، عربيّة أو فارسيّة، الزبالة نفسها، الخراء نفسه!

حاولت إنجي والرجلان الآخران كتمَ ضحكاتهم، ولكن إنجي لاحقته بسؤال آخر: «هربرت، ماذا تقصد؟ هذه أوّل مرّة أجدك تتفوّه بشتائم عنصريّة!؟ كيف ذلك؟! وأنت المنتمي إلى الحزب الديمقراطي الاجتماعي (SPD)؟ وكذلك مقالاتك المنشورة في صحيفة «أخبار ألمانيا» (Neues Deutschland) التي تدافع فيها عن المهاجرين والأجانب وضرورة احترامهم ودمجهم، وتنتقد بشراسة القوميين والشعبويين ومناهضي الأجانب، خاصة المسلمين؟!».

- «دعكِ من كل هذه الترّهات والسخافات التي أكتبها في مقالاتي. هويّة ألمانيا في خطر. بل هويّة أوروبا كلها في خطر، بسبب هؤلاء المهاجرين. لا تنسي أن الإرهابيين الذين نفذوا أحداث 11 سبتمبر/ أيلول في أمريكا، كانوا أجانبَ مقيمين في ألمانيا». قالها بتبرّم وامتعاض، وانفعال. ما دفع إنجي إلى طلب خفض الصوت وتغيير لغة النقاش من الألمانيّة إلى الإنكليزيّة، لأن الشخص الذي يقرأ تلك الجريدة، ربما يجيد الألمانيّة، ويفهم ما يقولونه. فردّ هربرت:

- لماذا أخفض صوتي، وأغيّر لغتي؟! ألا ترين هذا الغبي، كيف أنه مستغرق في جريدته؟ ثم إنه لو كان يجيد الألمانيّة، لكان التفت إلينا! وما أدراكِ أنه لا يفهم الإنكليزيّة أيضاً؟! لن أغيّر لغة كلامي. شكله وملامحه وهيئته أوروبيّة، وليست شرق أوسطيّة. ربما يكون الابن غير الشرعي لرجل أوروبي، من امرأة عربيّة أو مسلمة.

وضع يده اليمنى على فمه وضحك.

- تتحدّث بهذا الطريقة من الكراهية والضغينة، وأنت اليساري الاشتراكي، فلو كنت ضمن حزب «البديل من أجل ألمانيا» واستلم

حزبك السلطة، لربما كنت ستنصب المحارق للأجانب. قالت إنجي، وعلامات الدهشة على وجهها.

- أنا اشتراكي ديمقراطي يسعى إلى خدمة ألمانيا والمجتمع الألماني وتحقيق العدالة الاجتماعيّة والديمقراطيّة لأبناء شعبي ووطني، وليس للأجانب الذين لا يعتبرون هذا الوطن وطنهم. من لا يعتبر ألمانيا وطناً له، ولا يحترم قوانيننا، كيف لي أن أتعامل معه، كأنّه مواطن ألماني؟!

دخل الشخص الثالث في النقاش وقال:

- ما أسمعه من هربرت مؤسف ومحزن، ويثير القلق، ولكنه صحيح.

- كيف مؤسف ومقلق، وصحيح، يا فرانك؟ تساءلت إنجي.

- عزيزتي إنجي، ردة فعله مؤسفة ومحزنة ومقلقة، لأن أفكاراً ومواقف كهذه موجودة ضمن الحزب الديمقراطي الاجتماعي الذي يعتبر نفسه حزباً اشتراكيّاً ديمقراطيّاً، ويمثّل يسار الوسط. هذه الأفكار والمواقف بدأت تظهر وتنمو وتنتعش في أحزاب ليبراليّة ومسيحيّة محافظة، وكذلك في حزب الخضر الذي أنتمي إليه. هذه الأفكار الشعبويّة التي تحضّ على كراهية الأجانب واللاجئين، جذرها كراهية الألمان للألمان أنفسهم. وعبّر ذلك عن نفسه في صعود الحزب النازي بعد الحرب العالمية الأولى. هذه الأفكار التي تزعم خدمة ألمانيا والشعب الألماني، حين استلمت السلطة، دمّرت ألمانيا وأوروبا. وساهمت في قتل ملايين الألمان، وأودعت ملايين آخرين في السجون ومعسكرات الاعتقال. أعتقد أن هذه الأفكار هي

التي دمّرت ألمانيا وأوروبا والعالم، وليس تصاعد حضور الأجانب والمهاجرين في ألمانيا. وهذا ما يقلقني. كذلك وجه القلق والصواب في كلام هربرت؛ أن الأجنبي في ألمانيا، بخاصّة الجيل الثاني أو الثالث من المهاجرين، إذا لم يعتبروا ألمانيا وطناً لهم، ولم يحترموا القوانين والدستور، لا يمكنني كعضو في حزب الخضر الدفاع عنهم. لا يمكنني الدفاع عن حق انتهاك القانون، سواء أكان المنتهك ألمانيّاً أصيلاً، أم شخصاً من أصول أجنبيّة، اكتسب الجنسيّة الألمانيّة.

التفت فرانك إلى هربرت وقال: أعتقد أنك ذكرتَ في أحد مقالاتك حكاية جدّك الذي نزح عن برلين مرتين، باتجاه الدنمارك، في الحرب العالميّة الأولى سنة 1916، وبقي هناك عشرين سنة، ثم عاد إلى برلين سنة 1936، بعد أن تزوج من امرأة دنماركية وأنجب منها والدك وثلاثة أطفال آخرين. وبعد عودته بثلاث سنوات، اندلعت الحرب الثانية. وأثناء محاولته الهرب والنزوح مرة أخرى إلى الدنمارك، تمّ اعتقاله، وأودع أحد معسكرات الاعتقال النازية، ليس لأنه يهودي، أو أجنبي أو معاق أو مثلي الجنسية أو من الغجر أو أنه حشرة، بل لأنه اتُّهِمَ بالشيوعيّة، رغم أنه لم يكن قد سمع باسم كارل ماركس الألماني. وذكرتَ أن جدّك أودع معسكرات نظام نازي، كان يطلق على نفسه: حزب العمال الاشتراكي الألماني، ويزعم خدمة ألمانيا الآريّة، وسموّ هذا العرق الآري - الجرماني. وذكرتَ في ذلك المقال المؤثر جداً أن جدك ينحدر من أصول بولونية.

قاطعه هربرت: ما الذي تريد قوله، فرانك؟ اختصر في الكلام من فضلك!

- أردتُ أن أذكّركَ أو أذكرَ لك، أن الكثير منّا، ممن يزعمون حبّهم لألمانيا وأنهم يخدمون الشعب الألماني، وأن هذا هو السبب في موقفهم السلبي من الأجانب، هؤلاء ينحدرون من أصول أجنبية. وأعتقد أن أحد مؤسسي حزبك، أقصد إبراهيم بوهمي، الذي أسس الحزب الديمقراطي الاشتراكي في ألمانيا الشرقية سنة 1990، بعد انهيار المنظومة الشيوعية، وساهم في توحيد جناحي الحزب بعد انهيار جدار برلين، هو أيضاً أجنبي!

- ولكنه كان عميلاً للشرطة السريّة التابعة للنظام الشيوعي في ألمانيا الشرقية، وطرد من الحزب!

ضحك فرانك، وأجابه: الحركات اليساريّة والشيوعية في ألمانيا الغربيّة والشرقيّة، بل كل الأحزاب الشيوعيّة في أوروبا الشرقيّة التي هي الآن أعضاء في الاتحاد الأوروبي والناتو، تلك الاحزاب، ألم تكن تتبع الاتحاد السوفياتي والنظام الستاليني والدكتاتوري؟ أعضاء هذه الحركات والأحزاب، ومنها حزبك، الذين كانوا ألماناً أقحاحاً، ألم يكونوا يعرفون تبعيّة حزبهم للنظام الشيوعي السوفياتي؟ يعني، أن عملاء البوليس السريّ الشيوعي في ألمانيا الشرقيّة لم يكونوا أجانب وحسب! بل كان هناك عملاء للسوفيت من الألمان الأقحاح أيضاً. لماذا تنسى أو تتجاهل ذلك؟!

اتجه فرانك نحو الشخص الرابع، وسأله: ماذا دهاك، هانز؟ لماذا لا تشاركنا النقاش؟

ابتسم هانز وقال: أنا أجيد الاستماع أكثر من إجادتكم الحديث والكلام. لدي أذنان وفمّ واحد. لذا أعتبر أنه على المرء أن يسمع ضعف ما يتكلّم. وحتى لو تكلّمت، وأدليت بدلوي في الحديث،

فلن أستطيع زحزحة هربرت عن قناعته. ربما يغضبكم رأيي، لذا سأحتفظ به لنفسي.

الثلاثة معاً، ذكروا أن رأيه، مهما كان مختلفاً، فلن ينزعجوا منه مطلقاً. فبدأ هانز الحديث:

- أنا واثق أن تطمينكم لي بأن رأيي لن يثير غضبكم، هو أيضاً، ليس صحيحاً. سيزعجكم لا محالة. هناك حقيقة دامغة، لا تصرّحون بها، مفادها: أن الألمان هم الذين دمّروا بلدهم، وأتى الأجانب وأعادوا إعمارها. الألمان دمّروا ألمانيا، حين أتوا بالحزب النازي للسلطة، عبر الانتخابات وصناديق الاقتراع. الألمان هم من ساهموا في تمزيق بلدهم. وقبل مساهمتهم في بناء جدار برلين، بنوا هذا الجدار في العقول والنفوس. لاحظوا أن الكثير من أعضاء حزب «البديل من أجل ألمانيا» ينحدرون من التيّار اليساري. كما أن نسبة كراهية الأجانب والمسلمين في ألمانيا، عالية في المناطق والولايات التي كانت خاضعة للحكم الشيوعي الذي يفترض أنه لا يميّز بين مكوّنات النسيج الاجتماعي، قياساً بنسبة الكراهية في المناطق التي كانت تحت سلطة النظام البرجوازي الرأسمالي والإمبريالي؟! الأحزاب السياسية في الكثير من البلدان الأوروبيّة، ومنها ألمانيا، صارت تلعب برخص بورقة الأجانب. فمن يسعى إلى الحصول على أصوات القوميين واليمينيين، يعلن كراهيته للأجانب. كذلك هناك أطراف وأحزاب اشتراكية ويسارية ومعنية بحماية البيئة، بهدف كسب أصوات الأجانب، تعلن عن نفسها حامية لهم، ومعادية لمشاريع الأطراف اليمينيّة. ولكن جوهر الأمر هو صراع على السلطة. وإذا كانت الأطراف اليمينية والقوميّة المتطرّفة، واضحة وصريحة،

ومتصالحة مع قناعاتها وبرامجها الشعبويّة والعنصريّة، فإن الأطراف والأحزاب الاشتراكية الديمقراطية تمارس التقية والخديعة! وحقاً أن هربرت يمثّل جوهر ومنهج حزبه. أخشى أن يكرر الألمان خطيئتهم بحق أنفسهم وبلدهم والعالم والإنسانيّة، عبر تصويتهم للأفكار والمشاريع الشعبويّة والعنصريّة، تماماً كما فعلوا قبل الحرب العالميّة الثانيّة!

قاطعته إنجي وقالت: أنت تبالغ عزيزي هانز، حقّاً تبالغ. ليس لهذه الدرجة!

- عزيزتي إنجي، أخبرتك برأيي الذي طالبتموني بالإفصاح عنه، وبأن ذلك لن يزعجكم. في داخلي وداخلكِ وداخل فرانك، هناك هربرت صغير.

احمرّ وجه هربرت وارتفعت نسبة الأدرينالين في دمه، وتسارع تنفّسه، وقال:

- لستُ شيطاناً، ومصدر الكراهية والشرور. لماذا تقسو عليّ هكذا؟!

- ولستَ ملاكاً أيضاً. ولستُ من يقسو عليكَ، بل أنتَ من تظلم نفسكَ، وتظلم الآخرين، حين تعتبرهم زبالة وخراء، وأنهم يهددون هويّتك ووجودكَ!

- أفضّل أن أكون مثل هذا الرجل، يقرأ جريدة أو كتاباً، أفضل من هذا الجدل العقيم؟! قالها هربرت، بغضب.

- حل ممتاز. وأنا أيضاً أفضّل ذلك. أرأيتَ كيف أن هناك شيئاً إيجابياً في الأجانب يمكن الاقتداء به!؟ نحن زملاء عمل،

وأصدقاء، واختلافنا في وجهات النظر وفي المواقف، لا ينبغي أن يفسد العلاقة بيننا. عموماً، لم يبقَ الكثير على وصولنا إلى «ماغديبورغ» (Magdeburg)، كي نزور صديقنا كارل مولّار.

أخرج هربرت كتاب «قربان الأغاني» للشاعر البنغالي طاغور. وأخرجت إنجى رواية «العمى» للروائي البرتغالي جوزيه ساراماغو. فرانك أخرج عدداً من مجلة «دير شبيغيل». أما هانز، فأشاح بوجهه نحو النافذة وعاد إلى صمته وتأملاتهِ.

ومع استمرار الصمت، أعاد يورغن ترتيب أبرز الأفكار التي وردت في هذا النقاش. ولأنهُ في القطار، شخص محايد تماماً، أو هكذا يعتبر نفسه، لم يحدد، حتّى بينه وبين نفسه؛ إلى أيّ موقف يميل، من مواقف هؤلاء المسافرين الأربعة؟ وقال في نفسه: «يبدو أنني لست وحدي الذي يخلع قناعهُ وقناعاتهِ، كمَن يخلع ثيابه خارج القطار، ويصبح أكثر قرباً من ذاتهِ، وأكثر ظهوراً على حقيقتهِ. لا، لا.. من يدري، أي الشخصيتين هي شخصيتنا الحقيقيّة؟ الموجودة خارج القطار؟ أم التي بداخله؟ ها أنا ذا، أرتدي قناعاً آخر، كي أمارسَ في هذا المكان المتحرّك، ما لا يمكنني ممارسته في الأمكنة الثابتة وفوضى الرتابة المملة والقاتلة التي فيها. أفتعل تجاهل الآخرين، في حين أنني شغوفٌ ومستمتعٌ ومنهمكٌ في التلصص على أحاديثهم. يبدو أن خزانة الأقنعة لكل واحد منّا كبيرة وفيها الكثير من الأقنعة، وأطقم الكلام الزائف. ترى، ما هي نسبة الحقيقة في حياتنا؟ ما هو حجم ومدّة لحظات الحقيقة التي نكون فيها حقيقيين مع أنفسنا ومع الآخرين، في هذا العمر الممرّغ بالادعاء والزعم والدجل والنفاق والخداع؟ هل نحن نتحايل على أنفسنا أم على

الحياة؟ وننتحل قيماً وأخلاقاً ومبادئ لسنا مؤمنين بها أو واثقين منها؟ أيُّ فارقٍ بيني وبين هذا الشخص الذي ينتمي للحزب الديمقراطي الاشتراكي الألماني، الذي يدّعي الانفتاح ويدافع عن حقوق المهاجرين والأجانب، خارج هذا القطار، ويتحدّث بغطرسة وعدوانيّة وعنصريّة، داخله؟ هل لحظات الضعف هي التي تقرّبنا من حقيقتنا، ومن الحياة؟ أم لحظات القوّة؟

أووووف! يبدو لي أن البشر كائنات هشّة وواهنة، مهما امتلكَ أي منّا جبروت السلطة والمال وطغيانهما أو امتلك عمق الحكمة والمعرفة، أو امتلك قوّة الأخلاق والفضيلة، يبقى هشّاً، وأوهنَ من خيط عنكبوت».

توقّف القطار في محطة «براندنبورغ» وبقي على وصول القطار إلى محطة «ماغديبورغ» نحو 43 دقيقة. صارَ الصمتُ باعثاً على الملل. حين بدأ القطار تحرّكه نحو «ماغديبورغ» اضطر يورغن إلى مغادرة مقعده والاتجاه نحو فارغون المطعم، ليس لأن لديه الرغبة في شرب أو أكل شيء، بل لأنه ربما يلتقي أشخاص يثرثرون، فيختلسَ السمع إلى قصصهم وحكاياتهم، ريثما يصل القطار إلى المحطة الأخرى.

طوى الجريدة بتثاقل، واتجه نحو المطعم. طلب كوباً كبيراً من الكابتشينو، ووقف إلى جوار طاولة بالقرب من النافذة، مفتعلاً أنه يتجاهل شخصين؛ رجل حنطي البشرة، جميل الملامح، أنيق طويل القامة في مطلع العقد الخامس من العمر، وامرأة فاتنة، في منتصف العقد الرابع، تشبه كثيراً وزيرة الخارجيّة الإسرائيليّة السابقة تسيبي ليفني، لكنها تبدو أقصر من ليفني. اندهش يورغن حين سمعها

تتحدّث بالعبريّة ما جعله يتساءل في نفسه عن سبب هذا الشبه الكبير بين ليفني وهذه السيدة!

أطلقت تنهيدة وقالت:

- أنا متأكّدة أنهم يعرفون أنني معك الآن. وربما أرسلوا مَن يراقبني على متن القطار.

- حبيبتي سارا، مخاوفك مبالغ فيها. لا تقلقي. قالها الرجل، وضمّ يدها اليمنى إلى يديه، ورفعها إلى فمه، وقبّلها برفقٍ، مع ابتسامةٍ خفيفة، ونظرةٍ عميقة في عينيها الخضراوين، محاولاً إدخال الطمأنينة والدفء والثقة إلى نفسها. نكّست رأسها في لحظة تأمّل وشرود، ورفعت بيدها اليسرى خصلةً شاردة من شعرها، ووضعتها خلف أذنها، وقالت:

- كم أنت طيّب وحسن النيّة، عزيزي أدهم! هذه الصفة ينبغي أن يتجرّد منها عميل الاستخبارات. لا أعرف كيف وافقوا على تعيينك ضابطاً في المخابرات الفلسطينيّة؟! إنه «الموساد». ألم يخبركم أحد، أثناء التدريب، ما هو جهاز «الموساد»؟! أنا مكلّفة بإقامة علاقة معك، باعتبارك ضابط مخابرات فلسطينيّة، وها قد تورّطت في علاقة عاطفيّة معك، وصرت أحبّك. وسبق لي أن صارحتك بحقيقة بداية علاقتي بك، فأنا أخون بلدي، لأنني وقعت في الممنوع أثناء العمل! حذّرونا، أنه أثناء جرّ أعداء إسرائيل إلى علاقات عاطفيّة وممارسة الجنس، بهدف الحصول على معلومات، يجب أن نكون دُمى مجرّدة من العواطف والمشاعر الإنسانيّة، وألّا تتحوّل هذه العلاقة إلى حبّ. وممنوع أن تؤدّي العلاقات الجنسيّة إلى الحمل والإنجاب. وأي واحدة منّا تخالف هذه التعليمات، تعتبر خائنة، وجزاؤها القتل.

- سارا، إذا كان هناك شخص يجب عليه أن يعرف «الموساد»، فهو رجل الأمن الفلسطيني. أنا أيضاً مهدد مثلكِ. وإذا اكتشفوا أن علاقتي بكِ خرجت من كونها عمالة مزدوجة، تسرّب معلومات كاذبة، ومعلومات مضللة، والقليل القليل من المعلومات الصحيحة، فسيعاقبونني بالموت. وإدارتي ومسؤولي، يعتبرونني الآن بطلاً، على أنني أخدع «الموساد»، وأسرّب لهم معلومات كاذبة، وأحصل من عميلة «الموساد»، على معلومات هامّة!

لا أعرف لماذا كلّفك «الموساد» بتجنيد ضابط مخابرات فلسطيني للحصول على معلومات! البيت الفلسطيني مهترئ الجدران، ومكشوف السقف للإسرائيليين، ولا يوجد فيه أي شيء غامض أو سرّي أو مقلق، يستحق عناء البحث عنه ومعرفته!

رغم أنني متزوّج ولدي ثلاثة أطفال، إلّا أنني أحببتك. كلانا خائن لوطنه وعمله، ويتهدده الموت في أيّة لحظة. فلماذا أنا لا أشاطرك الخوف والقلق؟! يمكننا التواري والهرب إلى أيّة دولة في جنوب آسيا أو الصين أو حتى كوريا الشمالية، ونكشف عن هويتنا وأننا مطاردان من المخابرات الإسرائيليّة والفلسطينيّة على حدّ سواء. ونطالب بالحماية، ونقوم بتغيير اسمينا. حتى أنه يمكننا إجراء عمليات جراحية تغيّرُ من ملامحنا. لا يمكنني تسميتها بعمليات تجميل، إنك ساحرةُ الجمال. ولكن، تغيير الملامح بهدف تجنّب الملاحقة. أولادي كبار، أصغرهم عمره 14 سنة. وحياتهم مع أمّهم مؤمّنة في برلين. ويمتلكون منزلاً. ولن يكتشفوا هروبي. وسيعتبرون غيابي، وفقدانهم العلاقة معي، على أنني شهيد، وتمّ اختطافي أو اغتيالي من قبل «الموساد». هكذا جرت العادة أن يتمَّ اتهام إسرائيل

بأيّة جريمة اغتيال، حتى ولو كانت بين الفصائل الفلسطينيّة نفسها.

- أعود وأكرر؛ إنه الموساد. . . الموسااااد. الأمر مختلف لدينا. إذا قتلوني، لن يلقوا بالتهمة على المخابرات الفلسطينيّة. أنت عشت حياة الأبوّة، ولديك أطفال، ولا تعاني من عقدة النقص هذه. بالنسبة إليّ، هي المرّة الأولى التي أجدني فيها أموت في اللحظة ألف مرّة، بنيران الرغبة الجارفة في أن أنجب منك طفلاً. ولكن الموساد سيلاحقني حتى ولو كنت على سطح القمر، أو المريخ، أو تحت الأرض، وليس فقط في جنوب آسيا، أو أمريكا اللاتينية أو القطب الشمالي.

- دعينا نجرّب، سارا، ونعيش التجربة. لا يهمّ إن اعتبرونا خونة، ولاحقونا. دعينا نترك غرسةً في هذه الحياة، تدلّ على أننا عشنا تجربة حبّ خالصة، وسط هذا الصراع الأزلي! وهي أن ننجب طفلة أو طفلاً أو أكثر، وبعدها، فليكن ما يكون.

- سيقتلونني. أعتقد أنهم أصدروا حكمهم عليّ: «تصفية سارا أيالون بيتروفسكي، بسبب خيانتها الوطن». إحدى الزميلات ألمحت لي بذلك. أنا واثقة من الأمر، ثقتي بأنني الآن معك. أخشى أن أموت، قبل تحقيق رغبتي ولهفتي في أن أكون أمّاً. مارستُ الجنس مع مسؤولين سوريين وفلسطينيين وأردنيين ومصريين، والآن أعيش حالة حبّ جارفة، وأمارس الجنس مع من أحبّه، وليس في إطار الأوامر والمهمّات، وتحت ضغط الكلام الكاذب بأنني أحمي بلدي، مستخدمة جسدي سلاحاً.

جدّي البولندي، إسحاق بيتروفسكي، أثناء اعتقاله في كنيسة القديس ألكساندر الكاثوليكيّة في وارسو، كان يرتدي زيّ الرهبان،

وزعم أنه راهب كاثوليكي إيطالي اسمه سيرجيو برودي، وأنه ليس يهودياً. لم يكن يمتلك وثائق تؤكّد ذلك، لكن إتقانه الإيطالية أسعفه في الهروب من إيمانه ومعتقده. لذا لم يودعه النازيون في معسكرات الاعتقال الرهيبة في بولندا وألمانيا، بل سيق إلى معسكر «بريندونك» (Breendonk) في بلجيكا. قال لي أبي، نقلاً عن جدّي، إنه أثناء اعتقاله في معسكر «بريندونك»، كان معه عرب، مغاربة وجزائريون، وسوري ولبناني أيضاً. وبعد انتهاء الحرب، وتحرير سجناء «بريندونك» سنة 1944، قرر جدّي السفر إلى «أرض الميعاد» بمساعدة من الحكومة البولنديّة والجمعيات اليهوديّة. ومع وصوله إسرائيل سنة 1945، انضم إلى منظمة «الأرغون»، وصار يقتل الفلسطينيين، ويكره العرب، كأنّهم هم من أودعوه معسكر الاعتقال النازي في بلجيكا!؟ أو كأنّهم من نفّذوا الهولوكوست بحق اليهود!؟ لقد أورثنا جدّي كراهية العرب والمسلمين، رغم أن بعضهم كانوا زملاءه في المعتقل النازي، ويعاملونه بشكل جيّد. ما أردتُ قوله من سرد حكاية جدّي، أن الأديان والعقائد والأيديولوجيّات، يمكن أن تسمم معتنقيها وتحوّلهم من بشر عاديين إلى قتلة ومجرمين.

تصوّر، منذ أن فتحت عينيّ على الدنيا، وهم يرضعوننا ويطعموننا الخوف والقلق من الأعداء، وكيف يجب أن نوقفهم عند حدّهم. هكذا، صار جدّي يريد الانتقام من العرب، على شيءٍ لم يقترفوه، وأصبح عضواً في «الأرغون»، وصار أبي ضابطاً في جيش الدفاع الإسرائيلي، وصرت أنا عميلة في «الموساد»! ولكن، بعد أن عرفتك، اكتشفت كم كنا مخدوعين. وأننا منذ عام 1948 وحتى الآن، ونحن نهاجم الأعداء ونهزمهم ونطحنهم، لكن بقينا مسكونين

بهاجس الخوف والذعر من الأعداء، وكأنّهم المنتصرون ونحن المهزومون. نحن دولة قلقة وخائفة من الزوال، رغم تبجّحنا في الحديث عن قوّتنا العسكريّة والنوويّة، والاقتصاديّة والدبلوماسيّة، وما نملكه من لوبي في أمريكا وأوروبا. لم أكن أعي وأفهم؛ كيف علينا ألّا نأمنَ جانبَ العرب ونحن المنتصرون عليهم؟ كيف نحذر منهم، ونتحوّط لهم، ونحن من نصفهم بالضعفاء والمهزومين!؟ يبدو لي، إن لم يهزمنا العرب، فالخوف منهم، سيهزمنا. أنا واثقة من أن العرب يخافون بعضهم من بعض، وخاضوا حروباً بعضهم ضد بعض، أكثر من الحرب على إسرائيل! ولكن، منذ عام 1948 وحتى هذه اللحظة، والشعب الإسرائيلي يعيش حالة حرب واستنفار وخوف من أي هجوم. هناك خوف وجودي وأبدي، الحكومات الإسرائيليّة كانت حريصة أيّما حرص على إذكائه وتلقينه للإسرائيليين مع الهواء الذي يستنشقونه! لقد فعلت الحكومات الإسرائيليّة المتعاقبة، نفس ما فعلته الانظمة العربيّة، وهي تخويف الإسرائيليين من العرب! كذلك مارست الأنظمة العربية تخويفَ العرب من إسرائيل. وبحجة التحضير لمحاربتها وإزالتها من الوجود، قامت تلك الأنظمة بقمع شعوبها وتدمير المجتمعات العربيّة. نحن دولة مرعوبة، ومجتمع مريض ومذعور وقلق على وجوده ووجود دولته، لذا ترانا نسعى إلى إبادة الآخرين على أنه سبب ومبرر وجودنا واستمرار حياتنا. ما الذي كان سيحدث لو عشنا في سلامٍ وأمانٍ وثقة مع الجيران، في وطن مساحته ولو ألف كيلومتر مربع؟! ميليشيات «الهاغانا» و«الأرغون» كانت تقتل العرب، في وقت كان اليهود يساقون إلى الهولوكوست في ألمانيا وبولندا!

في نهاية المطاف، جرفتني أمواج الحب نحوك، ونحو قناعة مفادها: أننا جميعاً ضحايا، وسط بحرٍ هائج من التضليل والأحقاد والكراهية، والخوف المتوارث، وأننا يجب ألّا نأمن جانب الأعداء المسلمين من العرب والأتراك والإيرانيين. أنت أيضاً ضحيّة، غرسوا في عقلك الكثير من خرافات وأوهام ضرورة محاربة اليهود والعدو الإسرائيلي، كذلك فعلوا معي ومع كل الإسرائيليين، بضرورة محاربة العدو العربي. إنها الأحقاد التاريخية التي يزيد عمرها على 2000 سنة، نتوارثها، ونجدد دورتها الدمويّة في مجتمعاتنا.

الحياة في جوهرها، بالضدّ من القناعات الثابتة الآبدة. نحن شعوبٌ رهينة القناعات الثابتة. لستم وحدكم كعرب ومسلمين تمتازون بهذه الخصلة أو الخاصيّة، كذلك نحن اليهود هكذا، أسرى ورهائن القناعات الدينيّة - القوميّة الثابتة، سواء أكنّا يهوداً شرقيين أو غربيين، لا فرق في ذلك. حكمنا الروس الشيوعيون لما يزيد على نصف قرن، وحاولوا تلقيننا حتميّاتهم التاريخيّة والطبقيّة.. و.. و.. و..، وأرادوا أن نصبح مسننات ضمن آلتهم القمعيّة. ثم أتى النازيون ونصبوا لنا السجون والمعتقلات والمحارق. وحين أصبحنا دولة، تحوّلنا من ضحايا إلى جلّادين. هل تعرف أنه كان هناك يهوداً ضمن معسكر «بريندونك» البلجيكي، يشرفون على تعذيب اليهود المعتقلين؟! نعم، كما أقول لك! يهودٌ يقتلونَ يهوداً تحت التعذيب في معسكرات الاعتقال الستالينيّة والهتلريّة أيضاً، كي يرضى عنهم النظامان الجلّادان الكبيران؛ الشيوعي والنازي! كان جدّي يرى ذلك أمام عينيه، وعاجزٌ عن مساءلة اليهود الذين يعذّبونه! لأنه لو فعلَ ذلك، لاكتشفوا حقيقته على أنه يهودي وليس راهباً كاثوليكياً! هذه

الحقيقة المرّة والقاتلة، لا يفصح عنها الإسرائيليون، لكأنّ اليهود ملائكة، وبقيّة الشعوب والأديان هم الشرّ المطلق!؟ إذا ذكرتُ هذه الحقيقة في إسرائيل، فوراً سيتهمونني بمعاداة الساميّة، وكراهية اليهود، وأنني أنكر المحرقة أو الهولوكوست، رغم أن جدّي كان مقاتلاً ضمن «الأرغون» وأبي كان ضابطاً ضمن الجيش الإسرائيلي، وشارك في حرب 1967 وحرب 1973، وحرب 1982، ورغم أنني يهوديّة وعميلة في «الموساد» برتبة ملازم، وعضو في حزب الليكود!

لا يهمني أن يغتالوني، بل أخاف مِن أن يطاولك رصاصُ غدرهم أو سمُّهم. رصاص الغدر، لا جنسيّة أو دين له. ربما يكون هذا الرصاص إسرائيليّاً أو فلسطينيّاً، لا فرق. أنا خائفة، خائفة عليك.

ازداد احمرار وجهها الوردي من الحزن، وذرفت عيناها المحتقنتان دمعتين كبيرتين. رفع أدهم كلتا يديه وضمّ وجهها، بحنوّ ولطف وهدوء، ماسحاً دمعتيها، بسبّابتيه.

أطلق القطار تنبيهاً بوصولهم إلى محطة ماغديبورغ، وعلى السادة المسافرين والمسافرات عدم نسيان حقائبهم، وأن الخروج من الجانب الأيسر للقطار. وكان ذلك كافياً لأن يعود يورغن إلى مقعده، فوجد ثلاثة مسافرين جدد؛ فتاة في مقتبل العمر، وشاب ورجل مسنّ، جلسوا مكان الأشخاص الأربعة الذين كانوا على يساره. كذلك وجد شخصين جلسا في المقعدين اللذين أمامه.

افتعل يورغن ابتسامة بلهاء وهو ينظر إلى الشخصين أمامه، كانا يتحدّثان، وحين رأياه قادماً، أوقفا حديثهما، وبادلاه ابتسامته البلهاء بابتسامة عريضة. عاد يورغن إلى تصفّح جريدته، ووجدها وسيلةً جيّدة للتواري خلف صمت القراءة.

الرجل الأوّل، متوسّط القامة، ممتلئ الجسد، يميل إلى السمنة، أسمر البشرة، بشعرٍ أشهب، يرتدي ملابس عادية، حليق الذقن، وملامحه أقرب إلى ملامح الهنود والباكستانيين. أمّا الثاني فكان أكبر منه سنّاً، وأكثر هدوءاً، يرتدي سترةً تحمل لوغو Jack Wolfskin وبنطلون جينز، ملامحهُ أقرب إلى ملامح سكّان جمهوريّات آسيا الوسطى.

حين رأى الرجل الأسمر جريدة الحياة، سأل يورغن مع ابتسامة تنضحُ بالسرور والودّ:

- السلام عليكم يا أخي. هل أنت مسلم؟

لكن يورغن لم يرفع عينيه عن الجريدة، وكأنّه لم يسمع السؤال. عاود الرجل طرح سؤاله «يا أخي، هل أنت مسلم؟ لماذا لا تردّ عليّ!؟»، قالها بصوتٍ أعلى، وبلغة عربيّة فصيحة، ونطقٍ سليم، جعل يورغن يراجع نفسه على أن هذا الشخص ليس هندياً أو باكستانيّاً. ولكنه بقي يلوذ بالصمت، كأنّه أصم وأبكم. وحين نقر الرجل نقرات خفيفة على الجريدة، وقتها لم يكن أمامه مناص من رفع رأسه عن القراءة، والتأمّل في سحنة الرجل وابتسامته وتكرار سماعه السؤال: «لقد سألتك؛ هل أنت مسلم؟». فاستخدم يورغن يده على أنه أصم وأبكم. ولا يمكنه الردّ. فأمسك الرجل ذراع السائل محاولاً ردّه قائلاً: «يا أبا جعفر، دعك منه. إنه لا يسمع. ربما يكون عربيّاً نصرانيّاً أو ملحداً. لا تغرّنكَ هذه الجريدة التي في يديه. هذه بلاد الكفر والإلحاد، ومن الطبيعي أن يتواجد فيها الكثير من النصارى واليهود والملاحدة من الخنازير والقردة الذين يقرأون بلغة القرآن مع الأسف! دعكَ منه. أمامنا ما هو أهمّ من معرفة حقيقة

دينه وعلاقته بدنياه..». قالها بتركيّةٍ شديدة الوضوح.

رنّ موبايل أبي جعفر. نظر إلى شاشتهِ، فانفتحت أساريرهُ، كأنّه عرف من يتصل بهِ:

- وعليكم السلام ورحمة اللّه وبركاته.

-

- نعم.

- .....

مكتبة
t.me/t_pdf

- نعم، إن شاء اللّه قريباً

- ..

- نعم. بكل تأكيد.

- ....

- وعليكم السلام ورحمة اللّه.

سأله صديقه: «من كان المتصل؟!».

- إنه الأخ أبو يعقوب الأنصاري. يبلغكَ تحياتهِ وسلامَهُ الحار. وقال: إن طيور الأبابيل وصلت تركيا، وللّه الحمد والشكر. وهي في طريقها إلى أعشاشها في الجنّة، بإذنهِ تعالى.

- للّه الحمدُ والشكر.

- وسألني عن السرب القادم من الأبابيل. أجبته: قريباً إن شاء اللّه. فقال: نتحدّث لاحقاً عن التفاصيل بخصوص السرب الجديد، ويجب أن يكون كبيراً. أجبته: بكل تأكيد.

- بصراحة، الإخوة الأتراك، لهم أجرٌ وثواب عظيم عند اللّه تعالى. سنستعيد أمجاد السلف الصالح هناك وهنا، بعونه تعالى.

- نعم، الإخوة الأتراك، جزاهم اللّه خيراً على دعمهم وتسهيلاتهم. حقاً نِعمَ الجِهادُ جهادهم. لن يتوقّف زحفنا حتى نسمع كلمة «لا إله إلّا اللّه، محمد رسول اللّه» تهزّ أقطار الأرض، في مشارقها ومغاربها. نحن لسنا إلّا جنوداً مجنّدةً لنشر شرع اللّه، ولا محيد لنا عن قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿قاتلوا الذِينَ لا يُؤمنونَ بِاللَّهِ ولا باليومِ الآخرِ، ولا يُحرِّمونَ مَا حرَّمَ اللَّهُ ورسولُهُ، ولا يدِينونَ دينَ الحقِّ مِنَ الذِينَ أُوتوا الكتابَ حتّىَ يُعْطُوا الجِزيَةَ عن يدٍ وهُمْ صاغرُونَ﴾. صدق اللّه العظيم.

- صدق اللّه العظيم.

- هذه الآية، أنزلها اللّه في سورة التوبة، حين كان رسول اللّه يحضّر لقتال الروم في غزوة تبوك. وسنحقق حلم رسول اللّه قريباً، بفتح بلاد الروم، مجدداً. لن نتركَ ديارَ الحربِ هذه، إلّا بعد تحويلها إلى دار الإسلام والسلام، بإذنهِ تعالى.

- لا فضَّ فوك يا أبا حمزة. صدقت، وأحسنتَ القول والفعل.

كان أبو حمزة يتكلّم بتركيّةٍ فصيحة. وحين قرأ الآية، أيضاً كانت عربيّته شديدة الوضوح في اللكنة ومخارج الحروف، بينما أبو جعفر، فكانت التركيّة التي يتحدّث بها مقبولة، ومفهومة، ومشوبة بالعربيّة.

لم تكد تمضي لحظات، حتى وقف رجال أمن القطار، وأمرا الرجلين بمرافقتهم، بعد أن أبرزا لهما بطاقاتهم الأمنيّة. أصيب الرجلان بالهلع، ولم تكن أمامهما فرصة الهرب، فاستسلما، ونزلا في محطة Brunswick.

«يبدو أن أحدهم اشتبه بهذين الرجلين فاتصل برجال الأمن في القطار. ولكن مَن؟ بالتأكيد لست أنا. ولا هؤلاء الثلاثة؛ الفتاة التي

تحمل كتاباً تقرأه، أو الشاب الملتهي بلفت انتباه الفتاة، أو هذا المسنّ الذي يغالبه النعاس؟!» قالها يورغن في نفسه، وصار همّه معرفة من أبلغ عن هذين الشخصين الخطيرين، أكثر من معرفة مدى خطورتهما، ومدى صواب الإبلاغ عنهما؟!

وسط العصف الذهني ومحاولة إيجاد إجابة على تساؤلاته، لم يعرفْ كيف داهمه النعاس سريعاً وثقيلاً فجأةً، لكأنّه لم ينم طوال أسبوع، فاختطفته غفوة؛ رأى نفسه في قطارٍ آخر، لا يعرفُ وجهته. قطار قديم مكتظّ بالناس، يتحدّث فيه المسافرون لغات مختلفة، يستطيع أن يميّز بعضها عن بعض، لكنه لا يفهم أيّاً منها. إلى جانبه فتاة رائعة الجمال، يمازحها ويداعبها، ويتحرّش بها، تقبيلاً وفركاً لركبتيها العاجيتين الناصعتي البياض اللتين تظهران من تحت تنورتها القصيرة، كبدرين مكتملين. وحين تصل يده إلى نهديها، تلتصق به الفتاة، وتحاول إزاحة يده ببطء، على أنها تمانع، لكنها تريد أكثر مما هو يريد. يسأل نفسه: من هذه الفتاة؟ لا هي زوجتي، ولا عشيقتي، لكنها منسجمة معي تماماً، كما لو أننا نعرف بعضنا منذ أمد، والعلاقة بيننا متطوّرة جدّاً؟! لا يستطيع تحديد الزمن؟ ومن خلال الملابس وتسريحات الشعر، خمَّنَ أنه في نهاية الستينات وبداية السبعينات. لكنه وقتذاك كان طفلاً في التاسعة أو العاشرة من عمره! كيف ذلك؟ مَن هي هذه الفتاة الجالسة بجانب النافذة، وهو ملتصق بها!؟ ذكر منبّهُ القطارِ أنهم وصلوا إلى محطة مدينة، لم يفهم اسمها، لكنها بكل تأكيد، ليست ألمانيّة. وسط المسافرين الذين يتّجهون نحو الباب للنزول، لاحظَ يورغن والدهُ بصحبةِ امرأةٍ تصغرهُ سنّاً، بملامح إسبانيّة وشعرٍ أسودٍ مجعّد، يلاطفها ويمازحها، ممسكاً

بيدها، وينحني عليها انحناءةً غير بريئةٍ أبداً، وبدت كأنّها عشيقته. كان سعيداً ومرتاحاً للغاية، وعيناه تبرقان حيويةً واشتهاءً، كأنّه شابٌّ في العشرين من عمره! نهض من مقعده بشكل عاجل، ونادى: «والدي. . والدي». فلم يسمع صوته أحد من المحيطين به، حتى الفتاة الجالسة إلى جوارهِ. لكن سمعهُ والدهُ، فابتسم له ورمقه بنظرة استغراب وتساؤل: «مَن هذا الذي يناديني والدي، ويحدّق فيّ هكذا؟!». أطلق الرجل ابتسامةً خفيفة أخرى تنمّ عن التجاهل والتوديع. جلس يورغن ولسان حالهِ الخيبة والخذلان والحيرة؛ لماذا لم يردّ عليّ؟ ومن تلك الفتاة التي معه؟ وهل يعقل أن والدي، ذلك المتديّن البروتستانتي، يخون زوجته مع عشيقة تصغره سنّاً؟!

سألته الفتاة: «ما بالك؟ لماذا نهضت؟»، أجابها: «لا، لا . . ، لا شيء يا روزالي. فقط اشتبهت بشخص أنه والدي». لكنه كان واثقاً تماماً أنه والده. ثم سأل نفسه: «لماذا أطلقتُ عليها اسم روزالي، وأنا لا أعرف من هي بالضبط؟!». بذلت الفتاة مجهوداً لإخراجه من الحيرة والشرود والخمول وإعادتهِ إلى حالته الأولى، حين كان عضوه مستنفراً، شديد الصلابة والانتصاب، حتى كان يخشى أن يمزق كلسونه والبنطلون أيضاً، معلناً عن تمرّدهِ وعصيانه. عودتهُ إلى مداعباته لم تكن بالمستوى السابق. لم تكد تمضي لحظات، وإذ بامرأةٍ تمسكُ يدَ رجلٍ آخر، وتقول له، دون خجلٍ أو اكتراثٍ بالمسافرين: «هيا الآن. . أريدك الآن. هيا إلى التواليت أو هنا، أمام الناس، وعليك أن تختار. لم يعد في مقدوري التحمّل والصبر حتى نصل إلى الفندق». والرجل يبتسم، ويحاول إقناعها بالهدوء والتريُّث. لكنها تفيضُ شبقاً واشتهاءً ورغبةً في ممارسة الجنس.

- إنها أمّي.. نعم، إنها أمّي!! غير معقول!! ماذا تفعل هنا؟ ومن هذا الرجل الذي تريد أن يمارس معها الجنس أمام الناس أو في تواليت القطار؟! سأل يورغن نفسه، بدهشة وحيرة وحزن وصدمة لرؤية أمّه في هذه الحال!

ألقت المرأة نظرة إعجاب بيورغن وجليسته، ورسمت بيدها اليسرى شارة الإعجاب، كأنّها تباركهُ على ما هو فيه! نهض وناداها: «أمّي.. ماما.. أنا ابنك يورغن». هذه المرّة، سمع الجميع نداءهُ، باستثناء أمّه التي استمرّت في جرجرة عشيقها إلى التواليت، كي يُطفئَ نيرانها.

صعقه ما رأته عيناه، كصدمةِ الطفل الذي يرى والده يمارس الجنس مع أمه، أوّل مرّة، فتسقط من عينه، ويحتقر والده على أنه يعذّبها ويهينها، ويعتبر تأوهاتها أنيناً ونداءات استغاثة من الألم! فيسأل نفسه: لماذا يعذّب والده أمه؟! ولماذا هي ترضى بذلك، وتضحك أحياناً وتتألّم، ثمّ تقبّله! أيضاً؟!

تشوّه صورة والدته وسقوطها من عينه في تلك اللحظة، لم يحولا دون نهوضه بسرعة متّجهاً نحو التواليت كي يمنعها من ممارسة الجنس مع ذلك الغريب الذي يصغرها سنّاً. وصار يطرق بشدّة وعنف باب التواليت. فمنعه رجل كان واقفاً هناك، وقال له:

- ماذا تفعل أيّها المعتوه!؟ ألا ترى الباب مغلقاً!؟ ألا تخجل من نفسك؟!

- «اخرس. أمّي هنا... و...». لم يستطع إكمال الجملة والقول: تمارس الجنس مع شخص غريب!

- لا شكّ أنك مجنون! أمّك!؟ زوجتي في الداخل، تغيّر حفاضة طفلي! هيا من هنا، قبل أن أرتكب جريمة!

فتح الباب وإذا بزوجة يورغن، غولبهار، تخرج من التواليت، وهي تحمل فيليب، طفل يورغن! وصارت تصرخ في وجهه: «لماذا تطرق باب التواليت يا غبي! هل فقدت عقلك؟! يا لك من شخص وقح وعديم الأخلاق!!».

- غولبهار! ماذا جرى لك؟! ومن هذا الرجل!؟ وأين أمّي!؟

- «لست غولبهار. وما علاقتي بأمّك». ثم اتجهت إلى زوجها وقالت: «ما بال هذا الرجل!؟ يا له من مسكين ومجنون! هل هو سكران؟ أم متعاطي مخدرات؟ هل هو تائه! وأضاع أمّه!؟ اتصلوا بالبوليس كي يعرضوه على طبيب نفسي؟!».

- ما هذا الكابوس؟! هل أنا في حلم!؟...

هجم عليها يورغن محاولاً أخذ طفله فيليب منها. ولكنه أحسّ بنقرات خفيفة على كتفه اليسرى. ولم يفتح عينيه فوراً. وشكر الربّ أنه فعلاً كان في حلم، حاول استرجاعَ كابوسه، قبل فتحه عينيه. لأنه لو فتحهما ودخل في كلام مع الذي ينقر على كتفه، ستزول تفاصيل الحلم من ذاكرته تماماً. بعد استحضاره تفاصيل الحلم الذي بدأ جميلاً، وانتهى كابوساً، فتح عينيه، وإذا بالفتاة التي كانت تجلس إلى جانبه ويتبادلان المداعبة، على أنها عشيقته روزالي، ولكنها في زيّ موظّفي القطار الذين يفتّشون تذاكر المسافرين. نظر إليها نظرة ارتياح مع إطلاق تنهيدةٍ عميقة، بينما ارتسمت على شفتيها ابتسامةٌ باردة ومحايدة كالتي يرسمها مفتشو القطارات أثناء تدقيقهم في تذاكر المسافرين. قال: «أهذه أنتِ، عزيزتي روزالي! أين كنت!؟».

- «نعم سيدي!؟ ماذا تقول؟! من هي روزالي؟! لستُ روزالي؟ أنا بيترا!». وابتسمت، واعتبرت الأمر عاديّاً، على أنه كان نائماً.

جحظت عيناه، وتخشّب جسده، وتساءل: «هل ما زلت في ذلك الكابوس؟!». نظر حوله وإذا به في القطار نفسه الذي استقلّه في برلين. حاول استرجاع نفسه، بعد أن لاحظ علامات الغرابة والاشتباه مرسومة على وجه الموظّفة!

- آسف سيّدتي. لا شيء... لا شيء، آسف.

- التذكرة من فضلك!

- تفضّلي.

أطلق المنبّه اعتذاراً على تأخّر وصول القطار إلى محطة هانوفر (Hannover) المركزيّة 10 دقائق. شعر يورغن بأنه متضايق ومحصور، ومثانته ممتلئة، وينبغي أن يذهب إلى التواليت لتفريغها. بعد عودته، توقّف القطار في محطة هانوفر. صعدت امرأتان، وبدأتا تنظران إلى بطاقتيهما وأرقام المقاعد الموجودة على حافة الرفّ العلوي، وعلى كتف المقاعد أيضاً، وتوقّفتا أمام المقعدين اللذين يقابلان مقعد يورغن. ابتسمتا كعادة المسافرين حين يهمّون بالجلوس، قُبالةَ مسافرين آخرين.

تبدو عليهما العناية بنفسيهما، من الملابس التي ترتديانها والعطر الذي تعطّرتا به. الأولى؛ في مطلع العقد السادس، وملامحها أقرب إلى النساء الفرنسيّات؛ ما زالت رشيقة، لا تضع مستحضرات تجميل، بخلاف النسوة في هذا العمر، اللاتي يحاولنَ تعويض

فقدانهنَّ جمال وجههن وجسدهن بالماكياج والملابس. والثانية؛ طويلة ممتلئة ومشدودة الجسد. كتفاها العريضتان ووركها العريض، تكفّلت بإخفاء القليل من وزنها الزائد. من الصعب تقدير سنّها، وبالكاد رؤية بعض التغضّنات حول الجفنين والشِّدقين والرقبة. شفتاها ممتلئتان، ومثيرتان. عيناها زرقاوان واسعتان. فيها كل المواصفات التي تجعل منها فرساً شقراء، مرهوبة الجانب، ومرغوبةً أيضاً. فكّتِ الربطة التي تحكمُ القبض على شعرها الأشقر المتوسّط الطول، خلف رأسها، وهزّت الرأسّ يميناً ويساراً بسرعة، فتناثرَ الذهبُ على الكتفين العريضين وعلى المقعد، وانسدل القليل منه على الصدر أيضاً. قالت الأولى:

– كم أنا متعبة. لم أنم ليلة أمس. واستيقظتُ اليوم باكراً. ومع ذلك، يجب أن أقرأ بعض خلاصات الكتب التي أرسلها إليَّ الناشر الذي أترجم له الكتب الأدبيّة من الإنكليزيّة والفرنسيّة إلى الألمانيّة. وعليّ كتابة تقارير للناشر، حول كل عمل وأهميّتهُ فنيّاً ولغويّاً والأفكار التي يطرحها ويعالجها، بعد إجراء جولة حول ما كُتب عن هذه الرواية. يعني، تقرير مفصّل، أكون فيه ناقدة وصحافيّة، قبل أن أكون مترجمة. هذا الناشر حريص للغاية على جودة الكتب التي ينبغي ترجمتها وتقديمها للقارئ الألماني. لا يتعامل وفق منطق وهج وبريق الأسماء المتداولة والمكرّسة، أو وفق العلاقات الشخصيّة، ومزاج المترجم أو المترجمة. لأنه في الأصل أديب وناقد، قبل أن يكون ناشراً. وسبق أن اقترحت عليه ترجمة رواية كاتب سوري، ترجمت أعماله إلى الفرنسيّة والإنكليزيّة والروسيّة والهولنديّة. فلم يأخذ فوراً برأيي، وأعطى الملفّ لمترجمين آخرين، طبعاً ليسا

عربيين، من سوريا أو لبنان أو من شمال أفريقيا، مِمَّن يتعاملون معه. وكان حكم المترجمين على هذه الرواية السوريّة سلبيّاً، وأن مضمونها من حيث الأفكار والأحداث وبناء الشخصيات جد عادي، ومنسوب الدهشة والإمتاع في الرواية ضحل. حتّى أن أحد المترجمين كان متحاملاً وقال: «الكاتب يحظى بشعبيّة مبالغ فيها، لا تتوازى مع القيمة الفنيّة لروايته هذه». لم يكتفِ الناشر بتقريري المترجمَين، بل قرأ العمل بنفسه، لئلا يحسّ بالذنب على أنه ظلمَ الروايةَ وصاحبَها، فخلص إلى النتيجة نفسها، ورفض ترجمة الرواية إلى الألمانيّة وطباعتها وتوزيعها في دارهِ. وكتب اعتذاراً عن ذلك، مع تقديم المبررات.

- وأنت، لماذا اقترحتِ عليه ترجمة هذا العمل؟! هل قرأتهِ؟ هل تعرفين الكاتب؟

- طبعاً قرأتُ الترجمتين الإنكليزيّة والفرنسيّة. أعتقد أن الترجمة الإنكليزيّة كانت أكثر جودة من الترجمة الفرنسيّة. لا أعرف الكاتب عن قرب. التقيت به هنا في هانوفر، حين نظّم له بعض السوريين حفلاً لتقديم عمله الجديد، أظنّ أن عنوانه كان «ركام مسافر» أو «حطام مسافر» أو شيء من هذا القبيل. قبل تلبية الدعوة، أجريت بحثاً عنه في غوغل، فوجدتُ أنه مشهور في العالم العربي. عرفَ أنني مترجمة أدبيّة إلى الألمانيّة، فأهدى إليّ نسخة من الترجمة الإنكليزيّة من روايته. واقتنيت الترجمة الفرنسيّة، كنوع من الدعم له، وقرأتُ الترجمتين. بالنسبة إليّ الرواية جيّدة، وتستحق القراءة والترجمة إلى الألمانيّة، كما ذكرتُ لكِ.

ولكن، لا أخفيك، أحياناً، هناك ما يشبه الفساد في العلاقة بين

الأدباء والمترجمين. إذ يتفق الكاتب أو الكاتبة مع المترجم أو المترجمة على دفع مبلغ، إذا نجح اقتراح ترجمة كتابه إلى لغة أجنبيّة، بحيث يأخذ المترجم أتعاب الترجمة، ويأخذ الكومسيون من الكاتب، وربما أحياناً نسبة من المبيعات بعد صدور الكتاب مترجماً، من مستحقات الكاتب.

أوووف. . ، العلاقات الشخصيّة والفساد موجود في كل مكان، حتى في حيّز الترجمات الأدبيّة أيضاً. فالكاتب هاجسه أن تُتَرجَمَ أعمالهُ وتصدر بعدّة لغات، بينما المترجم، أحياناً، هاجسه المردود وأتعابه في الترجمة والوساطة بين المؤلّف والناشر.

أخرجتْ من حقيبتها رزمة من الأوراق قياس (A4)، وقالت: «هذه الملفات لثلاث روايات؛ نبذة عن الكاتب، نبذة الكتاب، وخلاصته، و20 صفحة من كل رواية، أرسلها لي الناشر، وطبعتها ليلة أمس. وعدته بكتابة تقارير عنها خلال موعد أقصاء 10 أيام. بعد عودتي من بروكسل. ولكن يجب أن أتوقّف في دورتموند (Dortmund) يومين لزيارة أختي، ثم ألحق بكِ في بروكسل، كما اتفقنا.

امممم، ماذا أختار؟ سأختار الآن قراءة هذا العمل لروائيّة باكستانيّة اسمها روكسانا نجيب قديمي، إنها ممثلة ومخرجة سينمائيّة وكاتبة مشهورة في بلدها. عنوان روايتها طويل، غريب ولافت؛ «المسيح الذي مات ونجا من الحياة»».

– واو. فعلاً عنوان غريب، واستفزازي، يحرّض على القراءة. صحيح أن هناك روايات عديدة اقتبس مؤلّفوها جوانبَ من قصّة المسيح، كي يبنوا عليها روايات أخرى، مختلفة أو مناقضة للسردية

الدينيّة، وجاء ذلك في عناوين رواياتهم أيضاً، مثل؛ «أنا يسوع» للفرنسي جيلبير سينويه، و«المسيح يصلب من جديد» لنيكوس كازانتزاكيس، وروايات أخرى، إلّا أن هذا العنوان مثير ولافت حقّاً! أعجبني العنوان! حال انتهائكِ من الخلاصة، دعيني أقرأها.

قالت السيدة الفرس التي تفيضُ على المقعدِ أنوثةً وفتنة.

- وأنت؟ ماذا ستفعلين؟. سألت صديقتها.

- «سأحاول مشاهدة فيلم. لقد نزَّلتُ مجموعة أفلام على اللابتوب». فتحت الكومبيوتر، ووضعت سماعتين صغيرتين في أذنيها، وبدأت المشاهدة.

كان يورغن يشغل نفسه أحياناً بموبايله، بينما يختلس النظر إلى جسد وكنوز ومفاتن هذه السيّدة - الفرس، وأحياناً يتصنّعُ النظرَ من خلال النافذة، ولكنه يصيخ السمع إلى كلام السيدتين وهما تتكلّمان بالإنكليزيّة. ولكن كيف له أن يضبط فضوله حتى ينتهي الصمت، ويعرف فحوى خلاصة رواية الكاتبة الباكستانيّة؟!

بعد دقائق، عبّرت المرأة عن إعجابها: «واو... يا لها من بداية!! بداية مهمّة وجميلة جدّاً». وأشارت إلى صديقتها بتركِ مشاهدة الفيلم الذي اختارتهُ، وقالت: «تعالي نقرأها معاً، وأريد رأيك فيها أيضاً».

- أمامنا رجل، ربما ينزعج من القراءة؟

- سأقرأ بصوت منخفض.

هنا، خاف يورغن ألّا يصله الصوت. فاضطر للتدخّل والكلام بالإنكليزيّة مبتسماً: معذرة سيدتي، لا يوجد أي إزعاج. أنا أيضاً أريد الاستماع.

نظرت الصديقتان إحداهما إلى الأخرى بدهشة، وعرفتا أن كل كلامهما كان مسموعاً ومفهوماً من قبل هذا الرجل الذي ظنتا أنه ربما لا يفهم الإنكليزيّة، أو لا يجيدها.

فابتسمتا وبدأت إحداهما القراءة:

لستُ آسفةً على ما مضى من عمري، ولن أتأسّف على المتبقّي منه. هذه الفوضى الأزليّة والجنازة الأبديّة التي تسمّونها الحياة، علّمتني أنه ما مِن امرأةٍ إلّا وتعاني من التوحّد والاكتئاب. وما مِن امرأةٍ إلَّا وتدمن الثرثرة مع نفسها، ومع الشوارع والمدن، ومع البراري والطيور والحيوانات، حتّى وهي في أوج عزلتها. ما مِن امرأةٍ إلّا وتنتظرُ شيئاً، لن يأتي أبداً! ما مِن امرأةٍ إلّا وهي ضحيّة من ضحايا مراهقاتها الأبديّة. ما من امرأةٍ إلّا وهي قطّةٌ شاردةٌ أو كلبةٌ عجوزٌ شريدة، أو فجرٌ متصدّعٌ شريدٌ مثخنٌ بالجراح، أو جدولٌ شاردٌ في ملكوتِ العشق والأحزان.

لست أدري من يحدّق في عينَي الآخر؛ أنا أم الليل؟! لستُ أدري من يريد الثأر من الآخر، أنا أم الحزن؟! ومن يريد مؤاخاة الآخر، أنا أم الموت؟!

لا تأخذوا كلامي على محمل الجد، أو اليأس أو التمهيد للانتحار. فمن تعيش مراهقة أبديّة، وتدمنُ الثرثرة مع نفسها، ومع الجهات، هي نديمةٌ لدودةٌ لهذا الشاعر العظيم الذي تدعونهُ الموت، وخصمةٌ لدودةٌ لهذه الشاعرة العظيمة التي تسمّونها الحياة.

لست آسفة على عمري الذي مضى، ولن آسفَ على المتبقي من آثامي التي سأقترفها بحق نفسي والآخرين. كأنني بحرٌ مُلثّم، حين

يصابُ بالحمى، لا يداويه شيء، كما تداويه الكتابة. بحرٌ زاهدٌ في الدنيا، أو هذا ما يقوله عن نفسه، أكثر ما يفضحهُ، حنينهُ إلى ماضيهِ، حين كان جدولاً صغيراً.

ما من شيء يداويني، حين أصاب بالاكتئاب، أكثر من التحرّش بالماضي، وإثارةِ رمادهِ، لعلّي أجدُ تحتهُ جمرةً غافية. لذا، لا غرابة في أن تكون جمجمتي مكتظّة بالقصص، القصائد، الأوطان، المنافي والثورات... ولم يعد فيها متسع لأحد، إلا لمسيحٍ واحد، مات ونجا من هذه الفوضى الأزليّة والجنازة الأبديّة التي أعيشها وتعيشونها، ونسمّيها الحياة.

كما قلت لكم، ولن أكرر: لا تأخذوا كلامي على محمل الجِدّ. ولا تأخذوه على محمل المزاح. هي هلوساتٌ، لا أكثر. هي خيباتٌ وخسارات، لا أقل، ولا أكثر.

* * *

بقيتُ صامتةً وفي حدادٍ غير معلن، طوال 20 سنة، رغم صخب حياتي المليئة بالأحداث والمفاجآت والأمكنة والسفر، والنتاجات الثقافيّة. مؤخّراً تشكّلت لدي قناعةٌ مفادها: لا شيءَ يزيدُ من وطأة الحداد والحزن أكثر من كتمانهما. الكتمان قيدٌ مشدودٌ على الخيال والفكر والروح، يخنق الأنفاس ببطء. ولا شيء يكسر الحزن والحداد، غير الإفصاح عنهما. ما من شيءٍ في هذه الحياة، يستحق الكتمان. نعيش الحياةَ لا كي نكتمها، وإلّا كتمتنا الحياة أيضاً. في لحظاتٍ كثيرةٍ، شعرتُ بالرغبةِ اللحوحةِ في الصراخ عبر الكتابة، عن هذا الحبّ الكبير الذي وهبتني إيّاه الأقدار فجأةً، واختطفته منّي فجأةً. ما من حزنٍ كبيرٍ وإلّا يخفي خلفهُ حبّاً أكبر. ثقوا بذلك. ها

هي تلك اللحظة تراودني مجدداً، ولن أمنع نفسي، كما كنتُ أفعل سابقاً، ولن أسمح لأيّ شيء بالحوؤل بيني وبين الكتابة. هذه الحكاية يجب ألّا تذهب معي إلى تحت التراب البارد. سأصبحُ يوماً ما تراباً، كما ستصبحون أنتم أيضاً، ولكن يجب أن تبقى هذه الحكاية شاهدةَ قبري، يمرّ بها الناس، ويقرأونها، أو يتجاهلونها. يجب أن يبقى حبّي هنا، ملكاً للناس، حين أصبحُ هناك في بعيد البعيد.

مرّت هذه السنوات وكأنّها عشرون دهراً، فكّرتُ فيها مراراً بالانتحار واللحاقَ بحبّي الأوّل العظيم الذي أطفأته الرمال. ذلك الحبُّ الذي عصفَ بي، وغمرني فجأةً وأنا فراشةٌ لم تغادر بعد شرنقة المراهقة. غادرني فجأةً، بعد خيبةٍ وانتكاسة، ثمّ عاد إليَّ وأعادني للحياة، وأعاد الحياة إليّ، ثم غادرَ مرّةً أخرى، وأيضاً فجأةً، ولم يعد أبداً. غادرني، قبل أسبوعين من الزفاف. ما أبشعكَ أيّها الموت، ما أبشعكِ أيّتها الحياة، حين تتواطآن على اغتيال حلمِ عروسين!

كان مقرراً أن نُزَفَّ في عمّان، حيث يعيش والداه وإخوته، وذلك في يوم 21 أبريل/نيسان 1992. ولكن الأقدار والعواصف والرمال، في اليوم الثامن من الشهر نفسه، كانت لها كلام وقرار آخر، أطاح بكل أحلامنا.

أنا الآن وحدي، لا يقاسمني أحد ليلتي هذه؛ 8 أبريل/نيسان 2012، غير الماضي وذكرياته الأليمة. عليكِ أن تكوني راعية غنمٍ وماعز، ومروّضةَ نمورٍ وأسود، وراقصةَ باليه، وناسكةً في صومعة، ومحاربةً في جيش الفقراء، وعازفةَ بيانو أو ناي أو كمان. . . ، حتّى يمكنكِ تحمّل ما عشتهُ وعانيته في حياتي، يا من تقرأينني الآن.

حين التقيتُ به في بيتنا بـ«لاهور»، أوّل مرّة، كان عمري 17 سنة، صبيّةً مقبلةً على الحياة، للتوّ تكتشف نفسها، وتسعى لأن يكون لها صوت وظل وبصمة وشخصيّة، وسط هذا الزحام المتدفّق من الأزل وإلى الأبد. بينما كان هو في الثانية والعشرين من عمره، شابّاً فلسطينيّاً أنيقاً، خجولاً، هادئاً ووقوراً، جاء لدراسة الطيران في باكستان. كان ذلك سنة 1976.

والدتي الثوريّة والتقدّميّة، شجّعت دوماً الكثير من الطلاب التقدّميين الأجانب على القدوم إلى منزلنا؛ أفارقة، شرق أوسطيين وجنوب آسيويين. وكان للفلسطينيين وضع ومكانة خاصّة، بين هؤلاء الأجانب. كذلك كانت لدى باكستان علاقات قديمة وجيّدة بهم، وساندتهم في حروبهم ضد إسرائيل، واستقبلت بعثة منظمة التحرير الفلسطينية في كراتشي سنة 1960، واعترفت بالمنظمة ممثلاً للشعب الفلسطيني سنة 1974. أظنُّ أنه بعد حرب 1973، وافقت باكستان على تدريب ضبّاط فلسطينيين في المدارس والمعاهد العسكريّة الباكستانيّة، وكان وجوده لدراسة الطيران في هذا الإطار. هذه الأمور لم أكن أعرفها بهذه التفاصيل. وحتّى لو عرفتها، ما كانت تعني لي شيئاً وقتذاك، لأنني كنت خاضعةً لتأثير سحرهِ؛ بهيُّ الطلعة، مترعٌ بالحماس والاندفاع والثقة بالنفس، وتتوفّر فيه الكثير من شروط وخصائص فارس أحلام أيّة فتاةٍ مثلي، كانت ترفض أنها مراهقة. فلم أجد نفسي إلّا منجذبة إليه، كانجذاب زهرة عبّاد الشمس للشمس، أيممُ وجهي حيث يتّجه، بلهفةٍ وإعجاب، وخجلٍ أيضاً. لم أكن أفهم كثيراً القصص التي يحكيها لي، لكنني كالصنم أمامَ صوته الرائع، أتابعُ طريقته في السرد وحركات يديه، وملامح وجهه. حدّثني عن

طفولتهِ المعذّبة والمتشرّدة، وكيف أجبرَ الإسرائيليون أسرته على النزوح من مدينته أريحا، وقطعوا الطرق والدروب سيراً على الأقدام، وعبروا جسر «ألنبي» على نهر الأردن الذي يوصل الضفة الغربيّة بالأردن، في حرب 1967. كان وقتها يبلغ من العمر 13 سنة. حدّثني بغزارة عن كل شيء في حياته؛ يتحدّث ويتحدّث ويتحدّث. . .، بينما أنا مجذوبة وبل مفتونة به، ولا أقوى إلّا على الصمتِ والإنصات. اعتبرتهُ كتاباً مفتوحاً أمامي، لا أفهم الكثير مما هو مكتوبٌ فيه، ولكن سأفهم يوماً ما، الأمور التي أجهلها من مضمون هذا الكتاب. هكذا كنت أقنع نفسي أثناء الاستماع لأحاديثه، من دون مقاطعته، للاستفسار عن أمور أو معلومةٍ لم أفهمها! وأمام حجم المعاناة التي عاشها في طفولته، خجلتُ من الحديث عن طفولتي التي كانت ترفاً وبذخاً لا يمكن مقارنته بمعاناته مطلقاً. فتاةٌ درستْ في المدرسة الأمريكيّة في «لاهور»، وغير محرومةٍ من شيء. ورغم الأجواء المحافظة، كنتُ ألعبُ كرة قدم كالصبيان. أذكر أوّل مرّة ظهرتْ فيها ساقاي وأنا أرتدي ملابس الرياضة!

لم أكن أسأل نفسي: لماذا يريد هذا الشاب أن يطلعني على تفاصيل ماضيه وحاضره؟ لماذا يختلق الأسباب للحديث معي والتقرّب منّي؟ لماذا يريد مجالستي لساعاتٍ وساعات، من دون وجود أسباب مقنعة؟ أعرفُ أنني أحبّه، ولكن لم أكن واثقة من سبب محاولاته التقرّب منّي. لم أبدِ له أيّ شيء يُشعره بأنني أرفض التواصل معهُ، أو أنني متذمّرة من أحاديثه. على العكس من ذلك، كان يقرأ في ملامحي وتفاعلي الكثيرَ من إشارات الإعجاب والحثّ على متابعة التواصل.

فيما بعد، عرفتُ أنه يبادلني المشاعر. كفتاةٍ مسلمةٍ وباكستانيّة، صحيح أنني تربّيت ضمن عائلة تقدّميّة، إلّا أنني كنتُ حذرة أن أفصح له عن حقيقة مشاعري تجاهه. خائفة جداً من البوح له بحبّي، خشيةَ أن أتفاجأ بأنه مرتبط، فيرتدّ عنّي، وأصاب بانهيار وسقوطٍ مدوّ في قاع الخيبة والندم والانكسار. آثرتُ الصمتَ والاحتفاظَ بلذّة الحبّ من طرفٍ واحد تجاهه، على احتمالِ أن أفقدَ هذا الحبَّ إلى الأبد. وأتى ذلك اليوم الذي قال فيه: «روكسانا، أحبّك». شعرتُ أنني أصبتُ بالصمم تماماً. ولا أقوى على الكلام، وأنني فقدت وزني تماماً، وما عادت قدماي تلامسان الأرض، كأنني ريشةٌ أو فراشةٌ تعبثُ بها النسائم. كاد يغمى عليّ. انتابتني رعشةٌ مجهولةٌ تسري في عروقي، كموجاتٍ خفيفةٍ وناعمة، باردةٍ ودافئة، لذيذة وواخزة. رعشةٌ أكثر متعة ولذّة وعمقاً من الأورغازم. لم أتمالك نفسي. ابتسمت، واغرورقت عيناي بالدمع، وأنا أنظر إليه بدهشةٍ ووله وعتب، وقلتُ في نفسي: وأخيراً نطقتها أيّها الأحمق. بعد سنتين من التواصل وكل تلك القصص والسرديات التي قلتها؟! لم أجد نفسي إلّا مرتمية في حضنه! أبقاني على صدره، وصار يطبطب بيديه على ظهري، لكأنّهما يدا ملاكٍ تباركان جسدي، تخترقان ظهري، وتدغدغان شغاف قلبي، وتلامسان روحي. شعرتُ أنني أغرقُ فيه، وهو يغوصُ فيَّ. لحظاتٌ تعجزُ طاقةُ الخيال والكلامِ المجازي والحقيقي عن وصفها. ثم حاول انتشالي مما أنا فيه، وبدأ برفعي رويداً عن صدره، ومسح أدمعي، وعلى وجهه علامات الاستغراب والقلق من أن بوحهُ ربما أحزنني، وأنني مرتبطة بشخص آخر، لذا بكيت! وحين وجدني أتأمّل وجهه، وأهزُّ رأسي، وأشير بإصبعي

نحوي، كشخصٍ أبكم وأصمّ لا يقوى على النطق، بأنني أيضاً أبادله الحبّ، جنَّ جنونهُ، فحملني على ذراعيه، وصار يدور حول نفسه، لدرجةٍ كاد يسقط، لفقدانه التوازن، فصار يلتصق بي أكثر، وأنا على ذراعيه، كي يحمي نفسه من السقوط. كذلك ذراعاي مشدودتان خلف عنقه. كان يريد تقبيل شفتي، فتمنّعت، وخفتُ من المزيد، وتركتها للقاء آخر.

صرنا نعرف تماماً حقيقة مشاعرنا تجاه بعضنا. وسط هذا الالتهاب اللذيذ الممتع، مضتِ السنوات، كأنّها لحظات. أنهى دراسته، وعاد للأردن، واتجهتُ للدراسة في جامعة كولومبيا في نيويورك. عائلتي كانت ميسورة ويساريّة في آن، نصحتني بالدراسة في بلاد الرأسماليّة والامبرياليّة، بدلاً من التوجّه إلى الاتحاد السوفياتي أو دول المنظومة الاشتراكيّة.

كان أهلي على ثقة بأنه سيطلبني للزواج فور إنهائي الدراسة. وهذا ما اتفقت عليه معه. أثناء زياراته لأمريكا، في إطار عمله الثوري في منظمة التحرير، كان يسترق نفسه، ويزورني فجأةً في نيويورك، من دون أن يخبرني عن سبب وجوده في أمريكا. لم أكن فضوليّةً كي ألحّ عليه بالسؤال. المهم بالنسبة إليّ أنني أراه، وكفى. بدأتُ أحسُّ بشيءٍ من الغموض يكتنف شخصيّته.

في منتصف مايو/أيّار 1982، وبينما كنتُ أرتّب عودتي لباكستان، زارني، وقال لي، بألمٍ وكدرٍ وحرقة، ذلك القرار الصادم، بأنه «لا يمكنه توفير الأمان والاستقرار لي ولحياتي، وليس أمامنا سوى الافتراق». من دون ذكر الأسباب، وما الذي استجدّ حتى يقول هذا، وجعله يتخذ قرار الافتراق؟! كنتُ مذهولة ولم أفهم

كلامه للوهلة الأولى، وماذا يقصد!؟ سمعتُ كلامه، كَمَنْ تقفُ على حافة سطح ناطحة سحاب، وجرّها أحدهم إلى الخلف، وإذا بها تسقط في هاويةٍ سحيقةٍ لا قرار لها. لم أشعر بنفسي إلّا في المستشفى الذي أوصلني إليه، وغادرني كحلمٍ وردي، بددته لحظةُ يقظةٍ مفاجئة وغادرة. اختفى تماماً. غادر حياتي وتركها منكوبةً وأنقاضاً. غادر ولم يترك أي أثر. حتى أنني ظننتُ أنه كان شبحاً أو طيفاً جميلاً، ولم يكن حقيقةً دامغةً وأليمةً ورائعة! بعد مضي أشهر من اليأس والإحباط والألم، صرتُ أسأل نفسي: كيف لي أن أخرج من بئره؟ بئر حبّه؟ الذي أوقعني فيه، كيف؟! لا البكاء ينفع؟ ولا الحزن يفيد! ولا الكتابة تواسيني! لم يكن أمامي سوى الدخول في مغامرة زواج، والقبول بأوّل رجل يتقدّم إليّ، سعياً وراء النسيان. اتجهت للكتابة والسينما والتفلزيون، وصرت شخصيّة عامّة ناجحة. لكنني فشلت في أوّل تجربة حبّ. أمّا هو، فبقي أعزبَ، منهمكاً في أعماله وانشغالاته الثوريّة. كانت لديه قضيّة، ربما أحبّها أكثر منّي. هكذا ظننت. كنت أعلم بأنه عضو في حركة «فتح»، ولا شيء أكثر من ذلك. وعرفت في ما بعد أنه لم يشأ أن يجعلني أعيش في رعب وذعر الملاحقة والقلق على حياتي باعتباره يرافق عرفات في رحلاته الجويّة. وأنه هدف دائم للمخابرات الإسرائيليّة. خاصةً بعد حرب إسرائيل على لبنان في يونيو/ حزيران 1982، وخروج منظمة التحرير من لبنان إلى تونس.

ورغم أجواء وظروف الحرب التي كان يعيشها في حينه، كلما سنحت له الفرصة، كان يتابع أخباري ويسأل عنّي الأصدقاءَ المشتركين بيننا. أمّا أنا، فأجهلُ عنه أيّ شيء، لكأنّه ضرس ملحٍ

وذاب في مياهِ المحيط. أوصى الأصدقاء المشتركين، خاصة الفلسطينيين منهم، بألّا ينقلوا لي أيّ شيء عنه، مهما ألححتُ عليهم. ولم يحاول الاتصال بي مطلقاً، بعد انتهاء الحرب في لبنان. ربما لأنه ما كان يريد أن يفسدَ عليّ علاقتي بزوجي، والتشويش على حياتي، لأنه يعرف مدى تعلّقي به. لكن، حتّى وأنا على ذمّة رجل آخر، لم يغادر تفكيري وخيالي أبداً. كنتُ أسأل نفسي: أين هو الآن؟ هل هو حيٌّ أم ميّت؟! سعيد؟ أم حزين؟ هل تزوّج؟ وصار لديه أولاد؟ ما شكل زوجته وأولاده؟... وأسئلة سخيفة أخرى، لا حصر لها، كانت تخطر على بالي.

فشلتُ في زواجي الأوّل. زواج الهروب من مرارة وقسوة الواقع. ولأني وطليقي من الشخصيّات العامّة والمشهورة، نشرتِ الصحف والمجلّات خبر انفصالنا. وأثناء تواجد أحد أصدقائه في عيادة طبيب كويتي، قرأ في مجلة فنيّة، كانت موجودة على طاولة غرفة انتظار المرضى، قرأ خبر انفصالي عن زوجي، ونَقَلَ لهُ ذلك. شعرَ أن الطريق أمامهُ صارت سالكةً، فحاول التواصل معي مجدداً. كان ذلك بداية عام 1990، حين اتصلَ بي عبر الهاتف، وقال: «مرحباً روكسانا. أنا في لاهور. وأريد رؤيتكِ. متى يمكنني ذلك؟». ومع ملامسة صوته مسامعي، سيطرت عليَّ مشاعر الغضب والفرح والذهول والدهشة، وشعرتُ أنني أطفو على الماء. حاولتُ استعادة نفسي، وكيلا أظهرَ هشّةً وضعيفةً أمامهُ، افتعلتُ التجاهل وسألته: «من معي، من فضلك؟!». بالكاد خرجَ الصوتُ من حنجرتي ركيكاً مرتبكاً مهزوزاً وحذراً. أجابني بصوتهِ المفعم بالثقة والفرح دائماً: «لا أظنُّ أنكِ نسيتِ صوتي. أنا الحبيبُ السابق،

والحبيب الحالي، والحبيب الأبدي، سأزورك مساء اليوم، في السادسة تماماً». وسط الخمول والدهشةِ والذهول، وكأنّ الزمن يجري بطيئاً، أجبتهُ: «أهلاً». وماذا في وسعِ عاشقةٍ فعلهُ، غاب عنها حبيبها فجأةً، وها هو عائدٌ إليها فجأةً، وهي للتوّ خارجةٌ من تجربة زواجٍ فاشلةٍ ومؤلمةٍ أيضاً؟

وسط لجج الأفكار والهواجس والذكريات تلك، لا يمكنني إنكار أو إخفاء سعادتي العارمة وفرحتي الهائلة، بعودته. بدأتِ الثواني والدقائقُ تمضي كأنّها سلاحفُ عملاقةٌ تدهسني، وتمرّ. وأتت تلك اللحظة التي وقعت فيها عيناي عليه، بعد فراق سنوات. فرحتي كانت عارمة وفادحة. فرحةُ سفينةٍ تائهة في عرض بحرٍ مجنونٍ متلاطم الأمواج، حين تلحظُ بصيصَ اليابسة في الأفق. بل فرحةُ مدينةٍ وهي تستقبل نبيّاً مُنقذاً من الضياعِ والضلال. عدتُ إلى ما كنتُ عليه، أثناء لقاءاتنا الأولى، وأنا في السابعة عشرة، صامتة ومنصتة ومتأمّلة إيّاهُ، وهو يسرد ويسرد، يحكي ويحكي، وأنا شاردة ومنبهرة! يحاول أن ينقل لي كل ما مرّ به في تلك السنوات.

آلامُ الفراق والهجران صارت نسياً منسيا، بالنسبة إليّ. أصلاً، لم يكن لدي وقتٌ أضيّعهُ في العتاب وطرحِ الأسئلةِ حول ما جرى؟ ولماذا؟، وكيف؟، حين شرح ظروفه القاسية وطبيعة عمله كضابط في منظمة التحرير الفلسطينيّة. لكنه، حتّى تلك اللحظة، لم يخبرني أنه الطيّار الخاص لياسر عرفات. وأن حياته في خطر دائم، وأنه يمكن للموساد الوصول إليه وقتله. أكّدَ لي أنه لم يشأ لي أن أترمّل باكراً، وأرتدي الحداد عليه في أيّة لحظةٍ، إذا تزوجنا. وأنه اتخذ قرار الابتعاد عنّي، كمن يطلقُ النار على رأسهِ، لأنه كان يحبّني، وكي

أكون في منأى عن أيّ أذى نفسي أو جسدي، إذا ما أصابه مكروه. ولم يكن أمامي خيار إلّا تصديقه، والاقتناع بكلامه.

استعاد الحبُّ بيننا فيضَ لهيبهِ السابق، وبل زادهُ أكثر. وصارت علاقتي به معروفة لدى قيادته أيضاً. التقيتُ الزعيمَ ياسر عرفات في تونس سنة 1991. كان منهمكاً ومشغولاً جداً. رحّب بي وصافحني. بدت عليه علامات الحزن والإعياء والقلق، كالتائه الذي يبحث عن مخرج من مأزق هو فيه. قال عرفات: «لقد خطفتِ قلب أحد ثوّارنا وضبّاطنا الأكفّاء، قلبَ هذا النسر. ويجب عليكِ المحافظة عليه». شعرتُ بالخجلِ والرهبةِ، وبشيءٍ من الفخرِ أيضاً.

مضت الأيّام والأشهر، ومع بداية عام 1992، اتفقنا أن ننهي هذا الماراثون في عمّان، يوم 21 أبريل، بحيث يكون الزفاف بين أهله وإخوته، ونستقرّ هناك. كان ينوي تشكيل أسرة صغيرة، تكون بمثابة الوطن الصغير الذي لطالما حلم به. كل المؤشّرات كانت في اتجاه أن هذا الحلم على وشك التحقق.

يوم 8 أبريل، كنتُ في «لاهور»، أشتغل على فيلم وثائقي، بحكم عملي في السينما والتلفزة. القنوات الفضائيّة، ما كانت منتشرة بعد، كما هي الحال الآن. كنّا نمتلك أجهزة تلتقط إشارات بثّ محطّات أمريكيّة تبثّ لقوّات الأسطول الأمريكي البحري السابع، في منطقة الخليج. الجو الصافي كان يساعدنا على التقاط إشارات بثّ (CNN) بشكل مقبول.

أثناء عودتي للبيت، رأيت العاملة الكشميريّة التي تعمل في بيتنا، مذعورة وتبكي، وأخبرتني أن أمراً مؤسفاً وجللاً حدث. سألتها: ما هو؟ أجابت: يبدو أن الزعيم الفلسطيني أصيب بمكروه.

فتحتُ التلفزيون الباكستاني، فلم أجد شيئاً، ثم انتقلتُ فوراً لقناة (CNN) ورأيتُ المذيع الأمريكي ينقل خبرَ؛ أن طائرة ياسر عرفات المتجهة من السودان إلى تونس، اختفت عن الرادار في الصحراء الليبيّة.

انقبضَ قلبي، وانتابني قلقٌ وتوجّس على سلامة الزعيم الفلسطيني، الذي التقيت به قبل عام. وصرت أنتقل بين إذاعة (BBC) وقناة (CNN) وقنوات أخرى، وتضارب التحليلات حول اختفاء الطائرة عن الرادار، فمنهم من يقول: إنها سقطت! وآخرون يقولون: إن إسرائيل أسقطتها! ومنهم رجّح احتمال الخطف! وتزايدت التكهّنات والتحليلات حول الحدث. كل الإذاعات وقنوات التلفزة بدأت تتحدّث عما جرى.

في اليوم التالي، اتصل بي أحد الأصدقاء، وسأل عن عمرِ خطيبي، ومع استغرابي من السؤال، أجبت 38 سنة!؟ فردّ عليّ: «الحمد للّه، ليس هو!». حاولت الاستفسار منه مستغربةً: «لماذا تسأل؟» أجاب:

- ألا تعرفين؟

- حقاً، لا أعرف عمّا تتحدّث؟!

- الطائرة التي سقطت أمس في الصحراء الليبيّة، اسم قائدها مشابه تقريباً لاسم خطيبك. وعمره 48 سنة. ولكن الحمد للّه، ليس هو. تحدثُ أمور كهذه، تشابه في الأسماء وأشياء من هذا القبيل. تحياتي. ألقاكِ على خير.

أغلق سماعة الهاتف. فازداد قلبي انقباضاً، وصرت أحاول إقناع نفسي أنه بالفعل، يحدث أحياناً تشابه في الأسماء. ولكن الطيّارين

الفلسطينيين كانوا قلّة! أيعقل أن يكون هناك تشابه في الأسماء بين أفراد مجموعة صغيرة من الطيّارين الفلسطينيين، بعدد أصابع اليد، كانوا يدرسون الطيران في باكستان؟! «لكنهُ لم يخبرني أنه الطيّار الخاصّ لعرفات؟! لا، ليس هو! مستحيل أن يكون هو! هذا الطيّار عمره 48 سنة! هناك فارق 10 سنوات!».

بدأ الخوف والقلق يزدادان، ويضيّقان الخناق عليّ، وكأنّ حبلاً يشتدُّ حول عنقي. ليست لدي أرقام هواتف محددة يمكنني الاتصال بها، كي أعرفَ الحقيقة. بمَن أتصل؟ وكيف؟ عائلته لا تتحدّث الإنكليزيّة، وأنا لا أعرف من العربيّة إلّا ثلاث أو أربع كلمات! لا أعرف رقم سفارة فلسطين في إسلام أباد! حائرةٌ وقلقة، تائهة ولا أعرف أين أتجه؟! تذكرتُ مكتب الاتصالات في المطار، كان يتصل بي من هناك أحياناً. لا فائدة. اضطررت للاتصال بأسرته، وكررتُ عبارة واحدة فقط، كنت أقولها أحياناً، أثناء اتصالاتي بهم «مرحباً. أنا روكسانا. أين أحمد؟». فأجابتني سيدة، ربما كانت زوجة أخيه، والبكاء يسبقها: «أحمد خلاص... أحمد انتهى» وزادت في إجهاشها، ثم أغلقت السماعة. فهمتُ ما قصدته، وسقطتُ في فراغٍ ينحدرُ بسرعةٍ هائلةٍ نحو فراغٍ آخر. شعرتُ بأنني هيولةٌ خرقاء، ترتعد من البرد، معدومةُ الملامح والأبعاد، قذفني المجهولُ كنطفةٍ عمياء في رحمٍ مجهول آخر، وما من بويضةٍ ترتطم بي.

في لحظةٍ ما، تراءى لي الناس هرعين في كل الاتجاهات، يرتطمون بعضهم ببعض، خبط عشواء، لكأنَّها القيامة! أو أن زلزالاً قويّاً ضرب هذه الأرض، أو حدث انفجارٌ هائلٌ أسفر عن هذا الكمّ الهائل من البشر الفزعين الهلعين الهاربين من الموت. سقطتُ على

الأرض ببطءٍ، كجثّةٍ هامدةٍ لشخصٍ، قُتِلَ في ساحة الإعدام، رمياً بالرصاص. ولم أجد نفسي إلّا في المستشفى، ممددة على السرير، على يميني نافذة، وعلى يساري؛ أمّي ممسكةٌ بيدي، وأختي وبعض الأصدقاء من حولي. لم أستطع تمييز وجوههم. تشويشٌ وغبشٌ يداهمانني، وصداعٌ عنيفٌ ينخرُ رأسي الثقيل الذي بالكاد يمكنني تحريكهُ قليلاً.

كنا نقترب من منتصف أبريل/نيسان، والبدرُ يمضي ببطءٍ نحوِ إكمال استدارته، ويمرُّ بي كل ليلةٍ عبر نافذة غرفتي في المستشفى. أتأمّله، أسأله: أي هو الآن؟ حيّ أم ميّت؟ لم أكن أصدّق أنه غادرني إلى عالم الأرواح، وتركني هنا، في عالم الأجساد، وحيدةً في عهدة الحزنِ، وينهشني الألم؟! صرت أتخيّل ما سيقوله لي، حين أخرجُ من المستشفى، ويفاجئني مرّة أخرى بطلّته البهيّة بعد غياب! وأخمّنُ؛ بماذا سيبرر غيابهُ المفاجئ هذه المرّة!؟ وأقول في نفسي: «لقد اعتدتُ على مغادراته المفاجئة، وعودتهِ المفاجئة، وسأقبل منه أيّ مبرر، المهم أن يعود!». كنتُ دماراً وهشيماً، أحاول البحث في أعماقي عن بارقة أمل. ولكن، عبثاً حاولت!

بعد مضي أسبوع أو أكثر، عدتُ للبيت، وصرت أبحث في أغراضي عن الأشياء التي أهداها إليّ، وأعيد قراءة رسائله، والتأمّلَ في صورهِ، والدمع مدراراً يدفق من عينيّ وقلبي وروحي. أخرجتُ علبة القهوة، وعلبة الشاي المخلوط بعشبة الميرمية، اللتين أهداهما إليّ، وقال: «إنه اشتراهما لي من سوق فلسطيني في الأردن». رحتُ أتشممهما، كأنني أتشممه، أستنشقه، وأغمضُ عينيّ عليه، وعلى ذكرياتي معه.

جمعتنا أمور كثيرة، منها حبّنا للحيوانات. أثناء تواجده في غينيا

بيساو، كان يعتني بجروٍ صغير، فيتصل بي كي أعلّمه كيفيّة الاعتناء به. وكلما اتصل من بعيد، يطرح عليّ السؤال نفسه: «هل ستنتظرينني؟». عندما زرته في الأردن، كي يعرّفني على والديه، وأفراد أسرته، أخذني إلى البحر الميّت. مساءً ونحن واقفان في شمال البحر، على ضفّة نهر الأردن، قال لي: «أترين تلك الأضواء؟ إنها أريحا، مدينتي التي أطلقت فيها صرختي الأولى، وأنا أدخل هذه الحياة. أريد العودة إلى هناك، وأقضي بقيّة حياتي معكِ، وأن أدفن تحت تراب أريحا».

بعد مضي ما يزيد على شهرين، اتصل بي السفير الفلسطيني، وطلب منّي المجيء إلى مكتبه في العاصمة إسلام أباد، وأعطاني نسخة من الصورة الأخيرة له ولزميله ومساعده الطيّار الفلسطيني الآخر، يتوسّطهما عرفات، التقطت لهم في مكتب منظمة التحرير بتونس، قبل إقلاع الطائرة إلى السودان، وكتب عرفات عليها بخط يده آية قرآنية، وختمها بدعاء: «إلى جنّة الخلدِ أيّها الأحبّة، مع الأنبياء والصدّيقين والشهداء. أنتم السابقون ونحن اللاحقون».

شرح لي السفير تفاصيل سقوط الطائرة، وكيف أنه لم يكن أمامه سوى خيار واحد فقط، هو الانتحار، وسط العاصفة الرمليّة العمياء والمميتة، ونفاد الوقود، عبر رفع ذيل الطائرة إلى الأعلى والانغراس في الرمال، بخلاف عمليّات الإنزال الطبيعيّة أو الاضطراريّة بحيث يكون الرأس إلى الأعلى والذيل إلى الأسفل، على أمل أن يبقى زعيمه ورفاقه أحياء في مؤخّرة الطائرة بخير. لأن الإنزال الطبيعي للطائرة على الرمال، سيتسبب في تحطمها وتدميرها وموت جميع من عليها. الطائرة كانت قديمة وغير مجهّزة بوسائل أمان. في تلك

الصحراء الشاسعة، ووسط تلك العاصفة المجنونة والقاتلة، لم يكن في وسع الباحثين عن مكان سقوط الطائرة فعل أيّ شيء. فاستدلّوا على مكانها من عواء الضباع التي تتبّعت رائحة الدم، وأحاطت بالحطام. وحين رأت قافلة المنقذين آتية، ابتعدت الضباع وفكّت حصارها عن الطائرة المحطّمة والمتحصنين فيها. أحد الذين رافقوا الجرحى من موقع الطائرة إلى المستشفى، نقل إليّ أنه لم يفارق الحياة فوراً، بل بقي حتّى وصولهم إليها. وآخر ما تفوّه به: «هل يمكن أن تخبروا خطيبتي بألّا تنتظرني».

نعم. في تلك اللحظات المصيريّة كان هو وزميله يقودان عرفات والقضيّة الفلسطينيّة، وسط تلك العاصفة الرمليّة المميتة والكارثيّة، وليس العكس. للأسف، بعد مضي 12 سنة تقريباً، التحق بهم زعيمهم عرفات أيضاً، مسموماً سنة 2004.

آخر مرّة رأيت فيها عرفات، كانت أثناء زيارته باكستان في أغسطس/آب 2001، حيث طلب رؤيتي. عانقني وقبّل رأسي وقال: «لقد أنقذ خطيبكِ الثورة الفلسطينيّة. أنقذ القيادة الفلسطينيّة. أنقذني. ونحن مدينون له».

منذ عام 1992 وأنا أعيش بين حطام تلك الطائرة. بل أنا الحطام نفسه. الآن، وبعد مضي 20 عاماً، عرفت لماذا تركني أوّل مرّة، لئلا أعيش كل هذا الألم والحداد. ولكن الأقدار جعلتني أعيشها وأكابدها في كل لحظة. حتّى الآن، لا أمتلك الشجاعة لزيارة ضريحه. وما يؤلمني أيضاً ألّا أرى كاتباً أو سينمائيّاً فلسطينيّاً أو عربيّاً يتناول تجربتهُ وزميله الطيّار الآخر، لا في عمل روائي أو سينمائي. لا أعرف لماذا بقيتُ ساكتةً طوال هذين العقدين. ربما لأنني...

أطلق القطار تنبيهاً: «السيدات والسادة المسافرون. وصلنا إلى محطة دورتموند المركزيّة. يرجى التأكد من أخذ الأمتعة، وعدم نسيان المتعلّقات الخاصة في القطار. النزول على الرصيف الأيمن».

بسرعة، ضبّت السيّدة رزمة الأوراق، وضمّتها إلى حقيبتها وقالت: «يبدو أن هذه الرواية جميلة جداً. لم أنتهِ بعد من قراءة العشرين صفحة».

قال يورغن: «حقاً رواية جميلة. أشكرك سيدتي. هل يمكن أن تعطيني عنوانها واسم الكاتبة، أودّ اقتناءها بالإنكليزيّة أو الفرنسيّة، ولن أنتظر الترجمة الألمانيّة. هل يمكن ذلك؟ هذه بطاقتي، يمكنك إرسال التفاصيل على الإيميل أو في رسالة نصيّة على الموبايل، إذا أمكن. رحلة سعيدة وشكراً على كل شيء».

شعر يورغن بحزنٍ وإعياءٍ، وأعادته خلاصة رواية الكاتبة الباكستانيّة عن تحطّم طائرة خطيبها، إلى حادثة اختطاف طائرة «لاندسهوت» التي خطفها فلسطينيون سنة 1977 والرعب الذي عاشه الركّاب وقتذاك، وصار يسأل نفسه: هل شعرَ عرفات ورفاقه بما شعرتُ به كطفل، وشعرَ به ركاب «لاندسهوت»؟ وصار يقارن بين الطائرتين، ويتخيّل تفاصيل حادثة سقوط طائرة عرفات كفيلم سينمائي أمام عينيه، وما كان يدور في أذهان القبطانين اللذين يقودان «لاندسهوت»؟ وأذهان قبطاني طائرة عرفات ورفاقه، وبماذا كان يفكّر الزعيم الفلسطيني ومن معه، وهم محصورون في اللحظة الفاصلة بين الحياة والموت؟

ما إن عاود القطار سيرهُ، نظر يورغن إلى ساعته وإذا بها تشير

إلى الثانية و45 دقيقة. شعر برغبةٍ لحوحةٍ في غفوة، فما زالت الطريق أمامه طويلة، وهناك متّسع لمزيد من القصص والمصادفات والاختلاسات السمعيّة. مال برأسه إلى جهة النافذة، فاسترقه النوم بسرعة، ولم يشعر بنفسه إلّا وهو يسمع منبّه القطار يشير إلى الاقتراب من محطة إيسّن (Essen) المركزيّة، وأنّ على الركّاب عدم نسيان حقائبهم ومتعلّقاتهم في القطار.

نحو 50 دقيقة من النوم العميق، لم يشعر فيها بأي شيء سوى الصمت والعتمة المطبقة. لا أحلام جميلة، تطوفُ به بين جنباتها وتأرجِحه! لا كوابيسَ تداهمهُ وتنغّص عليهِ نومهُ وحياتهُ بفيض الأسئلةِ! لا أحد من مفتّشي التذاكر يوقظه ويسأله عن التذاكر! كانت نومةً هانئةً بمئةِ نومةٍ، قضاها ملء عينيهِ حدَّ الشبع!

بين زحمة المسافرين الذين صعدوا إلى القطار، وشرودِ يورغن في تصفّحِ الوجوه التي تعبر الممر الذي يتوسّط مقاعدَ القطار، لكأنّهُ يتصفّحُ مجلّة مليئة بالصور على نحوٍ عاجل، لذا، لم ينتبه إلى الفتاة التي جلست قبالته! وحين التفتَ إليها، صعقه جمالها الرهيب، وصار يسأل نفسه: «كيف دخل هذا الملاك وجلس هنا؟! هل من النافذة؟! كيف غفلت عيناي عنها؟!».

ويا لها من فتاة!! يا لها من فتاة!! أخذت من الهولنديات طولهنّ، ومن الفرنسيات رشاقتهنّ، ومن الصينيات ملامح وجوههنّ، ومن الاسكندنافيات شقارَ شعرهنّ وشكل ولون أعينهنّ. «هل يعقل أن تستقلّ عارضة أزياء أو ملكة جمال قطاراً للسفر!؟» هكذا سأل يورغن نفسه، وهو غارقٌ في تأمّلاتهِ وتساؤلاتهِ مع نفسه. في خضمّ ذلك، لم ينتبه إلى الرجل الذي جلس إلى جواره أيضاً، قبالة الفتاة!

رجل متوسّط الطول، هزيل البنية، ملامح وجههِ قريبة من ملامح فرانز كافكا. الشعر المصفوف والممشط إلى الخلف. حركةُ العينين التي لا تنظران إلى الشخص بشكل مباشر، كحال المصابين بالتوحّد. والحاجبان اللذان يعلوهما. الأذنان الكبيرتان، وحركة الفم والوجه الذي يميل إلى الهزال. كل ذلك كان يوحي وكأنّ الجالس إلى جانب يورغن هو أحد أشباه كافكا، أو أحد مقلّديه في الشكل والكسم والرسم والهندام، وحتى في علامات الكآبة والسأم أيضاً.

لم يكن يورغن وحده المنبهر بتلك الفتاة، بل الجالسُ إلى جوارهِ أيضاً. لم يكن ينظر إليها بشكل مباشر، محدّقاً في عينيها، كما كان يفعل يورغن، ولم يكن صعباً ملاحظة انبهاره بها!

أخرج كيساً جلديّاً صغيراً من الجيب الداخلي لسترته، وأخرج منه نظّارة بإطار رقيقٍ ودائري، كالنظارات القديمة التي يعود موديلها لما يزيد على القرن، ووضعها أمام عينيه، ثم تناول دفتراً كبيراً وقلماً من حقيبته. حجم الدفتر جعل يورغن يظنّ أنه ربما سيرسم الفتاة. لكنه بدأ بالكتابة، ناقلاً نظراته بين صفحات الدفتر والفتاة. يكتب بالفرنسيّة، بخطٍ واضحٍ ومقروءٍ وجميل، كأنّه يرسم الكلمةَ رسماً! يكتب ويكتب بشغف، ويورغن يتابع ويقرأ ما يكتبه بالفرنسيّة، كلمة كلمة. إنها قصيدة. الرجل مستمتع ومسترسل في الكتابة، وهو منتشٍ بما يقرأه من جمل وصور ومقاطع شعريّة مدهشة، بحيث إن روعة أي مقطع مما يكتبه الرجل، تزيل من ذاكرة يورغن روعة المقطع الذي سبقه، وهكذا. شيئاً فشيئاً، بدأ الرجل يكتب بسرعة وكأن شخصاً يلاحقه، أو كأنّه يلاحقُ الكلمات ويريد القبض عليها، وتثبيتها على أوراق الدفتر، خشية أن تنفلتَ وتهرب منه. انتبه يورغن إلى سقوط

دمعتين من عينيه على الورقة التي يكتب عليها. لم يمسح الرجل الدمعتين، وبل لم يرفع نظراته عن الورقة، واستمرّ يكتب. لاحظ يورغن أن خطّه الجميل والأنيق، بات مشوباً بالتوتر والقلق، واعتبرَ أن سبب ذلك ليس السرعة في الكتابة التي بدأت تزداد، بل الدمع الذي يشوّش نظرهُ، والحرارة المنبعثة من وجهه التي تجعل البخار يتكثّف على زجاج النظارة.

تنظرُ الفتاةُ إليه باندهاش وفضول، ولكنها تدرك أنه يكتب عنها، وهو يبكي، لكنها لا تعرف ما الذي يكتبه!؟ وما الذي يبكيه؟! فقط يورغن يعرف أنها قصيدة غزل مدهشة ورائعة! خلع النظارة ومسحها، ثم عاد للكتابة، واستمرّ وملأ صفحات عديدة من ذلك الدفتر الكبير، واستمرَّ في الكتابة بنهم وشراهة كالمتضوّر الذي صادفتهُ وليمة عامرة. ولم يتوقّف إلّا حين أصدر القطار تنبيهاً؛ أنهم وصلوا إلى مطار دوسلدورف (Düsseldorf) وعلى السادة المسافرين والمسافرات التأكّد من أخذ الحقائب والمتعلّقات الشخصيّة. وحين بدأت الفتاة تهيّئ نفسها للنزول، قال لها الكاتب بفرنسيّةٍ رشيقة ومتوسّلة:

- أرجوك سيّدتي. أنا آسف. هل يمكنك النزول في المحطة القادمة، في كولن؟! هل يمكن ذلك، أرجوك؟!

صار يتوسّل كأنّه متسوّل على قارعة رصيف، نظراتهُ نظراتُ كلبٍ ذليل! استغربت الفتاة طلبهُ العجيب وتوسّلاته الأكثر عجباً وغرابةً. لكنها ابتسمت، وعرفت أنه يريد إكمال ما كان يكتبه، وأن هذه الكتابة هي عنها، وهي بالنسبة إليه الملهمة، أو الفتاة الموديل التي تقف أمام الفنان التشكيلي كي يرسمها! فردّت عليه أيضاً بفرنسيّة أنيقة:

- كان بودّي ذلك. سامحني واعذرني. أشكركَ على كل شيء،

على كل كلمة كتبتها، ولم يكن بإمكاني قراءتها. أنا مجبرة على المغادرة لأن طائرتي ستتجه إلى بيروت بعد ثلاث ساعات. استميحكَ عذراً.. أنا آسفة حقّاً.. آسفة جدّاً.

شعرتْ وكأنّ كل هذه الاعتذارات منهُ غير كافية، فانحنتْ عليه وطبعت قبلتين على وجنتيه، وقالت: «أنا واثقة من أنكَ ستكتبُ نصّاً أجمل من الذي كتبته الآن، حين أكون غائبة. للغائبين سِحرهم، والغيابُ وقود الخيال. أتمنّى أن تجمعنا صدفة أخرى، ونلتقي مجدداً».

ثم غادرتِ القطار في عجالة. بينما بقي ذلك الكاتب مصعوقاً مبهوراً من ردّة فعلها، وتقبيلها له، وعبارتها الأخيرة: «للغائبين سِحرُهم، والغياب وقود الخيال»! كذلك يورغن، لم يكن يتوقّع أو يتصوّر أبداً، أن تكون إجابة هذه السيّدة الفاتنة، بهذه الطريقة المفاجئة والساحرة والغريبة!

حاولَ الرجل اللحاق بها والنزول أيضاً، لربما يتعرّف عليها أكثر، لكن بعد فوات الأوان. إذ وصل إلى الباب وهو يُغلق، ليعاودَ القطار مواصلة رحلته. لم يعد الرجل إلى مقعده!

خاتمةُ هذه الحادثة، وعدم عودة الرجل إلى مقعده، شغلا بال يورغن وصار يفكّر ويسأل نفسه: لماذا لم يعد ويجلس إلى جواري؟ ومن هو هذا الشاعر المرهف والحزين؟ ولماذا بكى أثناء كتابه تلك القصيدة الرائعة مع أنهُ كان يتغنّى بمفاتنها؟ ومن هي تلك السيّدة المسافرة إلى بيروت؟

ذكّرته كلمة بيروت بنسخة صحيفة الحياة التي بين يديه. فعاد إلى الصحيفة كي ينفض عن ذهنه كل تلك التساؤلات. وحاول تذكّر ولو

مقطع من تلك القصيدة الملحميّة الرائعة التي كتبها الرجل، لكنهُ فشل في ذلك، لكأنّه لم يكن يتابع الكاتب وهو يكتب نصّه جملةً جملةً، فقرةً فقرة، كلمةً كلمة!؟ نسي كل شيء، وبقي محافظاً على إحساس أنه قرأ قصيدةً جميلةً جداً، ومدهشةً جداً، كتبها شخصٌ مجهول جلس إلى جواره، عن فتاة مجهولة، فاتنة وساحرة الجمال، كانت تجلس قبالته، قبل لحظات!

أخيراً، توقّف القطار في كولن (Köln) وعليه النزول وتبديل القطار وركوب قطار (Thalys) السريع، الذي سيقلّهُ إلى باريس، مروراً ببروكسل. ينبغي عليه تغيير الرصيف أيضاً. اشترى كوب قهوة من أحد الأكشاك الموجودة على رصيف الانتظار، فما زال هناك 7 دقائق لوصول القطار. وقف في المكان المفترض أن يكون مقابل الفارغون رقم 26 الذي يوجد فيه مقعده. تهادى القطار منسحباً على سكّته كأفعى عملاقة قرمزيّة الرأس والظهر، ورماديّة البطن. اتجه نحو مقعده ليجده عادياً وضيّقاً، إلى جوار النافذة، ولا توجد طاولة صغيرة أمامه تفصله عن المقعدين اللذين يقابلانه، كما كان في القطار السابق، بل ضمن صفّ من المقاعد، لكأنّه في قاعة مركز أو مكتبة أو مسرح، أو أنه على متن طائرة. التفت إلى يساره، وإذا بعجوزين غارقان في النوم. كذلك المقعد الذي يجاوره فارغ. من خلفه ثمّة رجلٌ وامرأة، يتحدّثان بالتركيّة همساً مسموعاً، يخالطه صوت ضحكات خفيفة، وصوت قبلاتٍ متبادلة. لا يمكن ليورغن رؤيتهما، لأن ظهره إليهما. فمالَ برأسه مجدداً نحو النافذة، على أنه يحاول النوم، وبينما يسعى إلى استراق السمع للأحاديث التي تدور خلفهُ، بشكل أكثر وضوحاً.

- ماذا قلتَ لها؟

- أخبرتُها أن الشركةَ أوفدتني لثلاثةِ أيّامٍ إلى باريس لحضور معرضٍ دوليّ لمواد البناء وديكورات المنازل والفيلات والشقق، باعتباري مهندس ديكور.

- يا لها من طيّبة القلب. صدّقتكَ طبعاً!

- نعم إنها طيّبة القلب، وأحبّها.

- تحبُّها وتخونها مع صديقتها؟!

- عزيزتي مريم.. نعم أحبّها. وكنتُ واضحاً معكِ منذ البداية. أنتِ بالنسبة إليّ، عشيقة، وأنا كذلك بالنسبة إليكِ. نتبادل لحظات المتعة واللذّة، لكسر رتابة الحياة. أنا بحاجة إلى ارتكاب ما يسمّونه إثماً أو معصية، كي أعود إلى زوجتي وأستغفرها، كعودة المُذنِب التائب والنادم لمَعبدهِ ولربّه. ربما تتحمّل هي جزءً مما أنا فيه. نحن متزوجان منذ 15 سنة. في السنوات الخمس الأخيرة، دائماً كانت تنظر إليّ على أنني أخونها مع امرأةٍ أخرى! خلال خمس سنوات، فشلتُ في إقناعها بأنّها تتوهّم، وأنني أحبّها وحدها، وأن الحبّ شيء والجنس شيء آخر! فشلت في إخراج نفسي من قفص الاتهام بالخيانة الذي نصبته لي، من دون أدلّة!؟ لا أعلم؛ هل هذا طبعٌ عام، موجود في كل النساء بأن ينظرنَ دوماً إلى أزواجهنَّ على أنهم خونة أو مشاريع خونة؟ أم أن الأمر محصور في زوجتي فقط؟!

المهم، أنا أحبّها، وسأبقى أحبّها. ولا داعي لأن تعكّري عليّ وعليكِ هذه اللحظات الممتعة، بأسئلةٍ كهذه!

- أوزجان.. الغالبية العظمى من النساء هكذا. أنا أيضاً هكذا.

زوجي الذي هو ابن خالي، وتزوّجته عن حبّ كبير، أنظرُ إليهِ على أنه يخونني. وهو فعلاً يخونني. وأعرف مع من؟ وهنّ أكثر من امرأة!

- لا تقولي لي؛ إنكِ متسامحة وقديسة وملاك... إلى هذه الدرجة!؟

- لا.. لا.. أبداً. أنا امرأة عاديّة، أغارُ وأحقدُ وأكرهُ وأحبُّ وأعشق... لكن الحياة والأقدار ورّطتني في الزواج. والزواج، هذا القيد، ورّطني في الإنجاب. والأطفال هم جدران سجن الزوجيّة الذي يقولون عنه «القفص الذهبي». كل منّا يعرف أنه يخون الآخر، ومع ذلك، نتقاسم الحياة، ونمارس حياتنا الزوجيّة والجنس بمتعة ولذّة، لا يمكنك تصوّرهما! تعامُلُنا مع مؤسسة العائلة والأسرة والبيت، يشبه إلى حدّ ما، التعامل مع الوظيفة أو العمل الذي نقضي فيهِ ثماني ساعاتٍ أو أكثر، يوميّاً، وأنه مفروضٌ علينا الحفاظ على هذه الوظيفة لحين سنّ التقاعد. نتشارك في أمور كثيرة. ومع ذلك، هناك حيّز من الخصوصيّة. لا يمكنني وضعُ زوجي بين خيارين؛ إمّا أنا أو عشيقاته؟ فحتى لو اختارني أنا، شكليّاً، أعلم أنه سيخونني لاحقاً. يعني، سيكون الأمر مجرد هدنة، لا أكثر. فلماذا أضيّق الخناق عليه، وأدفعه إلى الهروب منّي تماماً، وأهدّ أركان هذه الشركة التي تجمعنا؟! هناك صفات كثيرة جميلة ورائعة موجودة فيه، لستُ مجبرة على التخلّي عنها، وتدمير الكثير من الأمور والأشياء والصفات الموجودة فيه، والتي أحبّها حقّاً، فقط كي أضغط عليه وأجبره على فعل شيء، ليسَ مقتنعاً به!؟ أعلمُ أنه يحبّني أنا، ونساؤه الأخريات هنّ فقط عشيقات عابرات، لا أكثر. أنا واثقة من ذلك. وإلّا لكان تركني وذهب مع إحداهن، وطوى كل شيء بيننا. أعلمُ أنه

سيأتي اليوم الذي يتأكّد فيه أن علاقاته النسائيّة هي محض عبث ونزوات عابرة. وسيأتي اليوم الذي أقتنع أنا أيضاً بأن علاقتي معك أو مع غيرك هي من هذا الصنف!

دقِّقْ في تفاصيل الحياة والتاريخ والآداب والفنون والفلسفات...، ستجد أنها قائمة على الخيانات. حركة الإبداع لم يمكن لها أن تتطوّر إذا لم يتجاوز الكتّاب والشعراء والروائيون ما كتبه مَن سبقوهم. الربّ في كينونته يجمع بين الخير والشرّ. لا يمكن للشرّ أن يكون خارج إرادة الربّ، وإلّا تكون قدرته محدودة وغير مطلقة. آدم، ألم يخن تعاليم ووصايا ربّه بألّا يأكل من الشجرة؟! أنا وأنت محسوبان على الإسلام؛ ألم يخن الشيطان ربّه حين أَمَرَهُ بالسجود لآدم!؟ التلميذ يجب أن يتجاوز معلّمه. وإذا احتاج الأمر، أن يتمرّد عليه. هل كان تلامذة سقراط مخلصين له مئة بالمئة؟ أي خروج عن النسق هو خيانة، أي خروج عن السرب، هو خيانة. لو لم يخن الإنسان الغابة، لبقي فيها شأنه شأن قرد أو ضفدع أو كلب أو حلزونة. من أين ستأتي الفردانيّة والتفرّد والتمايز إذا كان المرء شديد الالتصاق والانتماء لتقاليد وأعراف الحشود التي هي في جوهرها؛ محضُ قُطعان؟! الأديان السماوية التي تعاقبت، كل دين خان الدين الذي سبقه، وأضاف إليهِ شيئاً، وحذف منه شيئاً أو أشياء، واتهم الدين الذي سبقه بالباطل، ونسب إلى نفسه الحق والحقيقة المطلقة. مارتن لوثر عندما قام بحركته الإصلاحيّة، ألم يعتبر خائناً أو مرتدّاً؟! وتمّت محاربته ومحاربة أنصاره؟! فلاسفة عصر التنوير ألم يخونوا سلطة ومبادئ وجبروت الكنيسة حين أرادوا إنقاذ الإنسان والمجتمع والعقل؟! حركة الحداثة في الشعر والرواية

والفن التشكيلي والموسيقى، كيف كان لها أن تتطوّر لو لم تخن وتكسر الأنساق والأشكال والأطر التقليديّة للخروج إلى ما هو أكثر رحابة وأكثر حريّة؟!

- أنتِ شاعرة ومثقفة، ولا يمكنني مُجاراتكِ في الحديث. ماذا قلتِ لزوجكِ؟ وأين وضعتِ أولادكِ؟

- قلت له «إنني أعاني من الضجر والاكتئاب، ونصحني الطبيب بأن أكون وحدي لبضعة أيّام، بعيداً عن البيت والأولاد والعمل. وسأسافر إلى بروكسل وباريس، كي أكون مع نفسي». فلم يعلّق، ووافق على ذلك، وهو يعرف أنني أكذب، وأنني شاعرة، والشعراءُ والشاعرات خصلة الكذب متأصّلة فيهم. وضعتُ الأطفال الثلاثة لدى أمّي كي تعتني بهم في فترة غيابي. بيتها قريب من مدارسهم. صحّتها جيّدة، ومستمتعة بتوكيل العناية بالأطفال إليها في غيابي!

- لاحظي، لستُ من أتى على ذكر كلمة الخيانة، بل أنتِ؟!

- نعم، نعم.. أنا التي ذكرت ذلك، لأن التوصيف السخيف المتداول لهذه حالة، حالة العلاقة الحميمة خارج الزواج، هو الخيانة. أعتقد أنه يجب أن نخون هذا التوصيف، ونجد لهذه الحالة اسماً آخر؛ كأنّ تكون المتعة واللذّة خارج الزواج مثلاً! ما رأيك؟

- موافق.

- خلال هذه الأشهر الستّة، ألستَ مستمتعاً معي؟ ألا أمنحكَ اللذّة؟!

- بلى. كيف لا!!... وأنتِ، ألستِ مستمتعة معي؟

- بكل تأكيد. وإلّا لماذا أجبرُ نفسي على خوض مغامرة كهذه،

وهدر ثلاثة أيّام من عمري معكَ، إذا لم أحصل منكَ على المتعة واللذّة التي أريدها وأشتهيها. أمنحكَ نفسي بشكل مطلق، في مقابل أن تمنحني نفسك بشكل مطلق. ونخلق معاً لحظات من السعادة المتبادلة. الخيانة تجربة رائعة، يجب أن يخوضها الأزواج كي يتعرّفوا على أنفسهم وعلى أزواجهن وزوجاتهم أكثر.

- أما أنا، فأشعر بالندم، تماماً كالمراهق، بعد ممارستهِ العادّة السريّة، ويصير يناجي اللّه ويستغفره على ما فعله. كذلك، أصيرُ أحبّ زوجتي أكثر، وأعيشُ عدّة أيّام، عيشةَ المذنب الذي يجب أن تغفر لي وتعفو عنّي!

- بصراحة، لا أشعر بأيّ ندم حيال صديقتي، زوجتك. بل أشعر بالغبطة، لأنني أمنح زوجها الذي تحبّه، المتعة والسعادة واللذّة. أمنحهُ، ربما ما تعجز عن منحه إيّاه، وأجعلهُ يعود إليها كالطفل العاق التائب الذي يريد الصفح والمغفرة منها.

- يا لك من شريرةٍ وساحرةٍ ورائعة. جيّد أن زوجكِ ليس صديقاً لي، ولا أعرفهُ، لئلا أشعر بالخيانة تجاهه.

فجأة أطلق القطار تنبيهاً؛ أنه للأسف، ونظراً لعطلٍ طارئ، سيضطرّ قطار (Thalys) إلى التوقّف في محطة ليبج (Liège). وعلى السادة المسافرين إلى باريس ركوب القطار البلجيكي (IC) الموجود على الرصيف رقم 9 للحاق بقطار (Thalys) المتّجه من محطة بروكسل ميدي (Brussels-Midi) إلى باريس. يرجى عدم نسيان الحقائب والمتعلّقات الشخصيّة في القطار.

ربما الراكب الوحيد الذي كان مسروراً بهذه العطل المفاجئ هو يورغن الذي سيقضي نحو ساعة وربع على متن قطار داخلي بلجيكي من لييج إلى بروكسل، ما سيمنحه ربما فرصة أكبر للاستماع إلى قصص مختلفة وجديدة. عندما نهض من مقعده، استدار إلى الخلف كي يرى الرجل والمرأة اللذين كانا يتحدثان بالتركيّة، فلم يجد سوى رتل من الركاب يتجهون نحو باب الفارغون كي يخرجوا منه بسرعة. وتاه الشخصان وسط الزحام، ولم يتعرّف على ملامحهما.

صعد يورغن القطار الداخلي البلجيكي مبتسماً واستأذن بالإنكليزيّة من شخصين جالسين متجاورين: «هل يمكنني الجلوس هنا؟» أجابا بهزّ رأسيهما مع ابتسامات مجاملة. وضع حقيبته المتوسّطة على الرف العلوي، وجلس قبالتهما، إلى جوار النافذة، بعكس اتجاه القطار.

ومع بدءِ القطار تحرّكه، باشرَ أحد الرجلين الكلامَ، وكأنّه يستكمل حديثاً انقطعَ مع توقّف القطار في لييج. وفي نبرة يأسٍ وقنوط وحيرة، وعدم جدوى، قال:

- ماذا أفعل يا سركيس؟! قلْ لي: ماذا أفعل؟! انصحني! قل شيئاً!؟ إحدى عشرة سنة وأنا هنا، ولا يمنحونني الإقامة! إحدى عشرة سنة وأنا أعيش في بلجيكا من دون أوراق، بشكل غير قانوني، ومجبر على العمل الأسود اللاقانوني. في أيّة لحظةٍ يمكن للبوليس اعتقالي وترحيلي إلى أرمينيا. إحدى عشرة سنة بنيتُ ورممتُ عشرات البيوت في بلجيكا، لأجانب ولمواطنين بلجيك، ولا أملكُ بيتاً

يؤويني وزوجتي وطفليّ!؟ تُرضي مَن هذه الحال؟! هل جرّبت هذا الإحساس؟ أن تبني بيوتاً للناس، وأنت لا تملك بيتاً!؟

أحد الأصدقاء الأرمن هنا، نصحني بأن أقدّم نفسي لمركز اللجوء في بروكسل على أنني كردي من القامشلي. لأنه هو أيضاً فعل ذلك، بعد رفضهم طلبَ لجوئهِ كأرمني. وانطلت عليهم كذبتهُ. لكن هذا الصديق يعرف قليلاً العربيّة، ولغته الكرديّة ممتازة. بينما أنا، لا أعرف العربيّة، والكرديّة التي أتكلّم بها أحياناً مقبولة، ولكنها ليست لهجة أهل القامشلي، بل لجهة كرد تركيا، في منطقة قارص (Kars)!؟ ما الحل؟!

رغم أنه يتحدّث بفرنسيّة ركيكة إلّا أن يورغن فَهِمَ تماماً ما يريد قوله! وماذا يقصد! وعرف أن أصوله تنحدر من كردستان تركيا. توقف الرجل برهةً، مُصدراً عدّة زفرات، ثم عاود كلامه:

- أبي وأمي ولدا في القامشلي، وأنا أيضاً ولدت هناك. إلّا أن الأحمقين سافرا إلى أرمينيا! لا أعرف لماذا؟ من لهما في أرمينيا؟! جدّي وجدّتي كانا من محافظة قارص في تركيا، أنقذهما الأكراد من المذابح، وقبرهما في القامشلي، فمن لنا في أرمينيا حتى يترك والداي القامشلي ويسافرا إليها؟! لو بقيا في القامشلي، لكانت حياتي الآن أفضل. لكنتُ أعرفُ الكرديّة والعربيّة والأرمنيّة. الآن، هما مدفونان في أرمينيا، ووالداهما مدفونان في سوريا. وربما أموت هنا في بلجيكا، ولا أجدُ لي مدفناً هنا، بعد فشلي في الحصول على مسكن؟!

أجبني، ما رأيك؟ هل أتقدّم بطلب لجوء جديد على أنني كردي؟

سوريا تعيش حرباً، والسوريّون يتم قبول طلبات لجوئهم بسرعة في بلجيكا!

نظر سركيس إليه بتجهّم وامتعاض وقال بفرنسيّة جيّدة:

- أكراد!؟ أتريد أن تحوّل نفسك إلى كردي كي تحصل على الأوراق؟! ألا تعرف أنهم أعداؤنا، وأياديهم ملطخة بدماء أجدادنا؟!

- يا أحمق.. أقول لك أنا مُجبر على ذلك. هل لديك خيار آخر؟ أعرفُ أكراداً من تركيا ومن العراق، قدّموا طلبات لجوء على أنهم أكراد من سوريا. أعرفُ عرباً من العراق ولبنان وسوريا قدّموا طلبات لجوء على أنهم فلسطينيون! وتمّ منحهم اللجوء السياسي أو الإنساني في بلجيكا! ثم إن الأكراد أنقذوا جدّي وجدّتي والعشرات بل المئات من الأرمن! هم ليسوا أعداء! هم أناس طيبون مثلنا. لقد لقّنوكم أن الأكراد أعداء، وهذا ليس صحيحاً. ولدتَ هنا، وتحمل الجنسيّة البلجيكيّة. والدك هاجر من منطقة ناغورنو كرباخ ولجأ إلى بلجيكا في بداية السبعينات، وكانت لديه حجة مقنعة للجوء؛ القمع السوفياتي السياسي الشيوعي، ثم القمع الأذربيجاني القومي والعرقي للأرمن. أصلاً أنت لا تعرف التكلّم بالأرمنيّة، مثلي، ثمّ تتحدّث لي عن عداوات تاريخيّة مع الأكراد!؟ وعن المشاعر القوميّة؟ والثارات الدينيّة والقوميّة؟! والداك لم يعلّماك اللغة والثقافة الأرمنيّتين! لم يعلّماك الغناء الأرمني! أو حبّ الاستماع لهذا الغناء! ولم تحرّض أو تشجّع أولادك على التحدّث بالأرمنيّة! ماذا بقي من الهويّة القوميّة لديك، غير هذه الأحقاد والخرافات والعداوات التاريخيّة!؟ يا أخي، أنت مرتاح هنا، ويداك وقدماك ليست في النار مثلي.

ثم ألسنا ذاهبَين معاً إلى لوفان (Leuven) كي نعمل في ترميم وتصليح بيت شخص كردي؟! كيف وجدتَ تعامله معنا؟ هل ينظر إلينا بعين العداوة والحقد والكراهية، كما تنظر إليه؟! أصلاً أنت من أين تعرف الأكراد؟ إلّا من القصص الخرافيّة التي لقّنوكم إيّاها؟!

- صاحب البيت، الكردي، لم يتعامل معنا بكراهية وحقد. هذا صحيح. لكن الذي في القلوب يبقى مستوراً في القلوب. ولن يظهر لك أنه يكرهك، ما دمت تعمل في بيته.

- يا غبي، وهل أنت في قلبه؟! نحن لا نعمل مجّاناً في بيته، بل مقابل المال، وبما يزيد على جهدنا أيضاً! لقد وثق بنا الكردي، وأعطانا مفتاح بيته، كي نبيت فيه، ولا نعود يوميّاً إلى لييج. اتركنا من سخافاتك. الحق عليّ أنني أناقشك في أمور لا تفهمها يا فاشل. لو كنت ناجحاً، لنجحت في المدرسة، ولم تتجه إلى أعمال البناء الشاقّة، مثلي! لو كنتُ مكان البلجيك، لقررتُ ترحيلكَ إلى أرمينيا، يا عنصري! لا تربطك بأرمينيا شيء سوى أوهام وخرافات الأحقاد والثارات التاريخيّة. ولا تربطك ببلجيكا شيء، سوى الجنسيّة!

- يا آرتين، يا صديقي، أنت معلّمي، وأخي الكبير، وأحترمك. لا داعي لهذا التجريح. طلبتَ رأيي، وقلتُ لكَ؛ إنني لستُ مع فكرة أن تقدّم طلب لجوء على أنكَ كردي، وانتهى الأمر! دعنا من ذلك، ألم تقل؛ لديكَ جوازَ سفر إسرائيلي؟ وأنكَ تحمل الجنسيّة الإسرائيليّة؟

- نعم. جواز السفر، منتهي الصلاحيّة، ويجب أن أجدده. والإسرائيليون يطلبون منّي المجيء إلى إسرائيل كي أجدد الجواز هناك، ويرفضون تجديده في بلجيكا، عبر سفارتهم في بروكسل.

وإذا ذهبت، فسأدخل إلى بلجيكا كإسرائيلي، وأفقد فرصة الحصول على اللجوء إلى الأبد. سبق أن ذكرتُ لك أنني قبل انهيار الاتحاد السوفياتي، زوّرتُ وثائقَ على أنني يهودي، وتزوجت من أوكرانيّة يهوديّة، وسافرنا معاً إلى إسرائيل. وبعد مرور 10 سنوات وحصولي على الجنسيّة، وصار لدي أولاد، أخبرت السلطات أنني أرمني ولست يهوديّاً. عملت هناك في كل شيء، في البناء والمطابخ، والتمديدات الصحيّة. . . ، لم أترك عملاً إلّا زاولته. كانت وما زالت بوصلتي في الحياة مقولة كرديّة، أخذها أبي من القامشلي، وكان يكررها على مسامعي في أرمينيا؛ «يا بُني، اعمل في الخراء، كيلا تحتاج إلى مساعدة الخراء ابن الخراء». 17 سنة وأنا أعمل هناك، لم أرتكب أية جريمة حتى يسحبوا منّي الجنسيّة والجواز، رغم كذبي عليهم. ولكن بعد أن افترقت عن زوجتي، تركت لها إسرائيل والأولاد وعدتُ إلى أرمينيا. ولكن، ماذا أفعل في أرمينيا؟ لا عمل! لا مُلك! لا دراسة! لا وظيفة! لذا هاجرت إلى هنا، وبدأت من الصفر. في أرمينيا كنتُ صِفر. وفي اسرائيل بدأتُ من الصِفر، وكوّنت نفسي، ثم عدتُ من حيث بدأت؛ الصِفر. وهنا في بلجيكا؛ بدأت من الصِفر، جمعتُ بعض المال من العمل الأسود، وتمّ اعتقالي وترحيلي إلى أرمينيا، وعدت إلى الصِفر. بقيت هناك أعمل كالحمار والبغل، لمدّة سنتين، كي أجمع ثمن الهجرة والعودة إلى بلجيكا، وأنجزت ذلك، ووصلتُ إلى هنا، وبدأت مرّة أخرى من الصِفر. ما أنجزتُه في بلجيكا، هو أنني تزوّجت في الخمسين، وصار لدي ولدان في هذه السنّ. وحتّى الآن، لا أستطيع تأمين بيت لهما. لا أعرف ماذا أفعل؟ لا أعرف، لا أعرف! حياتي، منذ ولادتي

وحتّى الآن، كانت رحلة متواصلة بين الأصفار، ضمن هذا الثالوث: أرمينيا، اسرائيل وبلجيكا! لا أعرف؛ لماذا كلّما خطوتُ بضع خطوات إلى الأمام، يجرجرني الصفر إلى حيث هو؟! لماذا لا يعتقني ويتركني في حالي؟!

هيا يا غبي، لقد وصلنا إلى لوفان. لقد نجونا هذه المرّة أيضاً من الجابي الذي يفتش ويسأل عن التذاكر. لو كنت أمتلك مثلك الجنسية البلجيكيّة، وأجيد الفرنسيّة، لما كانت حالي كحالك! حقاً، كما يقول الأكراد: «طاحونة الحمقى، تدور وحدها، من دون رياح»!

نزلا بسرعة. ونزلت معهما مجموعة كبيرة من الركّاب بحيث صار القطار شبه خاوٍ. ثم صعدت فتاة غريبة، في غاية الرقّة والعذوبة والجمال. نحيلة، بشعرٍ بُنّي قصيرٍ مجعّد ومُبعثرٍ بعشوائيّةٍ مُتقنة، ما زالت تفوح منها رائحة الشامبو، لكأنّها خارجة للتوّ من الحمَّام. حركتها جدّ بطيئة وحذرة. لم تكترث ليورغن، ولم تستأذن الجلوس، وجلست ببطء على المقعد الذي كان يجلس عليه الرجل الأرمني، ووضعت ببطء شديد حقيبة كتفها الكبيرة على المقعد الذي يجاورها. ثم وضعت مصنّفاً كبيراً إلى جانب الحقيبة، ببطء. خلعتْ معطفها الجوخ البُنّي الفاتح، ببطءٍ شديد، وعلقته على المشجب الموجود أسفل الرفّ العلوي، بجانب زاوية النافذة. ثم أزالت ببطء وشاحها الملفوف حول عنقها، ووضعته ببطء على حقيبة اليد المركونة على المقعد. وبانَ العنقُ الأهيف وجمالهُ. كانت ترتدي بنطالاً بنّياً غامقاً، وحذاءً بنيّاً لامعاً بكعبٍ متوسّط. ببطءٍ مدّت يديها بشكل معكوس إلى حافة بلوزتها الصوفيّة الفضفاضة، البيج، بحيث أمسكت اليد اليمنى بالحافة اليسرى، واليد اليسرى ممسكة بالحافة اليمنى، وبدأت برفع

البلوزة إلى الأعلى، وببطءٍ شديد، ليظهر تحتها بلوزة أخرى قطنيّة بيضاء وشفافة للغاية بحيثُ ظهرَ من تحت غلالة البلوزة، بطنها وحفرة سرّتها، والقليل من نهديها المضبوطين في ستيانٍ أبيضٍ شديد الإحكام والضغط. وضعت الفتاة البلوزة الفضفاضة إلى جانب الحقيبة. ثم فتحت الحقيبة ببطء، وأخرجت منها مرآة صغيرة وإصبع أحمر الشفاه، وبدأت بِطَلْيِ شفتيها الرقيقتين ببطء، وصارت تضغط بهما على بعض، ببطء، كعادةِ كل الفتيات والنسوة، بعد وضعهنَّ أحمر الشفاه. ثم أعادت الإصبعَ والمرآة، ببطء، إلى مكانيهما في الحقيبة. مدّت يدها ببطء، إلى المصنّف، وفتحته، وصارت تبحث فيه، وأخرجت منه صفحتَي (A3) كبيرتين، ببطء، ولفّت ساقها اليمنى على اليسرى، ثم وضعت الورقة على فخذها، وصارت تتأمّلها وتحرّك رأسها كمن يقرأ بانسجام، وتنقر بإصبعها على حافة الورقة، نقرات منتظمة وخفيفة!

كل شيء في هذه الفتاة الجميلة، أثار دهشة واستغراب وفضول يورغن؛ دخولها البطيء في الفارغون، لامبالاتها به وهو جالسٌ ينظرُ إليها، وجلوسها ببطء، وخلعها لمعطفها وشالها وبلوزتها ببطء، وهذه الورقة البيضاء الكبيرة التي هي ليست بصحيفة، التي وضعتها على فخذها، وتأمّلها بعمق وشغف فيها، ونقرها على حافة الورقة. . .، كل هذه التفاصيل والحركات البطيئة، بالإضافة إلى صمتها، لكأنّها معزولة عن العالم، وهي تعلم بأن يورغن ينظر إليها ويتابع حركاتها، كل ذلك أثار لديه فيضاً من الدهشة والفضول.

طوت الفتاة الورقة ببطء، وأعادتها إلى مكانها في المصنّف، ببطء. ثم أخرجت ورقة جديدة ببطء، وصارت تنقر على حافتها

أيضاً، تلك النقرات المنتظمة برؤوس أصابع يدها اليسرى. افتعل يورغن الوقوف متحججاً بالنظر إلى الرفّ العلوي فوق المقاعد، كي يتمكّن من رؤية الصفحة من الأعلى، وما مكتوب عليها؟! فوجد أنها نوتة موسيقيّة فقط. زاد ذلك من استغرابه. لم يتمالك نفسه، فسألها بالإنكليزيّة، قاطعاً عليها اختلاءها بنفسها:

- معذرة سيدتي، هل يمكنني الاستفسار عن شيء؟

توقّفت الفتاة عن النقر، ثم رفعت رأسها ببطء، ونظرت إليهِ، بملامح محايدة ملتبسة، لا تنمّ عن الرغبة في تلقي السؤال أو الاستفسار، أو في رفض ذلك! أمعن يورغن تحديقاً في عينيها البنّيتين الواسعتين لكأنّهما فنجانان من الشوكولاته الساخنة. ومع ابتسامة عريضة ودودة، سألها:

- هل أنت موسيقيّة؟

- لا!

- مدرّسة موسيقى؟

- أيضاً لا. أنا قارئة موسيقى. في القطار، أقرأ الموسيقى فقط. الناس تقرأ الكتب والمجلات والصحف في القطار، أو تتلهّى بالموبايل أو اللابتوب أو الآيباد...، أو تجدها على مواقع الدردشة والتواصل الاجتماعي، أو تُثرثر وتُكثر من الأحاديث...، عديمة الجدوى، ولا طائل منها. أمّا أنا، فكل هذا، أفعله هناك، في البيت. وهنا، فقط أقرأ النوتة، كما أقرأ رواية أو قصّة أو قصيدة شعر. أقرأ النوتة، وأسمع أصوات الآلات الموسيقيّة في داخلي. أسمع حواراتها، بحيث أكون أنا المايسترو الذي يدير ويضبط الحوار

بين الآلات الموسيقيّة وأصواتها. أنتَ، حين تقرأ رواية ما، وتتعمّق فيها وتتفاعل مع النصّ، ألا ترتسم في مخيّلتك الأحداث والشخوص وانفعالاتهم، كفيلم سينمائي؟!

- بلى. يحدث ذلك دائماً.

- أنا أيضاً هكذا، في القطار، أتعامل مع الموسيقى كنصّ أقرأه من النوتة، وأنتج الموسيقى في داخلي، بحيث أكون أنا الفرقة السيمفونيّة والمايسترو والجمهور. هل جرّبت فعل ذلك؟

- لا، للأسف. حقاً مدهش. سأحاول تجربة ذلك. ويجب أن أتعلّم قراءة النوتة الموسيقيّة أوّلاً. لكن أعِدُكِ، سأجرّب ذلك! أشكركِ سيّدتي، حقّاً أشكرك جدّاً.

أبهرتهُ الفكرة، بقدرِ ما أبهرته الفتاة العشرينيّة برقّتها وجمالها وبطء حركاتها. وما إنْ أطلق القطار تنبيهه التقليدي؛ أنهم اقتربوا من بروكسل، وأن القطار سيتوقّف في المحطّات الرئيسة الثلاث: (Brussels-Noord) و(Brussels-Central) و(Brussels-Midi)، نهضت الفتاة ببطء، وارتدت بلوزتها ببطء، ثم لفّت الوشاح ببطء، وارتدت المعطف وحملت حقيبتها ومصنّفها ببطء، وأدارت ظهرها ليورغن ببطء لكأنّه لم يكن جالساً قبالتها ولم يتبادل معها أطراف الحديث قبل دقائق. الفتاة النضرة والفاتنة، التي ترتدي ثياباً بنيّة بتدرجات لونيّة متفاوتة ومنسجمة مع الحذاء البنّي والحقيبة البنيّة والمصنّف الكرتوني البنّي اللون، أوقدت في ذهن وقلب يورغن جمرةً متوهّجة، وغادرتهُ بسرعة.

توقّف القطار على الرصيف رقم 4 في محطة (Brussels-Midi) عند الساعة 16 : 10 مساءً، وعليه الانتقال بسرعة إلى الرصيف رقم 6، كي يستقلّ قطار (Thalys) الذي يتجه نحو باريس عند الساعة 16 : 13، وعليه النزول إلى بهو المحطة عبر الدرج الكهربائي، ثم الصعود بدرج آخر، حتى يلحق قطاره. ثلاث دقائق كانت كافية لإنجاز ذلك، لو لم تكن المحطّة مكتظّة بالمسافرين. حاول يورغن الإسراع، قدر استطاعته، وارتطم بالعديد من الناس واعتذر بسرعة. تعثّرت قدمه بإحدى درجات السلّم الكهربائي، أثناء محاولته الصعود مسرعاً، ورول الدرج يدور، كي يلحق القطار. وكاد ذلك التعثّر يسقطه. فورَ وصوله إلى الرصيف، أغلقَ القطار أبوابه. وعلى بُعد مئة متر، لوّحت له موظّفة القطار بيدها مبتسمةً وهي تصعد الباب الوحيد الذي كان مفتوحاً لها فقط. ثم أغلق ذلك الباب أيضاً، وانسحب القطار بهدوءٍ ولؤم من المحطّة، وبقي يورغن خائباً على الرصيف. هذه كانت أوّل مرّة يجرّب مشاعرَ الذين يفوتهم القطار، رغم إسراعهم للّحاق بهِ، قبل موعِد انطلاقه.

اتصل يورغن بصديقه الفرنسي أوليفييه جوسبان، الذي يفترض أن ينتظره في محطة باريس الشمالية (Paris-Nord)، معتذراً عن التأخير، وأخبرهُ بأنه لم يلحق القطار، ومضطر إلى تجديد تذكرة السفر، وأن ينتظر القطار الآخر الذي سينطلق في الساعة 37 : 16، وسيتأخّر نحو نصف ساعة.

نزل خائباً محبطاً إلى بهو المحطة، متّجهاً نحو مكان قطع الذاكر. شَرَحَ للموظف وضعه وطلب تجديد تذكرته، لأن قطار (Thalys) توقّف في لييج، وتأخّر القطار البلجيكي أيضاً عن موعد

وصوله إلى (Brussels-Midi)، لذا فاته القطار المتّجه إلى باريس. لكن الموظّف، اعتذر عن تجديد تذكرة القطار، بحجّة أنه اشتراها من الشركة الألمانيّة (DB)، ولم يشترِها من شركة القطارات البلجيكيّة. وأن القطار المحلّي البلجيكي، صحيح أنه تأخّر، إلاّ أنه وصل قبل انطلاق قطار (Thalys) بثلاثة دقائق، وأنها مدّة كافية كي يلحق به. على مضض، اضطر يورغن إلى شراء تذكرة سفر جديدة بروكسل-باريس، بسبب انزعاجه من طريقة تعامل الموظّف، وليس لأنه سيدفع ثمن البطاقة، لأن نفقات السفر مغطاة ماليّاً من قبل اللهيئة الاستشارية للمبعوث الدولي.

عاد إلى الرصيف، وانتظر هناك ريثما يحين موعد القطار القادم، رغم برودة الجو، ورذاذ المطر الخفيف الذي تحمله النسائم. اقترب من أحد المقاعد للجلوس، لكن رائحة الرجل الجالس عليه، كانت منفّرة للغاية، حالت دون جلوسه. رائحة واخزة؛ خليط من رائحة التعرّق والحموضة والبول، لكأنّ هذا الرجل الذي يشبه السحرة والمشعوذين أو المشردين في الشوارع من دون مأوى، لم يغتسل منذ أشهر. متسخ ورثّ الثياب، بشعرٍ أشعث، وملتحٍ. جالسٌ واضعاً ساقاً فوق ساق، إلى جواره عبوة بيرة معدنيّة كبيرة، يرتشف منها بتلذذ بين الفينة والأخرى، وبين يديه كتاب. لكنه لا يقرأه ويتصفّحه كالناس العاديين؛ من اليمين إلى اليسار، بل يضع الكتاب أفقيّاً، ويقرأه من الأسفل إلى الأعلى! فضول يورغن الواخز غلبَ رائحة الرجلِ الواخزة والكريهة، ما جعله يقترب منه على مضض، وسؤاله بالفرنسيّة:

- مرحباً سيدي. هل تنتظر القطار المتجه إلى باريس؟

- لا. أنا لا أنتظر القطارات، بل هي التي تنتظرني! قالها بثقة واعتداد، ونبرة ارستقراطيّة متعالية.

شعر يورغن بأن الرجل مختلّ عقليّاً. ومع ذلك، سأله مجدداً:

- ولماذا تقرأ الكتاب هكذا؟

- وهل أنا مجبر على قراءة الكتب كما يقرأها الناس؟! أنا أقرأ السطر من الأسفل إلى الأعلى. ثم أحاول تشكيل أسطر جديدة من الكلمات، بحيث أقرأ من اليمين إلى اليسار، فتصبح لدي قراءتان للكتاب، قراءة حقيقيّة، وقراءة متخيّلة أفترضها أنا.

- لم أفهم ذلك؟

- طبعاً لن تفهم، لأن عقلك وخيالك محدودان بما هو مكتوب لك، منذ قرون، بل ربما منذ اختراع الكتابة. أمّا أنا، فلستُ ملزماً أن أكون مثلك، مقيّداً ومحدود الأفق.

قالها بتبجّح وخيلاء، ولكنةٍ ساخرة. ثم بدأ يشير بإصبعهِ إلى نهايات الأسطر في الصفحة، وذكر أنه يجعل الكلمات التي تنتهي بها الأسطر، سطراً جديداً. وقال: ما تعتبره عشوائيّاً واعتباطيّاً ومنفلتاً، ربما يكون مفتاحاً لفهم أعقد وأكثر النصوص التباساً.

كذلك لم يفهم يورغن، واعتبره شخصاً غريب الطباع والأطوار ويهذي، فتركه في حاله، وابتعد عنه. لكن رائحته بقيت عالقة في أنفه. كذلك بقيت جملته الأخيرة عالقة في ذهنه وذاكرته: «ما تعتبره عشوائيّاً واعتباطيّاً ومنفلتاً، ربما يكون مفتاحاً لفهم أعقد وأكثر النصوص التباساً».

شعر يورغن بالملل والضجر، ومن فوضى القصص والحكايات

التي جرت معه أو التي صادفتهُ خلال رحلته هذه. وصار يسأل نفسه: الكلّ يتحدّث عن ضرورة احترام المواعيد، واحترام الزمن. فهل يحترمنا الزمن؟! الطائرات تخلف مواعيدها، كذلك القطارات والحافلات. البشر يخلفون مواعيدهم. الموت يخلف مواعيده، إذ يأتي باكراً أحيّاناً، ومتأخّراً أحياناً أخرى. كذلك الحياة تخلف مواعيدها في المجيء والرحيل. الكثير من الأجنّة تولدُ قبل موعدها المحدد، وقبل اكتمالها. والكثير منها تولد بعد موعدها المحدد!؟ بعضها يموت، قبل أن ترى النور وتستنشق الهواء، وتطلق صرختها الأولى. ما الحكمةُ في وصول «ملك الموت» إلى أرحام النساء، لقبض أرواح الأجنّة؟! يبدو أن الذي يأتي باكراً عن موعده، كالمتأخّر عنه، كلاهما يخلف موعده. والمتأخّر عن موعده، الأفضل له ألّا يأتي، من أن يأتي متأخّراً. هل أتيتُ في موعدي إلى هذه الحياة؟ وهل سأغادرها في الموعد المحدد والأجل المسمّى لي، كما يُقال؟!

انتابتهُ موجة غريبة وخانقة وقابضة على روحه من الاكتئاب واللاجدوى من كل شيء. تهادى قطار (Thalys) المتّجه إلى باريس وتوقف أمامه بجانب الرصيف. خرج منه أناس كثر. ودخله أناس كثر. بتثاقلٍ ويأسٍ وحزنٍ وتأمّلٍ داخلي، صعد يورغن القطار، كمَن يصعدُ منصّة الإعدام. قضى ساعة و22 دقيقة في التأمّلات ومراجعة ما شاهدهُ وسمعهُ من قصص.

وصل القطار في موعده تماماً إلى محطة باريس الشمالية فنزل منه، ولم يكن في استقباله أحد. لم يحمل الموبايل كي يتصل بصديقه ويسألهُ عن سبب عدم تواجدهِ في المحطّة، كما وعده. غادر

القطار بمَن فيه. وغادر الواصلون والمستقبلون. وبقي الرصيف خالياً إلّا من يورغن. خرج هو أيضاً من المحطة، يحذوهُ القليلُ القليلُ من الرغبة في السير على غير هدى في شوارع باريس التي تكرهُ النوم.

يان دو سخيبّر

أوستند

20/ 08/ 2015



بعد قراءة الروايات الثلاث، عجزَ المحقق إيريك فان مارتن عن التقاط أي خيط، يمكن أن يقوده إلى كشف سبب اختفاء يان دو سخيبّر. لكنه نجح في اكتشاف عوالمه الروائيّة الغنيّة والغريبة. بل أصبحَ مفتوناً بها، لدرجة أن شخوص وأبطال روايات دو سخيبّر، صارت تلاحق إيريك في صحوه ومنامهِ!

لم يعلن فشله بعد، في استخدام الأدب والفنّ كوسيلة في التحقيقات الجنائيّة. إذ اختارَ اللوحات الثلاث الأخيرة فقط، من ضمن أعماله التشكيليّة، وعرضها على ناقد تشكيلي بلجيكي مشهور، وهو في انتظار قراءاته لها، لأن إيريك لا يفهم في التشكيل. كذلك عرض بعض قصائد دو سخيبّر الأخيرة على ناقد أدبي بلجيكي، ربما تفضي قراءة تأويلاته للنصوص إلى بصيص يمكن السير باتجاهه، في هذا النفق أو متاهة الأنفاق التي تدعى حادثة اختفاء الكاتب يان دو سخيبّر.

اللوحات الزيتيّة الثلاث التي انتقاها المحقق فان مارتن كانت بعنوان: «**خليط**» رسمها سنة 2011، و«**البُراق**»، و«**عيني راسبوتين**»، ويُظهر توقيعه عليهما أنه رسمهما سنة 2014. كما عثروا

في مكتبه على 5 سكيتشات أو تخطيطات أوليّة للوحة واحدة تُظهِرُ أنه كان ينوي رسمها من زوايا مختلفة، ولكنه لم يرسم تلك اللوحة المفترضة!

اتفق إيريك مع الناقد الأدبي باول دو بوتّر (Paul de Potter) والناقد التشكيلي يوريس فاندوكوكس (Yoris Vandecox)، على اللقاء في مكتبه، للاستماع إلى رأيهما حول القصائد واللوحات، بعد أن وضعهما في صورة الموضوع سابقاً، والأسباب التي دعته إلى ذلك.

رحّب إيريك بضيفيه، وفي أعماقه شعورٌ بأنه ربما يخرجُ من هذه الجلسة بمفتاح يمكنه تحريك قفل الغموض في حادثة الاختفاء هذه. ذكر لهما أنه قرأ روايات دو سخيبّر الثلاث. فقاطعه باول مستغرباً: «معذرة يا حضرة المحقق. يان دو سخيبّر، له روايتان مطبوعتان فقط. ولم أسمع أن له رواية ثالثة؟!»، أجابه إيريك بابتسامة وثقة: «له رواية ثالثة غير مطبوعة، عبارة عن مخطوط، وجدناها في مكتبه». ثم عادَ لإكمال حديثه: وقرأتُ كتبه الشعريّة وقصائده غير المنشورة، وعدتُ إلى الحوارات التلفزيونيّة والصحافيّة التي أجريت معه، وتفحّصتُ أعماله التشكيليّة...، ولم أخرج من كل ذلك بشيء أستندُ إليه في التحقيق الذي أجريه بخصوص حادثة اختفائه. لم أخرج بشيء سوى بالمتعة ولذّة القراءة والانجذاب إلى عالم الأدب. لا أخفيكم، كلما كنت أنتهي من قراءة رواية من رواياته الثلاث، أجد نفسي أسيرَ ورهينَ عوالمه. وتتراءى الأحداث والشخوص في الواقع، بحيث أجد وجوه بعض أبطال روايته في السوق أو العمل أو الشارع أو القطار أو الطائرة...! ليس هذا وحسب، بل تداخلت

الروايات الثلاث في ذهني، بحيث أظن أن أبطالها يتبادلون أمكانهم في هذه الكتب الثلاثة.

حقّاً، لا أعرف ماذا أقول!؟ لقد خلق يان في داخلي شعوراً مُحفّزاً للكتابة وحبَّ الأدب، وأنا الذي كنتُ بعيداً، كل البعد، عن عالم الأدب والأدباء! شعرتُ أن الروائي يحاول تقمّص دور الربّ، بخلقهِ عالماً وأشخاصاً بحيوات وأحلام وأفكار، يسيّرهم أحياناً، ويخيّرهم أحياناً، يكتب لهم أقداراً ومصائر، ويحدد لهم مشيئات، يفرحهم، يحزنهم، يضعُ لهم نُظُمَاً وقيماً، ويدفع أبطاله إلى كسرها أحياناً! يعاقب أبطاله، ويكرّمهم أحياناً. . .، إنه شيء أقرب إلى سلوك وتعامل الآلهة مع خلائقها! حتّى تشكّلت لدي قناعة مفادها أنه مَن أراد أن يصبح إلهاً، عليه أن يتجه إلى الكتابة الروائيّة، بدلاً من الاتجاه نحو السلطة وطغيانها وجبروتها. أشعرني دو سخيبّر بأن الطغاة لو اتجهوا إلى كتابة الرواية، ربما ما أصبحوا طغاةً ودكتاتوريين، محاولين لعب دور الآلهة والأرباب على البشر. لأن الروائي مهما حاول أن يكون محايداً وموضوعيّاً ويزعم التعامل الحرّ مع شخوص وأبطال رواياته، إلاّ أنه يبقى يحاولُ تفريغَ شهوته للسلطة والتحكّم بحيوات البشر ومصائرهم، في عالمه الروائي الافتراضي بين دفّتي الكتاب - الرواية!

أودّ الاستماع إليكم أيّها السادة. فلنبدأ من عندك، سيّد دو بوتّر، تفضّل.

- أشكركم. فكرة استخدام الأدب والفنّ كوسيلة في التحقيق الجنائي، هي بحدّ ذاتها، فكرة لافتة وشديدة الأهميّة وتصلح لأن تكون أساساً لعمل روائي أو فيلم سينمائي رائع. لأن الفكرة غير

متداولة كثيراً في الأدب البلجيكي والأوروبي. للفنّ والأدب، والإبداع عموماً، صلة وثيقة بعلم النفس. وأعتقد أن قوانين العقوبات أيضاً تأخذ بعين الاعتبار الدوافع النفسيّة أو التحليل النفسي للسلوك الإجرامي. لذلك أعتقد أنه يمكن للأدب والفنّ أن يكونا من الوسائل الجد مهمّة في فكّ ألغاز الكثير من الجرائم التي حدثت وتحدث في العالم.

عموماً، لنعد إلى تجربة يان دو سخيبّر. كوني أعرفه عن قرب، وقارئاً لنتاجه الروائي والشعري، المطبوع فقط، أستطيع القول: إنه كاتب بلجيكي مهمّ وفذّ. وأجد أن حساسيّته الشعريّة أقوى بكثير من خياله الروائي الخصيب. ومن خلال آخر القصائد التي كتبها، أستطيع أن أجزم بأنه كان يمرّ بحالة اكتئاب تفاقمت تباعاً، لتصل إلى الذروة في آخر قصيدة كتبها، وكان عنوانها «الطفل والبحر». اسمحْ لي بأن أعطيك أمثلة على استنتاجي وخلاصتي هذه.

- تفضل.

- هذا المقطع الشعري الذي لم يضع له عنواناً، وكتبه قبل اختفائه بنحو شهر، وتحديداً في (15/ 8/ 2015)، ويان دو سخيبّر معروف بأنه لا يكتب حرفاً أو يرسم لوحة، إلّا ويذيّلهما بتاريخ ميلاد أو اكتمال العمل. في هذا المقطع الشعري، تبدو حالة الكآبة المسيطرة عليه، ودفعته إلى العزلة والنقمة على البحر، والشفقة عليه أيضاً. فتارةً نراه ساخطاً على البحر، وتارةً نراه متضامناً معه، معترفاً بحزنهِ. وفي نهاية الفقرة الشعريّة، نجده ساخراً من حزن وقسوة وكبرياء البحر. ما يعكس التناقض الشعري المحفّز للخيال والتأويل، والتلبّد والتخبّط الداخلي لدى يان. وإليك النص:

ما مِن شيءٍ يوازي قسوة البحر. . .
إلّا حزنه.
ما مِن شيءٍ يوازي حزنَ البحر. . .
إلا غرورهُ.
ما مِن شيءٍ قادرٌ على كسرِ حزنٍ وغرورٍ وقسوة هذا البحر. . .
إلّا نورس يحلّقُ فوقهُ، ويلقي ذَرَقَهُ عليهِ.

إنهُ يحاولُ موازاة قسوةِ البحر، بحزنهِ، وموازاة حزنهِ بغروره وكبريائهِ، راسماً سيرةَ البحرِ وفق خطوطٍ متوازيةٍ للقسوة والحزن والكبرياء، لا تلتقي هندسيّاً، لكنها تلتقي مجازاً في التعريف بهويّة البحر وكننهِ، عبرَ تصوّر يان له. وأن هذه الكينونة والهويّة المركّبة للبحر، على قوّتها، لا يمكنها الحفاظَ على نفسها أو أن تدافعَ عن نفسها، أمام رشق النوارس لها بالذرقِ الذي تقذفهُ وهي تطير!.

وحين نقرأ المقطع الشعري الثاني والذي كتبه في 28 من الشهر نفسه سنة 2015، نجد أن حالة الاكتئاب والخيبة من الحياة، ازدادت تفاقماً لديه. ودوماً يبقي دو سخيبّر هامشاً من الالتباس لدى القارئ، بحيث تبقى جذوة السؤال متقدة. وفي هذا المقطع، لا نعرف ما إذا كان يرثي نفسه، أم يرثي مكاناً آخر، يعيش حرباً وكارثة إنسانيّة:

كنتُ عَمَاراً، ولم يرَني أحد.
صرتُ منكوباً، ولم يرَني أحد.
صاحَ وطنٌ، والريحُ تقضمهُ.

قصيدته الأخيرة، حسب التاريخ المكتوب في أسفلها (3/ 9/ 2015) وعنوانها «**الطفل والبحر**» أهداها إلى الطفل السوري الذي وُجد غريقاً في تركيا على ساحل بحر إيجا، ذلك الطفل الذي هزّتْ صوره العالم. على فكرة، دعني أفيدكُ بمعلومة أن يان دو سخيبّر، في كل قصائده، لم يصدف أنه أهدى قصيدة له إلى صديق أو صديقة أو إلى حبيبة أو مكان. . . ، وهذه القصيدة الوحيدة واليتيمة والأخيرة له التي أهداها إلى طفلٍ غريق. وهذا دليل على مدى الحزن والألم والتمزّق الذي خلقته مأساة ذلك الطفل في أعماق دو سخيبّر. أعتقد أن عنوان القصيدة «الطفل والبحر» مستوحى من رواية «الشيخ والبحر» لهمنغواي. ويظهر ذلك في نهاية القصيدة أيضاً، حين يقول الطفل إنه «صارعَ سمكة قرش»، كذلك الصياد العجوز سانتياغو، صارعته أسماك القرش، وسلبته السمكة الكبيرة التي اصطادها بعد عناء ومجازفة.

في هذه القصيدة، حاول يان العودةَ إلى طفولته، وأن يكون لسان حال ذلك الطفل السوري الغريق. وأعتقد أن روايته الأولى (**غريب على أراضٍ غريبة**) التي كتب فيها سيرة والده، في هذه الرواية أيضاً، يظهر أن أمّ يان كرديّة من تركيا. لا أعتقد أن الجانب العرقي هو الذي دفعه إلى التأثّر العميق بمأساة الطفل الكردي السوري. ولكن هذه معلومة تُقال، وربما تفيدكَ في شيء. سأقرأ القصيدة لكما:

الطفلُ والبحر

إلى آلان عبدالله شنو

أمي...
هذا اليوم، داعبتني الأسماكُ كثيراً...
وكذلك الأمواج.
كدتُ أغرِقُ البحرَ في حبّي.
ظنّني زبدُ البحرِ لعبةً سقطت من يد طفل غريق.
أودعتُ لدى الأسماك الكثيرَ من الضحكات.
أودعتُ كل أحلامي، بكائي، غنائي.
وودّعتُ الموتَ...
عُدتُ من حيثُ أتت الريح، وعادَ البحر إلى حيث يأتي الغروب.

* * *

أمي...
أنا شروق الحكاية.
طريحُ الأمواجِ والشواطئ.
أدفعُ بزورقكِ، كأنه من ورقِ الجرائد التي ستكتب عنّي.
لا تخبري إخوتي أنني عالقٌ في حلق الكونِ، كلعنةٍ داميةٍ عليهِ.
ستروينّي الرمالُ على أسماعِ من بهم صمم.
ولن يرويني ماء البحر.

* * *

أمي...
لا توقظيني.
أريد النومَ في حضنك، أكثر من أيّ وقتٍ مضى.
لا تقصّي عليّ حكايتي... حكايةَ شعبٍ غريق، ووطنٍ حريقٍ غريق.
قصّي عليّ حكايةَ «ليلى والذئب»...
أو أيّة حكاية أخرى.
الذئابُ، لا عتبَ عليها، ولا تُلام.
كذلك ليلى وجدّتها، لا لوم عليهما.
ربما الليل...! الليل، هذا الشاعرُ القاتل، حين يغدو مهداً شديدَ السُّكرِ والترنّح، يمكن لومهُ.
أيقظيني، حين يغرقُ العالمُ في نومي.

* * *

أبتي...
حتّى البحرُ أيضاً يلفظنا!؟
تنسجنا الأقدارُ جثثاً تتقاذفها الحرائقُ والمياه.
لكن، سأكبرُ يوماً.
ولن أنتقم.
ولن أسامح.
سيكبر معي ألمي وأملي...
وسيصغرُ العالم.

* * *

أبتي...

هل قلت لك: سأكبرُ يوماً؟!

سأغدو بحّاراً يقودُ سفينةً، وأنقذُ العابرين من هنا.

سأوقدُ الشموعَ في قلوب الطغاة... ولن أسامحهم.

انتظرني قليلاً... كي أكبر قليلاً...

ستنتظرني الأسماكُ التي داعبتني كثيراً....

وكذلك الأمواج.

سينتظرني البحر الذي أتعبتهُ كثيراً.

كي أزرعهُ زيتوناً وقمحاً.

لن يسألني:

من أين أتيت؟ ولماذا؟

لن يسألني:

ما هي أخبار كوباني ودرعا؟!

فقط، سيهدهدني كي أخلدَ للهدوءِ الأخير...

لأنني، ليلة أمس، عاركتُ سمكة قِرش.

2015 /9 /3

شعر الثلاثة بالحزن والألم، حين انتهى باول من قراءة القصيدة. ثم قال:

- نعم. الحزن والكآبة والتيقّن من عبثيّة الحياة، وإن كل ما يقال من مبادئ وحقوق وقيم وأخلاق ومُثل عليا...، لا تستطيع فعل

شيء أمام مأساة الطفل السوري، الذي يمثّل مأساة العالم والحياة، بالنسبة إلى شاعر حسّاس جدّاً مثل يان دو سخيبّر.

أطلق إيريك تنهيدةً، وقال: للأسف، هذه هي الحقيقة. لنأتِ إليك سيّد فاندوكوكس.

- نعم. أشكركم حضرة المحقق فان مارتن، كما أشكر الصديق باول على ما تفضّل به. واسمحوا لي بالقول: إن يان دو سخيبّر لم يكن فنّاناً تشكيليّاً، بل حاول أن يكون كذلك. ربما أكون حادّاً في رأيي الذي لم أستطع قوله بشكل مباشر لـ يان، ولكنني كتبته في مقال حول رؤيتي لأعماله في أحد المعارض، وكان ذلك سبباً في انزعاجه. شكرته على محاولاته في أن يكون فنّاناً تشكيليّاً، لكن لم أقع في فخّ بعض النقّاد الذين ينزلقون نحو تغذية الوهم لدى بعض الهواة على أنهم فنانون تشكيليون لا يشقّ لهم غبار.

لم أعد أذكر بالضبط، متى كان ذلك المقال، وهل تناولت فيه معرضاً خاصاً له، أم معرضاً جماعيّاً، كان دو سخيبّر ضمن المشتركين فيه. إنه مجردّ هاوٍ للفنّ التشكيلي. ولو بدأ باكراً، لربما كان هناك كلام آخر حول تجربته. آمل ألّا يُفهم كلامي على أنني أرجّح كفّة من يحملون إجازات من كليّات أو معاهد أو أكاديميّات الفنون التشكيليّة. فليس كل من حصل على شهادة من هذه الأكاديميّات فناناً. وليس كل رسّام فناناً، ولكن كل فنان تشكيلي، يفترض أن يكون رسّاماً أيضاً.

لا أعتقد أن دو سخيبّر تعامل مع اللوحة أو الفن التشكيلي كما

يتعامل بعض الشعراء والروائيين والأدباء كنوع من الاستعراض أو البهرجة أو «البرستيج» على أن هذا الشاعر أو تلك الشاعرة فنانة تشكيليّة أيضاً. أستبعد أن يكون يان من هذا الصنف، لكن ما أنا واثق منه أنه كاتب وأديب مهمّ، ولكنه ليس فناناً تشكيليّاً.

قاطعه إيريك متسائلاً: ما الذي جعلك تستنتج ذلك؟ أو إلى ماذا تستند في حكمك على تجربتهِ التشكيليّة؟!

- سؤال جميل ووجيه، وكنتُ سأجيبكم عنه، في سياق الكلام. التسلسل المنطقي المتعارف عليه؛ هو أن الفنان التشكيلي يبدأ تجربته واقعيّاً، ملتزماً بالنسب والتشريح والمنظور وتناسق الكتل في اللوحة، ناهيكم عن ضرورة الالتزام بنسب الظلّ والنور والعلاقات اللونيّة على سطح اللوحة. يان لديه مشاكل في هذه المبادئ الأوّليّة. فضلاً عن عدم امتلاكه خطّاً قويّاً وجريئاً. وهذا واضح في السكيتشات الأخيرة له، والتي سأعرضها عليكما.

أخرج يوريس جهاز «آيباد» وفتحه ثم وضعه على الطاولة وقال:

لاحظوا معي هذه الصورة، وهي للوحة من لوحاته بعنوان «خليط» أو «مزيج» وقياسها 70×120 سم، زيت على قماش، ويظهر من توقيعه أنه رسمها سنة 2011. في هذه اللوحة، حاول أن يرسم نفسه، بصحبة شخص آخر، وسط زحمة مقهى. ويبدو من المقهى أنه في تركيا، وربما في اسطنبول. حيث صوّر نفسه وكأنّه جالس وحده، ممسكاً بسبّابته وإبهامه عقب سيجارته ويتأمّل دخانها المتصاعد. بينما صديقه ينظر إليه بشيء من الحنق والإحساس بالتجاهل. في هذه اللوحة، عينا يان مركزتان على السيجارة ودخانها، بينما عينا الشخص الثاني مصوّبتان باتجاه وجه يان. هناك خطأ في المنظور.

وخلل في التشريح ونسب أحجام أعضاء الجسم لدى يان والشخص الذي يجلس معه. لاحظا العمق. أقصد الجدار الأخير من المقهى، واللوحة المعلّقة عليه.

قام يوريس بتكبير الصورة أكثر حتى ظهرت ملامح اللوحة واضحة جداً، وقال: هذا الشخص الذي يرتدي ملابس عثمانية، ويمتطي حصاناً ويحمل سيفاً ملطخاً بالدم، لاحظوا ملامحه! إنها ملامح أتاتورك. ربما أراد يان تمرير بعض المقولات السياسيّة بشكل غير مباشر في هذه اللوحة التي رسمها في عمق لوحة «خليط». الهامش الخفي الذي هو في الأصل متن الحياة في تركيا، بينما المتن الظاهر في مقدّمة اللوحة ومركزها هو الهامش الحقيقي! ربما أراد الإشارة إلى صعود الأتاتوركيّة بنسخة إسلاميّة أو عثمانيّة...، في ظلّ ضجيج الاحتفاء بالتجربة التركيّة مؤخّراً. نحن نتحدّث عن 2011، وليس هذه الآن. وربما أراد تمرير أفكار أخرى نجهلها. عموماً كلها أفكار جيّدة ومقبولة. والمُشكل ليس في فكرة اللوحة، بل في تقنيات الرسم، أثناء محاولة التعبير عنها. لاحظوا معي نسبة توزّع الظلّ والنور، أيضاً هناك خلل. عموماً، ما ترونه هنا، هو سقف ما حاول إتقانهُ يان في هذه اللوحة.

سأله إيريك: ألا تلاحظ أن ملامح صديقه أو جليسه الذي ينظر إليه بحنق، موجودة في وجوه شخوص آخرين جالسين في المقهى؟ ولكن في حالات مختلفة. لاحظ هذا مثلاً؛ يجالس حسناء. وذاك يجالس امرأة عجوز متصابية، والثالث يحمل آلة تسجيل ويتحدّث مع شخص معه...، والجميع لديهم ملامح تشبه ملامح الشخص الذي يجالس يان؟ قالها إيريك ضاحكاً!

- ملاحظة مهمّة، لم أنتبه إليها. ولكن أعود للقول: المشكلة ليست في الأفكار التي أراد طرحها يان في هذه اللوحة، بل في مدى التزامه بمعايير المدرسة الواقعيّة في الرسم، كون لوحته تنتمي إلى هذا الاتجاه في الفن التشكيلي.

بتعبير آخر، هناك روائي ذكي، طرح فكرة ذكيّة وغير مطروقة في عمل روائي سيّئ! سوء العمل، لا تشفع له فكرته الجيّدة! أو أن يحاولَ مخرج سينمائي إنجاز فيلم مستوحى من عمل روائي مهم، ولكن المعالجة السينمائيّة كانت سيّئة للغاية! آمل أن تكون فكرتي وصلت بوضوح.

هاتان اللوحتان مرسومتان سنة 2014، وكلتاهما قياس (50×70) زيت على قماش، اللوحة الأولى بعنوان «البُراق». وأعتقد أن اسم اللوحة مستوحى من التراث الإسلامي. وهو اسم حيوان غريب؛ أكبر من الحمار وأصغر من البغل، يُقال إن النبي محمد ركبه في رحلته من الحجاز إلى القدس في لمح البصر. ومن القدس صعد إلى السماء.

لا تجدُ في اللوحة أي حيوان أو دابّة؛ براق أو غيره. هناك حائط حجري منهار، ويبدو أن هناك شخصاً تحت حجارة هذا الحائط، أو تحت أنقاض منزل منهار أو مدمّر. سماء زرقاء داكنة، ملطخة بضربات لونيّة حمراء. الرمادي الداكن في أسفل اللوحة. من خلف الجدار المنهار، تتصاعد أبخرة ودخان رمادي مخلوط بالأحمر والبرتقالي والأصفر. وكأنّ هناك هالات ضوئيّة كالتي تحدث أثناء الانفجارات!

حاول يان في هذه اللوحة تجنّب الواقعيّة والميل نحو التعبيريّة

وتأثيرتها. ولا أستطيع بالضبط التقاط الفكرة التي أراد قولها في هذه اللوحة. حسب رأيي، وربما أكون مخطئاً، لجأ يان إلى استخدام هذه التقنيّة في الرسم، لأنه يعرف نقاط ضعفه في ما يتعلّق بنسب التشريح والمنظور ووجوب الالتزام بدقّة التفاصيل في التصوير الزيتي، حين يريد تقديم عمل واقعي. بمعنى آخر، حاول إخفاء نقاط ضعفه في الواقعيّة عبر التوجّه نحو التعبيريّة. وإذا عُرِضَت هذه اللوحة على ناقد آخر، غير مطلع على تجربته ولوحاته الواقعيّة، لربما انطلت عليه الحيلة! الكثير من الفنانين التشكيليين حين يفشلون في التصوير الزيتي الواقعي، يلجأون إلى التعبيريّة والسرياليّة والتكعيبيّة. . .، والمدارس الحديثة، بحجّة الهروب من الاتجاهات والمدارس الكلاسيكيّة في الفنّ التشكيلي، والبعض منهم، في الأصل، لا يجيدها أو يتقنها، حتّى يهجرها إلى تقنيّات واتجاهات تشكيليّة حديثة!

قال باول: ربما أراد يان القول: إن البراق الذي امتطاه الأنبياء للصعود نحو الربّ، هم الضحايا، البشر البسطاء المعذّبون في الأرض، كالشخصِ الموجودِ تحتَ أنقاضِ الجدارِ المُنهار؟

- ربما. ردّ عليه يوريس. ثم استأنف كلامه. الناظر إلى هذه اللوحة، يشعر بالحزنِ الباعثِ على الخوف والقلق من المستقبل. السواد والرماد الذي يفترش أرضيّة اللوحة، السماء الداكنة الملطخة بالأحمر، يشيران إلى راهنٍ محترق ومعذّب. وأن الجدار المنهار على هذا الشخص، ربما يخفي خلفهُ فاجعة أكبر بكثير، مما نظنه.

أما بخصوص هذه اللوحة الغريبة «عينا راسبوتين»، فقصة الراهب الروسي وعلاقته بالأسرة القصيريّة الروسيّة الحاكمة، وكيف قُتل هذا

الراهب، وكل هذه التفاصيل معروفة. لكن، لماذا استخدم هذا الاسم للوحته؟! سؤالٌ لم أجد له إجابة.

أرضيّة زرقاء داكنة وموحشة. في المركز عينا راسبوتين المخيفتان. وتتوزّع على سطح اللوحة الكثير من الأعين، عرفت منها عيني يان دو سخيبّر الموجودتين في زاويتي اليسار واليمين، أسفل اللوحة، تنظران إلى عيني راسبوتين. بينما الأعين الأخرى، فتنظر بشكل عشوائي إلى زوايا مختلفة.

ولأن هذه اللوحة شكّلت لدي غموضاً، لجأت إلى أحد حواراته الصحافيّة التي تحدّث فيها حول هذه اللوحة أنه رسم فيها عيني بوم، عيني صقر، عيني ذئب، عيني قديس، عيني قوّاد، عيني عاهرة، عيني مقامر، عيني قاتل، عيني ملاك، عيني المسيح، عيني مريم، وعينيه أيضاً. . ، تحيط بعيني راسبوتين.

لوحة غريبة ومخيفة وتثير مشاعر الرعب. الناظر إليها من زوايا مختلفة، تتشكّل لديه انطباعات مختلفة، وطاقة سلبيّة ومنفّرة، بنسب مختلفة.

ما لفت نظري، أكثر من هذه اللوحات الثلاث، السكيتشات الخمسة، وكلّها لذلك الطفل الغريق على ساحل بحر إيجا. ربما حاول يان التأسيس لرسم لوحة، مستوحاة من مأساة ذلك الطفل، فلم يستطع. لذا، لجأ إلى كتابة تلك القصيدة التي قرأها باول قبل قليل. أو أنه كتب القصيدة، وشعر بأنه لم يعبّر عن حزنه وألمه فيها، لذا أراد قول المزيد عن تلك المأساة، برسم لوحة ربما تكون تتمة لقصيدته. يبدو أن مأساة الطفل هزّته من الأعماق، وخلقت في روحه جرحاً كبيراً ومؤلماً، من الصعب أن يندمل.

خيّم الصمتُ على الثلاثة. وبعد هنيهة، كسره إيريك بالقول:

- طيب، والحال هذه، عرفنا سبب اختفاء يان دو سخيبّر. وهي حالة الحزنِ الكآبةِ واليأس من الحياة، واللاجدوى من الكتابة والرسم. وجاءت المأساة السوريّة وغرق ذلك الطفل ليطيحا بأيّ أملٍ متبقٍّ لديه. ولكننا لم نعرف أين اختفى؟ وهل سيعود أم لا؟ ولماذا يعاقب نفسه على أفعال لم يرتكبها؟ أيّ شعور هائلٍ بالمسؤوليّة هذا، يدفعه إلى معاقبة نفسه على أفعال لم يقترفها؟ أم هو يعاقبنا باختفائه هذا؟! تفضّلا واقرآ معي ما كتبه في رسالته الأخيرة!

أعطاهما إيريك نسخة من رسالة يان الأخيرة.

قُضي الأمر. سأعدمُ حرقاً كل ما كتبتهُ ونشرته أو لم أنشرهُ من روايات وقصصٍ وشعر ومقالات وتفاهات، وما رسمتهُ من لوحاتٍ وسخافات. حفلة الإعدام هذه ستكون في حديقة منزلي يوم 17/ 9/ 2015، ولن أدعو أحداً منكم إليها. حفلة، أصفّي فيها حسابي مع الحياة والموت معاً، مع الأحلام والخيبات معاً، مع الانتماء واللّانتماء معاً.

ما عاد هناك داعٍ للخوف على الحياة. لأنها نفسها باتت مخيفة، وتثير الذعر والرعب. بل صارت تخاف على نفسها مِنّا، ومِن نفسها أيضاً.

من يقول: إن الحياة جميلة، فهذا تأويله. ومن يقول: إنها قبيحة، هذا تفسيره لها. عشنا الحياة، كما يحلو لنا. وآن أن نعيشها كما يحلو لها. سأذهبُ إليها كي أسألها: كيف يحلو لكِ أن أعيشكِ أيّها الحياة؟ سأعيشكِ من دون الحاجةِ إلى مِلحِ الفقراء والعاجزين والضحايا والمنكوبين الذي تسمّينه الأمل.

واثقٌ من أن الموتَ سيعترض طريقي. سيحاول إغرائي بأن أجرّبه. سيحاولُ التغريرَ بي، كما غررتْ بي الحياة كثيراً. أحياناً، يبدو لي الموتُ غبيّاً جدّاً، إذ أنه مُتأكّدٌ تماماً من أنني جرّبتهُ، من دون أن أفقد الحياة. لكنه لا يفقد الأمل في محاولةِ إغرائي والتغرير بي! وأحياناً أخرى، يبدو لي الموت ذكيّاً وأكثر دهاءً من الحياة، حين يستدرجها إلى فخاخهِ وكمائنهِ، فنكونُ أفراداً وشعوباً وقبائلاً وأوطاناً، ضحايا سقوط الحياةِ في كمائنِ الموت. كلما تلطخت الحياة بالقبح، يزدادُ الموت جمالاً. وكلما أوغلَ الموت في البشاعة والقذارة، تزدادُ الحياة غرقاً في الانحطاط والحضيض. والكارثة الكبرى أننا أمام خيارين لدودين، لا ثالث لهما؛ الحياة أو الموت. هذان التؤامان المتناحران، لا نعرفُ أيّهما كان سابقاً للآخر؟ هل كانت الحياة تسبقُ الموت؟ أم الموت يسبق الحياة؟ وحين يعيشُ الموتُ، هل يمكنُ تصنيفه بين الأحياء أو أنه ينتمي للحياة؟! الحياة، حفلةُ أوهامٍ مفتوحة، لا خيار أمامنا سوى الدخولُ إليها، دون أن نعرف؛ لماذا؟! ولا مناصَ أمامنا من الخروج منها، أيضاً دون أن نعرف؛ لماذا؟ وإلى أين؟!

أكثر من ذلك؛ باتت الحياة حفلة انتقامٍ، وحفلة ندمٍ مفتوحتين، لم يعد لي مكانٌ فيهما، وأتركهما لكم، كيٍ تشبعوا منهما، وتشبعان منكم!

لا أريدُ الانتماء إلى أيّ منهما؛ الحياة والموت! ولكن، كيف لي أن أعدمَ كل أثرٍ يدلُّ على أنني حيّ أو كنتُ منتمياً للحياة؟! وإذا فعلتُ ذلك، كيف لي ألّا أكون منتمياً للموت والعدم؟!

إنّي مغادركم إلى حيثُ ينبغي عليَّ أن أكون، ولا تكونون.

أرفضُ أن ينشغل بي أحد. أرفضُ تصنيفي في عِداد الأحياء أو الأموات. وأرفض اعتباري مفقوداً، ينبغي البحث عنهُ. ثمّة أشياءٌ أكثر أهميّة، تستحق أن تهدروا أوقاتكم في البحث عنها.

يان دو سخيبّر

2015 /9 /10

أوستند

- يا لها من خيبة وكآبة عميقة!! هذا خطابُ شخصٍ ذاهب للانتحار، ولن يتراجع أبداً! قال يوريس

- لا، إنهُ يهجو الموت والحياة معاً. هو حائر، ويبحث عن طريقة أو وسيلة تجعله غير منتمٍ للأحياء والأموات معاً. خطابٌ لا يرجّح أيّة كفّة. ولا يُعرف منه؛ هل فضّل الموت على الحياة أم الحياة على الموت!؟ ربما هو في مرحلة الاختفاء والتفكير والتأمّلات والمراجعات. هذا ما فهمته منه! أنه في هذا الخطاب، ما زال منتمياً للحياة، ويريد الفكاك منها، من دون الانتماء للموت والعدم. خطاب ملتبس وجميل ومؤثّر ومحزن. ردّ عليه باول.

- مضى على اختفائه ثلاث سنوات؟! أين هو؟! سأل إيريك.

- وربما تمضي ثلاثون سنة أيضاً، ويظهر لك يان دو سخيبّر، يطرق باب منزلك! من يدري ما تخبّئه لنا الحياة. لقد طلبَ منكَ ومنّا جميعاً عدمَ الانشغال به والبحث عنه. أحياناً ثمة أشياء أو أشخاص، نفقدهم فجأةً دون سبب، فيعودون إلينا، أيضاً فجأةً، وبدون سبب.

شكر إيريك ضيفيه على التعاون والحضور، معتذراً عن إشغاله لهما. وقال: «حاولت أن أجد حلاً للغز اختفاء هذا الرجل. ولكنني فشلت. لقد انتصر علينا باختفائه. ويبدو أن الغائب له سحر جاذب. الغائبُ؛ حيّاً أو ميّتاً أو مفقوداً، ينتصرُ على الحياة. وبعد اكتشافي له كاتباً ومبدعاً حتى في الاختفاء والتواري الحقيقي، وليس المجازي داخل النصوص، ما عادت تهمّني كثيراً عودته. ربما هذا الأمر بالغ الأهميّة لزوجته وأولاده وأهله وأصدقائه. وإذا قرر يان دو سخيبّر العودة إلينا بعد أسبوعٍ أو شهر، فلن يجدني خلف هذه الطاولة». أشار إيريك إلى طاولة مكتبه.

في تطوّر دراماتيكي ومفاجئ، نشرت الصحافة البلجيكيّة خبر استقالة إيريك فان مارتن من العمل والاستمرار في متابعة هذه القضيّة، وأنه قرر الاتجاه نحو الأدب والكتابة. وذكرت أيضاً أن التحقيق في قضيّة اختفاء يان دو سخيبّر، لم يغلق بعد. واستلمته المحققة فانيسا ديفوس، التي وعدت بالسعي نحو كشف ملابسات حادثة اختفاء الكاتب البلجيكي المفقود.

* * *

انتهت.

*

من 7/ 9/ 2017 إلى 13/ 5/ 2018

تنويه

في هذه الرواية الكثير من القصص الحقيقيّة، والكثير من القصص المتخيّلة. وما بين الحقيقي والمُتخيَّل، تتأرجحُ الحياة، ويتأرجحُ رواتها ورواياتها.

هـ. أوسي

Hoşeng Osê / Hosheng Ossi / هوشنك أوسي

شاعر وكاتب وصحافي كردي سوري، ولد يوم 5/ 1/ 1976 في بلدة الدرباسية - الحسكة / سوريا.

يكتب باللغتين العربيّة والكرديّة. متخصص في الشؤون الكرديّة والتركيّة. نشرت له صحف عربيّة عديدة: الحياة، الشرق الاوسط، القدس العربي، العرب اللندنيّة، المستقبل اللبنانيّة، السفير، الخليج الإماراتيّة، مجلة الشروق الإماراتيّة، معهد العربيّة للدراسات، مركز مسبار للدراسات، مجلة قلمون، النشرة العربية لصحيفة لموند ديبلوماتيك الفرنسيّة... ومواقع إلكترونيّة عربيّة وكرديّة عديدة.

عمل محرراً للأخبار ومعدّاً للبرامج في قناة (ROJ TV) الكردية. وعمل محرراً في مجلة سورغل الكردية المعنية بالبحث والتحليل والتوثيق.

عضو نادي القلم الكردي.

عضو نادي القلم البلجيكي.

عضو نادي القلم الدولي.

عضو رابطة الصحافيين السوريين.

ترجمت مقالاته إلى الانكليزيّة والتركيّة.

شارك في قنوات التلفزة للتعليق على الأحداث في سوريا وتركيا كـ«الجزيرة»، «العربيّة»، «بي بي سي العربية» و«سكاي نيوز العربية»... وقنوات كردية عديدة.

له نتاجات إبداعيّة نشرتها مجلات عربيّة كـ«نزوى» العمانيّة و«طنجة الأدبيّة» المغربيّة، «الجديد» السوريّة.

شارك في العديد من النشاطات والملتقيات والمهرجانات الأدبيّة والثقافيّة.

صدرت له حتى الآن 7 مجموعات شعريّة مطبوعة باللغة العربيّة والكرديّة:

1 - للعشق نبيُّه.. للجرح شراعه - شعر / أيار 2001.

2 - ارتجالات الأزرق - شعر / كانون الثاني 2004.

3 - Dara sawêrên tî (شجرة الخيالات الظامئة - شعر باللغة الكردية) / أيار 2006

4 - الكلام الشَّهيد - شعر / اذار 2009 / مؤسسة سما كرد.

5 - Şopa xezalê û rojnivîsên pezkoviyekî (أثر الغزالة ويوميّات أيل) / شعر باللغة الكرديّة/ شباط 2012 / اتحاد الأدباء الكرد - دهوك.

6 - قلائد النار الضالة: في مديح القرابين - شعر / دار فضاءات - الأردن / 2016.

7 - Fincana Jehrê: ji rojnivîsên şervaneke winda / فنجان سمّ: من يوميّات مقاتلة مجهولة / شعر بالكردية. دار افيستا - اسطنبول 2017.

صدرت له رواية واحدة: «وطأة اليقين: محنة السؤال وشهوة الخيال» / دار سؤال - بيروت / 2016.

له مجموعة شعريّة ثامنة قيد النشر، بعنوان: «كمائن قاطع طريق» - دار ميسلون.

فاز بجائزة كتارا للرواية العربية عن فئة الروايات المنشورة، دورة 2017، عن روايته «وطأة اليقين».

فاز بالمرتبة الرابعة في مسابقة شعرية نظمتها مؤسسة الأيام الجزائرية سنة 2010، وتم تكريمه.

تم تكريمه في مهرجان كلاويج في كردستان العراق سنة 2013.

تم تكريمه من قبل رابطة الصحافيين والكتّاب الكرد في سوريا.

يقيم حالياً في بلجيكا - مدينة أوستند.





ما عاد هناك داعٍ للخوف على الحياة. لأنها نفسها باتت مخيفة، وتثير الذعر والرعب. بل صارت تخاف على نفسها مِنّا، ومِن نفسها أيضاً. من يقول: إن الحياة جميلةٌ، فهذا تأويله. ومن يقول: إنها قبيحة، هذا تفسيره لها. عشنا الحياة، كما يحلو لنا. وآن أن نعيشها كما يحلو لها. سأذهبُ إليها كي أسألها: كيف يحلو لكِ أن أعيشكِ أيّتها الحياة؟ سأعيشكِ من دون الحاجةِ إلى مِلحِ الفقراء والعاجزين والضحايا والمنكوبين الذي تسمّينه الأمل.

واثقٌ من أن الموتَ سيعترض طريقي. سيحاول إغرائي بأن أجرّبه. سيحاولُ التغريرَ بي، كما غررتْ بي الحياة كثيراً. أحياناً، يبدو لي الموتُ غبيّاً جدّاً، إذ أنه مُتأكّدٌ تماماً من أنني جرّبتهُ، من دون أن أفقد الحياة. لكنه لا يفقد الأمل في محاولةِ إغرائي والتغرير بي!

t.me/t_pdf



www.darsoual.com
dar_soual@outlook.com
@darsoual2014
Dar Soual
@Darsoual